

المعجزة الخالدّة

عظيمة معجزات القرآن - شهادة العالم بما عجز القرآن - دراسة أسلوبيه البياني
إعجاز لهاملي ولبسرتي ولفظي - آتكة في اللغة والأدب - نقصه مزاعم المسترقين

تأليف

الدكتور حسن ضياء الدين عمر

دار النشر الإسلامية

المعجزة الخالد

عظمة معجزات القرآن - شهادة العالم بمجاز القرآن - دراسة أسلوبه البياني
إعجازه العلمي والتشريعي والحلقي - آتاه في اللغة والأدب - نفضه مزاعم المستشرقين

تأليف

الدكتور حسن ضياء الدين عتر

دار البشائر الإسلامية

المعجزة الخالدة

حُفُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

الطَّبَعَةُ الثَّالِثَةُ

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

قَامَتِ بِطِبَاعَتِهِ وَإِخْرَاجِهِ دَارُ البِنَاءِ الإِسْلَامِيَّةِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ
بِئِرُوتِ - لَبْنَانَ - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ وَتُطْلَبُ مِنْهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

“ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : ٨٨ ”

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

“ سُورَةُ الْمَائِدَةِ : ١٥-١٦ ”



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله رب العالمين ؛ الرحمن الرحيم ؛ أنزل القرآن العظيم هادياً شافياً وضاءً ، شفت براهينه أعياناً عمياً فأبصرت ، وقرعت حججه أذاناً صماً فسمعت ووعت ، وأضاءت أنواره قلوباً غلفاً فتفتحت واهتدت . نحمدك اللهم أن أنزلت القرآن الحكيم على خاتم المرسلين ؛ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وجعلته أبلغ دلائل نبوته وأجل آيات صدقه ، فأقام في الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والهادين بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنّ الأدب السامي الرفيع عامل هام من عوامل نهضة الأمة وعنصر فعال في توجيهها اتجاهاً قوياً وفي تقدّمها وازدهارها وسلامة نظرتها إلى الحياة والمجتمع . والقرآن إلى جانب صفته الدينية فهو النموذج الأدبي الأمثل الذي عمل بفاعلية رائعة في نفوس الصحابة وتابعيهم في القرنين الأولين ، ولا يزال تهوي إليه أفئدة الأدباء ويحط الرحال عنده المنصفون العقلاء . لقد قام القرآن العظيم بدور بليغ عميق في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي عند العرب . فإن المعجزة القرآنية الباهرة استعلت على جميع المواهب الأدبية العريقة ، ونشرت أنوارها في أرجاء الجزيرة العربية جميعاً ، وبزغت على شعوب العالم فأدت إلى امتداد

واسع للغة العربية ؛ وإلى رقي بارز في أدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي فيها .

وإن هذا البحث يعرض لدراسة القرآن المجيد ، الكتاب الذي أخرج العرب من أغوار الوثنية السحيقة إلى دُرى الإيمان الشامخة ، وألّف بين قلوبهم ، بعد أن استبدت بهم ضغائن وأحقاد وثرات لو أنفقت لها ما في الأرض جميعاً ما تآلفت قلوبهم . فجمع الله بالقرآن شملهم بعد فرقة ، وخطّ لهم منهج الدولة والنظام بعد القبلية والفوضى ، وبوأهم عرش العزة بالله ؛ بعد دأبهم على التبعية ، حتى مزقوا أعظم امبرطوريتين في العالم . فالقرآن كتاب أنشأ دولة سادت العالم كله ، ونهض بالإنسانية من عميق سباتها ، فأحيا موات القلوب وسما بها في معارج النور والكرامة . وحفز القرآن المسلمين إلى بناء حضارة إنسانية نبيلة ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ، حتى صارت بحق فخر الإنسان على مر الزمان .

فأردت بهذه الدراسة أن نكتنه من أسرار القرآن العظيم ما يُعرفنا لماذا انبهرت به أبصار الأدباء والبلغاء ، وأخذ العجب منه عقول الفلاسفة والعلماء ، حتى ملكت روعته الأفئدة وعقدت الدهشة منه ألسنة الخطباء والشعراء !! ؟ وأن نستبين كيف أطلّ على الجميع من عليائه ، يُشع نوراً وهداية ، ويفيض رقة وعذوبة ، ويتدفق جزالة وجلالة ، وينساب في حنايا الضلوع ، ويتغلغل إلى أغوار النفوس غصاً طرياً . . . حتى يمسك بنواصي الأفكار والأحاسيس . . .

ذاكم هو إعجازُ الأدبِ وأدبُ الإعجاز !!

خاطب الله به العقل والفكر والقلب والوجدان ، وتحدى به البشرية جمعاء . فأبانت دراستنا للعيان أنه معجزة أدبية وعقلية خالدة ، تفرع مسامع الدهر كل نهار ، تثبت إعجازه بأسلوبه البياني وبمحتواه

الفكري والروحي على حد سواء .

لقد انغمس العرب في جاهلية جهلاء ، وأوغلوا في عقائد وموبقات
دكناء ، وفرطوا بعقولهم وأفئدتهم ، وعاشوا في جوانب من حياتهم عيش
الهوام على هامش الحياة ، يتجبر بعضهم على بعض ، ويتضرع بعضهم
بذل الاستكانة لبعض ، ثم يقفون جميعاً ؛ جابرة وصاغرين في صعيد
واحد ؛ تعنو وجوههم بعبودية حجارة نحتوها بأيديهم يبتغون منها جلب
النفع ودفع الضر . أجل ! إنها أصنامهم صماء بلهاء لا تعي ولا تجيب ،
ولا تبدي قدرة ولا حراكاً .!! فهل تعاسة أشنع وأمرٌ من تلكم
التعاسة ؟؟ ثم ماذا بعد . .!!؟؟

سطعت عليهم شمس القرآن المبين . . باغتهم القرآن بأسلوب
رائع خلّاب . . وأصلت على رؤوسهم قوارع التحدي أن يأتوا بمثله ،
وأن يحشدوا لذلك كل مواهبهم مستنصرين بمن شاؤا من الإنس
والجن . . وظل ينتزل معهم حتى تحداهم بسورة واحدة من مثله . .!!

ها هم أساطين الفصاحة والبلاغة يتبارون فينبذ بعضهم بعضاً ، وقد
حشدوا مواهب فذة لم يعرف تاريخ الأدب لها نظيراً . لكن أسلوب القرآن
الفريد الفائق قد فاجأهم فبهتهم وحيرهم وأربكهم . . فلم يُحروا تجاه
عنف التحدي جواباً!! فهل تحداهم بفن غريب لم يألّفوه؟! كلا ! إنما
جاءهم بجنس ما نبغوا فيه وزعموا أنهم بلغوا غايته ! فقد لبسوا تاج
البلاغة وأمسكوا بصولجان اللّسن ! لكن القرآن المجيد قد بهرهم ضياؤه
وفتنهم لألاؤه ، واجتذبتهم آياته وملكت أزمّة خواطرهم علومه وفنونه
وأساليبه تدارسوا أمره فيما بينهم للمكربه . . أزجى زعماؤهم القول عفواً
يشيدون بعظمته ، ويُذكرون بروعته وجلاله وسطوته ، ويُقرّون بربانية
مصدره والعجز إلى الأبد عن مثله !!؟ .

جليلة كثيرة هي مزايا القرآن ، وملاكها أنه هو الرسالة الإلهية

ومعجزاتها الخالدة وهو الدعوة وبراهينها الدامغة ، أجل إنه الشمس وضياؤها ، ولا غرو ! فقد اتحد فيه الدليل والمدلول عليه أقوى من اتحاد الروح بالجسد . فالقرآن هو نفسه الوحي الإلهي المنزل ، وهو الخارق المعجز للخلائق الدال على إلهية مصدره ، فشهد صدقه في عينه لا ينفك عنه مهما توالى العصور وانقضت الدهور !! يقيم للأجيال المتعاقبة براهين دامغة لا تجد الأبواب القويمة والأذواق الرفيعة والفِطْرُ البريئة سبيلاً إلا سبيل الإيمان به والتسليم بنبوة مُبلّغه محمد صَلَّى الله عليه وآله وسلم .

وهذا زمان شقي فيه أكثر الناس بأهوائهم وشهواتهم ، حتى طبع على قلوبهم فاعتنقت من الأفكار الزائغة والتفلسفات الزائفة ؛ ما لا داعي إلى عده وحصره !! لا غرابة ! فهو عصر تتفجر فيه العلوم بالمكتشفات والمخترعات ، فيخدعُ بريقها كثيراً من البسطاء والسطحيين وأنصاف المتعلمين المغرورين ، خاصة عندما يتخذها الخبيثاء والمتحكمون مطية للمكر بهم . لكن أصحاب العقول الراجحة يبلغون بالتأمل المستتير سلامة البحث والاستنتاج ، ويتلمسون في القرآن الحكيم الحقيقة الكاملة والعقيدة الحقّة ، ويلحظون أن كل براهين الحقّ البليغة إنما تزداد ؛ بنمو العلوم الحديثة وتطورها ؛ نصوعاً وضياءً وجاذبية وإشراقاً ، لتثبت وتؤكد مراراً وتكراراً أنه رسالة الله ، بعث بها إلى البشرية نبيه محمداً عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . ومن ههنا تتجلى خطورة دراسة إعجاز القرآن من جميع وجوهه في الدعوة الإسلامية الحديثة ، ابتغاء إنارة العقول ببراهين الوحي الإلهي وترسيخ الإيمان بالله وكتاب الله وبرسول الله على المحجة البيضاء الناصعة إزالة لكل وهم والتباس . وهذا ما حفزنا في هذه الدراسة إلى التماس أوجه الإعجاز الساطعة وبراهين الوحي الدامغة في صورة الأسلوب القرآني ومضمونه على حد سواء . ولما بعدت الشقة في زماننا بين عامة الناس وبين لغتهم الفصحى وتذوق بيانها والتميز بين

مراتب أساليبها ؛ رأيتُ أن أبذل مزيداً من العناية في عرض أوجه الإعجاز الأخرى كالأخبار عن الغيب والإعجاز العلمي . . . إلى جانب الإعجاز البياني . فإن معظم شباننا يتفهمون تلك الأوجه على نحو أمثل . فالتزمت الإسهاب في بحثها نسبياً ؛ حرصاً على إبراز أوضح دلائل تثبيت نبوة محمد ﷺ وأسرعها قبولاً لدى معظم الناس في أيامنا هذه .

ومن مزايا أبحاث كتابنا هذا :

١ - جمع أطراف الموضوع من مصادر متفرقة في مختلف

العلوم :

لقد مرَّ البحث في الإعجاز القرآني في أدوار تاريخية ، وتصدى للبحث فيه ثلاث طوائف : الطائفة الأولى المفسرون ؛ والثانية علماء الكلام والمعتزلة منهم خاصة ؛ والثالثة علماء اللغة والأدب . فرجعت إلى أمهات المصادر - المخطوطة والمطبوعة - مع التمهيص والنقد . فوجدتُ أطراف هذا البحث متناثرة في أرجائها . إذ أُشِبت المؤلفات الأدبية بأبحاث صرفة عن البلاغة والأدب وبمناقشات انقضت أوانها وعفا عليها الزمن ، مما شتت البحث وأخلَّ بنظامه . أما مصنفات علم الكلام « كالمغني في إعجاز القرآن ؛ للقاظمي عبد الجبار » فقد انفرط عقد البحث فيها ، وانتظم في سلك مناقشات فلسفية طويلة عظم فيها الجهد وتضاءل منها النفع . وأرسلت ناظرِيَّ إلى المصنفات الحديثة فوجدت أشهرها يقوم على أسلوب الخطابة وحسن البيان بتطويل زائد دون أن يوفي البحث حقه من الوجهة الموضوعية ، فاستقيت مواد البحث من المصادر الأصيلة ، وكونت من متناثر الأفكار كلاً متجانساً وصيغة جديدة متكاملة عن إعجاز القرآن ، أبرزت فيها ما خلصت إليه من الرأي ونقدت ما لم يوافق البرهان الصحيح .

٢ - الدرس التطبيقي المبتكر على نصوص القرآن : وقد وجدتُ

في كتب التفسير فوائد جمة وأفكاراً هامة لم تتعرض لها كتب الإعجاز وعلوم القرآن ، فتقصيتُ آيات القرآن العظيم وتفسيرها ، فكان عماد الكتاب المنهج القرآني في الإعجاز على طريقة « التفسير الموضوعي »^(١) فزود ذلك الكتاب بشواهد وأفكار جديدة ، وأمدّه بسيل دافق من النفحات الروحية القرآنية ؛ ووفرة من الدلائل العقلية البليغة المفحمة ، التي تورث المتأمل يقيناً صادقاً وإيماناً راسخاً بنبوة محمد ﷺ . وهذا أبداع وأبلغ أسلوب ينهجه الباحث في العقيدة الإسلامية ، وعليه عول في نهاية المطاف أفاضل العلماء وأجل الفلاسفة . وقد نبّه إليه الإمام الرازي فقال في آخر مصنفاته « نهاية العقول » :

(نهاية إقدام العقول عقلاً وأكثرُ سعي العالمين ضلالاً
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذنى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي
عليلاً ولا تروي غليلاً . ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن . اقرأ في
الإثبات ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾
واقراً في النفي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ . . .
وقال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي^(٢) .

٣ - اعتماد أساس موضوعي سليم يصون البحث عن الزلات : إذ
افتتحتُ البحث بإيضاح معنى « المعجز » وخصائصه المميزة ، فاستبان
في ضوء ذلك الإعجاز القرآني ووفرة المعجزات القرآنية . وعرفتُ معنى
« الوجه المعجز في القرآن » لأول مرة ، وحددت أوجه الإعجاز القرآني
بالاستناد إليه . وبذلك خلا البحث من تداخل أوجه الإعجاز مع بعضها

(١) بينت منهجه في « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص : ١٥ - ١٧ .

(٢) النبوات ص ٥٢ وغيرها .

بعضاً ومن تكرار بعضها أو إغفاله أو حشر ما لا يصلح أن يُعدَّ وجهاً فيها .
وهذه مأخذ ما تكاد تجد بحثاً في الإعجاز تبرأً عن شيء منها . فنبهتُ
على جميع ذلك ، ونقدت مذاهب العلماء في أوجه الإعجاز ، وقدمت ما
اهتديت إليه منها على أساس موضوعي سليم .

٤ - دحض تخرصات جديدة للمستشرقين : لقد عُني بعض
المستشرقين باصطناع الدسائس وتعمُّل الشبهات على أصلي الدين
الإسلامي الحنيف : القرآن الحكيم والسنة المطهرة ؛ ابتغاء تشكيك
المثقفين في دينهم وإضعاف يقينهم بكتاب ربهم ورسالة نبيهم . وهذا
أخطر وأنكى كيد يكيده عدوهم بهم . فكشفت أخطر دسائس
المستشرقين وأحدثها ، مستنداً إلى الدليل القاطع والشواهد الناطقة
بالحق^(١) .

٥ - العناية بدراسة الشكل والمضمون : نشأت خلافات حامية في
المذاهب النقدية العربية والأوروبية حول أولوية الاهتمام بالصورة أو
المحتوى ، فتمايزت المذاهب الأدبية ؛ في جملة ما تمايزت به ؛
بالانحياز إلى اللفظ أو المعنى أو مدى مراعاة التلاؤم بينهما . وفي معترك
الخلاف بين أصحاب الدراسات القرآنية ، ذهب بعضهم إلى الاقتصار
على تلمس ملامح الإعجاز في أسلوب القرآن البياني فحسب ، وذهب
آخرون إلى اعتماد أوجه إعجاز أخرى من مضمون القرآن المبين . لكن
بعض الباحثين في عصرنا انحازوا إلى الفريق الأول معتمدين في نقد
المذهب الثاني على ضعف وجدوه في أشياء أوردها أصحاب ذلك

(١) وأما شبهاتهم الأساسية في الحديث النبوي فانظر نقضها في كتاب « منهج النقد في علوم
الحديث » لشقيقي العلامة الدكتور نور الدين عتر رئيس قسم علوم القرآن والسنة في
جامعة دمشق . فقد صاغ فيه قواعد المحدثين في نظرية نقدية شاملة ، يسرت هذا العلم
وأوضحت تكامله ، وقد أبان في دراسته زيف مطاعن المستشرقين المتعلقة بعلوم
الحديث .

المذهب ومغالاتهم بحشر أمور في الاعجاز لا يمكن أن يُعتد بها فيه .

فذهبتُ في هذه الدراسة إلى تلمس ملامح الجمال في أسلوب القرآن البياني والاستدلال على إعجازه ، ثم عمدت إلى استشفاف ما في طياته من معانٍ وحقائق علمية ، لاستجلاء معالم الروعة والعظمة التي فجرت ينباع الاعجاز في القرآن المجيد ، مشيراً في كل وجه إلى سر الاعجاز ودلالته باستدلال ملزم .

وهكذا استهدف البحث تقديم دراسة أصيلة وافية عن إعجاز القرآن في كل من الشكل والمضمون على أساس أدبي علمي مكين ، لتتجلى للباحث الصورة المشرقة عن إعجاز الأدب وأدب الاعجاز في القرآن العظيم .

وهكذا سعتُ إلى تقديم دراسة أدبية شيقة في حسن العرض وتسلسل التبويب والترتيب ، فتجلى الاعجاز القرآني من خلال دلالات آيات الكتاب المبين في تصنيف جديد جامع ، نسَّق أفكار البحث وسلسلها وألان عرضها ، فجاءت سلسيلاً شافياً ، وأبرزتُ أحكام الوثائق في كافة مناحي البحث بين إعجاز القرآن وبين غرضه الأساسي وهو إثبات نبوة محمد ﷺ ، ليزداد القارئ يقيناً وإيماناً على يقينه وإيمانه كلما تواردت عليه دلائل الاعجاز ، تقيم الأدلة القاطعة تلو الأدلة القاطعة على نبوة مبلغ القرآن سيدنا محمد ﷺ ، وليستقر في خلدته أن القرآن المجيد أعظم براهين نبوته في كل زمان ومكان .

والحق أن هذا الموضوع جليل عظيم ، كلما توالى البحث العلمي عليه أظهر للأبصار آفاقاً جديدة واسعة ما عرفت فيها من قبل . وإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في كشف الجديد من المعجزات القرآنية الخالدة وإبانة المزيد من روعتها وسموها وجلالها ، كي أقدم للشباب المثقف نبراس هدى وضياء . والله ولي التوفيق .

البَابُ الْأَوَّلُ المُعْجَزَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الفصل الأول : خصائص المعجزة وتميُّزها .

الفصل الثاني : معجزات رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الفصل الأول خصائص المعجزة وتميزها

- حكمة الله في تعريف الخلق بالرسول الحق .
- تعريف المعجزة وذكر شروطها .
- أهم خصائص المعجزة في القرآن :
 - ١ (المعجزة من خلق الله تعالى .
 - ٢ (استحالة معارضة المعجزة .
 - ٣ (المعجزة تخالف قوانين الطبيعة .
- كرامات الأولياء في القرآن :
 - إثبات الكرامة .
 - وقائع الكرامة .
 - منزلة الكرامة من المعجزة .
- الفرق بين المعجزة والمخترعات العلمية .
- السحر :
 - حكمة الله تقتضي توفير الأدلة للرسول .
 - حقيقة السحر .
 - اشتهاار صدق النبي وافتضاح كذب الدعي .
 - تبرئة القرآن محمداً ﷺ من السحر .

حكمة الله في تعريف الخلق بالرسول الحق

إن أي إنسان راشد إذا أرسل إلى جماعة رسولاً قدر على تزويده بعلامة خاصة تُطمئن نفوس المرسل إليهم وتوثقه عندهم ، فالله سبحانه على هذا أقوى وأقدر . وإذا كانت حكمة العبد تقضي أن تكون العلامة قوية التعريف بصدق سفيره ؛ لئلا يختلط عليهم موفده الصادق بالدعي المزور المتحل ؛ فالله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين أبلغ إحكاماً لذلك .

والعلامة الإلهية هنا أن يُجري الله على أيدي الرسل أمراً بديعاً هو من خصائص ربوبيته ، ويعجز الخلق عن مثله فيعلمون يقيناً أن هذا لا يفعله إلا الله ، وأنه تعالى ما أجراه على أيدي الرسل خاصة إلا تصديقاً لهم وتثبيتاً لرسائلهم . وهذا ما نسميه : المعجزات . فظهور المعجزة على يد الرسول أمر قضت به حكمة الله وعدالته ، فهو بالتالي سنة الله وعادته في رسله . فمن خصه الله بتلك الخصائص فميّزه بها عن غيره ، عُرف أنه من ذلك الصنف المخصوص وهم الأنبياء . فإن عادة الله وسنته المطردة في خلقه أنه لا يجعل تلك الآيات إلا مع النبوة . فعادته وسنته لا تتبدل وأفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل . فالمعجزات دلائل يقينية عظيمة على نبوة النبي وتلقيه الوحي عن الله جلّ شأنه .

فالحديث عن المعجزات أمر إلزامي لدى البحث في نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم ، فهي من دلائل نبوته . وقد أشار إليها القرآن

عامة : ﴿ قل إنما الآياتُ عند الله ﴾^(١) وأشار إلى بعضها خاصة ﴿ اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾ . وتمييزاً للمعجزة عن خوارق أخرى يجريها الله على أيدي بعض الصالحين يتحتم عليّ أن أتحدث عن « الكرامة » ومنزلتها من المعجزة . ولنفس الغرض ؛ ورداً على تُهم المشركين للرسول بأنه ساحر ؛ وتثبيهاً للمعجزة تُجاه شكوك بعض المشاهدين للعجائب السحرية ؛ وجب التعرض للسحر وبيان الفرق بينه وبين المعجزات :

تعريف المعجزة :

المعجزة اسم فاعل مأخوذ من العجز ، وهو مقابل القدرة . وفي القاموس : معجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي ، والهاء للمبالغة .

قال الفخر الرازي : « المعجزة عرفاً أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة » .

وقال ابن حمدان : « المعجزة ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداء ، بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها » .

وذكر بعض العلماء أنه يكفي أن يظهر التحدي بقريئة الحال .

ونقدم ؛ بالاعتماد على شروط المعجزة وخصائصها ؛ تعريفاً لها أكثر ملائمةً لأفهام مثقفي العصر ، فنقول :

« المعجزة : أمر يجريه الله على يد النبي ، يفوق طاقات البشر

(١) سورة الأنعام : ١٠٩ وسورة العنكبوت : ٥٠ ، وانظر سورة الرعد : ٣٨ وسورة غافر :

٧٨ وسورة الإسراء : ٥٩ .

ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة ، يتحدى النبيُّ به الناس فلا يقدر أحد على معارضته » .

أما تسميتها : فإن علماء الكلام قد أطلقوا عليها اسم « المعجزة » لأن خصم النبي يعجز عن الاتيان بمثلها . قال ابن حجر : « وسميت المعجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها ، والهاء فيها للمبالغة »^(١) .

وذكر ابن تيمية رحمة الله عليه أن الله تعالى سماها : آية وبيّنة وبرهاناً . فقال : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾^(٢) وقال لموسى : ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾^(٣) عن معجزتي اليد والعصا . وسماها آية في مواطن كثيرة من القرآن . (قال ابن تيمية رَوَّحَ اللهُ رُوحَهُ فِي كِتَابِهِ « الْجَوَابُ الصَّحِيحُ » : الآيات والبراهين الدالة على نبوة نبينا محمد ﷺ كثيرة متنوعة . وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسمىها النُّظَارَ معجزات ، وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك . وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب ولا في السنة ، وإنما فيه لفظ الآية والبيّنة والبرهان)^(٤) .

فلم يفرق ابن تيمية بين المعجزات وبين دلائل النبوة عامة . ولكننا

(١) لوائح الأنوار البهية : ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٨ والأربعين في أصول الدين ص ٣٨٨ وانظر فتح الباري ج ٦ ص ٣٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) سورة القصص : ٣٢ .

(٤) لوائح الأنوار البهية - للسفاريني : ٢ : ٢٧٨ وانظر النبوات : ص ٢٨ و ١٥١ - ١٥٣ و ١٩٣ و ٢٠٧ .

سندرج على تسميتها بالمعجزة نظراً لدلالة اللفظ اللغوية ولاشتهاره اصطلاحاً قديماً وحديثاً . وبذلك نميز المعجزة عن دلائل النبوة الأخرى التي لا تحدي فيها ولا اعجاز . وقد أوردنا من تلك الدلائل قدراً مباركاً في الكتاب الأول « نبوة محمد ﷺ في القرآن » وخير تمييز بين دلائل النبوة ومعجزاتها ما ذكره ابن حجر في شرح (باب علامات النبوة) من صحيح البخاري ، إذ قال : (العلامات جمع علامة ، وعبر بها المصنف لكون ما يورده من ذلك أعم من المعجزة والكرامة . والفرق بينها أن المعجزة أخص ، لأنه يشترط فيها أن يتحدى النبي من يكذبه . . . ويشترط أن يكون المتحدى به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة . وقد وقع النوعان للنبي ﷺ في عدة مواطن)^(١) .

شروط المعجزة :

يشير تعريف المعجزة السابقان إلى شروطها وهي سبع :

الأول : أن يحصل ذلك الأمر بإنجاز الله تعالى ، فلا يقدر الخلق على الإتيان به بالاسلوب الذي جرى على يد الرسول . وإنما عبر الرازي عن المعجزة أنها « أمر » ليشمل القول كالقرآن الكريم ، والفعل كأنفجار الماء من بين أصابع النبي ﷺ ، ويشمل الترك « عدم الفعل » كعدم احراق النار سيدنا إبراهيم عليه السلام .

الثاني : أن يخرق ذلك الأمر العادة المألوفة في الكون فيحصل ذلك من غير ارتباط المسببات بأسبابها المناسبة .

الثالث : أن تتعذر معارضته بمثله ، فإن ذلك حقيقة الإعجاز .

الرابع : أن يظهر على يد من يدعي النبوة .

(١) فتح الباري - ابن حجر : ٦ : ٣٧٥ . وراجع ص ٢٣٥ من كتابي « نبوة محمد ﷺ في القرآن » .

الخامس : أن يأتي ذلك الأمر موافقاً للدعوى ، فلو قال : معجزتي أن أحيي ميتاً فحصل على يده خارق آخر لم يدل على صدقه .

السادس : أن لا يكون الأمر الخارق مكذباً له . فلو قال : معجزتي أن ينطقَ هذا الضب ، فنطق فقال : إنه كاذب . لم يدل ذلك على صدقه بل انكشف كذبه وافتضح أمره .

والسابع : أن لا يجيء ذلك الأمر متقدماً على الدعوى ، بل مقارناً لها ، لأن المعجز تصديق من الله لرسوله ، فلا يعقل مجيء التصديق قبل دعوى النبوة^(١) .

أهم خصائص المعجزة في القرآن

(١) المعجزة من الله تعالى :

ليس للرسول إلاّ الدعاء وليس بيده سبب حقيقي لإيجاد المعجز . إنما السبب الحقيقي في المعجز أن الله الذي خلق نواميس الوجود هو الذي يخرقها ليدلّ الناس على الحق الذي أنزله إليهم . فالرسول عاجز عن تقديم خارق إلاّ بأمر الله تعالى وقدرته ومشئته . قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾^(٢) .

(١) انظر المواقف في علم الكلام - عبد الرحمن الأيجي ص ٣٣٩ - ٣٤٠ مطبعة العلوم بمصر ، وشرح المواقف - علي بن محمد الجرجاني ج ٨ ص ٢٢٣ وما بعدها - مطبعة السعادة بمصر - ومذكرات التوحيد - للسنة الرابعة بكلية أصول الدين للشيخ محمود أبو ديقة . مطبعة العلوم ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ . ولوائح الأنوار البهية ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٢) آل عمران : ٤٩ . وانظر المائدة : ١١٠ .

فالمعجزة إنما تتم بأمر الله وقدرته ، فقد جعلها الله علامة دالة على صدق رسوله . فليس للرسول قدرة على إيجادها ، لذلك قيّد الإحياء بقوله : (بِإِذْنِ اللَّهِ) فإنه من الله تعالى وحده وليس لعيسى خصوصية تُؤثر في الطين فتحييه . إنما حصل الأحياء من الله تعالى . وكذلك جميع معجزات الرسل فالمؤثر الفعال في إيجادها وتكوينها هو الله تعالى : ﴿ وما كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ﴿ قل إنما الآياتُ عند الله ﴾ (١) .

دعا الله نبينا محمداً ﷺ إلى الصبر على تكذيب المشركين وإيذائهم ، وحضه عليه تأسياً بالمرسلين قبله ، إذ تذرعو بالصبر على صنوف الأذى في تبليغ رسالات الله حتى أتاهم نصر الله (٢) . ثم بين تعالى أن ليس في وسع خاتم المرسلين وأكرمهم على ربه أن يأتي بمعجزة من لدن نفسه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

وجه الله الخطاب إلى نبيه محمد ﷺ : إن كانت المكابدة في دعوتهم قد عظمت عليك ، وشق عليك كفرهم ، فإن سنة الله جارية فيهم وإن الله لم يمنحك من المعجزات ما تُسائر به شططهم في طلب المعجزات . فإن أردت غير الصبر عليهم ، فاتخذ - إن استطعت - سرباً في أعماق الأرض أو مصعداً إلى السماء لتأتيهم بمعجزة !! وما دمت غير قادر على الإتيان بها فاصبر على شدائدهم وتكذيبهم وإفقالهم عقولهم . والله قادر على هدايتهم ، لكن حكمته تعالى تأبى ذلك لعلمه بسوء

(١) سورة الرعد : ٣٨ وسورة غافر : ٧٨ وانظر روح المعاني ج ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ وانظر سورة العنكبوت : ٥٠ والانعام : ١٠٩ .
(٢) انظر سورة الأنعام : ٣٣ - ٣٤ .
(٣) سورة الانعام : ٣٥ .

اختيارهم وفساد استعدادهم . فلا تكن ممن جهلوا دقائق شؤون حكمة الله تعالى (١) .

قال ابن تيمية رحمه الله : « لكن آيات الأنبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد، كما قال : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ والملائكة إنما هي سبب من الأسباب كما في خلق المسيح من غير أب . فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها « مجرد بذل السبب » وهذا لا يوجب الخلق ، بل هو بمنزلة الإنزال « للمني » في حق غير المسيح . وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين . وأما حصول الحياة فيه فبإذن الله فإن الله يحيي ويميت . وهذا من خصائصه تعالى ، ولهذا قال إبراهيم الخليل « عليه السلام » : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ وفي القرآن في غير موضع ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ - وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ - وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا - وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (٢) .

ومن هنا تدرك أن الملائكة لا تخلق المعجزات ، فهي مخلوقات تأتمر بأمر الله تعالى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ (٣) . إنما تبدل السبب إذا أذن الله تعالى لها ، والله سبحانه هو الخلاق العليم ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (٤) فأيات الأنبياء فوق مقدور الذين أرسل إليهم الأنبياء ، وهم الإنس والجن ، إذ يعجزون عن الإتيان بمثل آيات الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على

(١) للتوسع في تفسير الآية انظر روح المعاني : ٧ : ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) النبوات لابن تيمية ص ٢٧٨ وانظر فيه ص ٢٨٢ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

(٤) سورة يس : ٨٢ - ٨٣ .

أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيْرًا ﴿١﴾ .

٢) استحالة معارضة المعجزة إلى الأبد :

اشترط المتكلمون في الفعل المعجز الذي يقدمه الرسول عدم
إمكان ظهور نظير له على يد إنسان آخر ، لأن هذا إن حصل فقد دلَّ على
أنَّ الفعل الجاري على يد الرسول فعلٌ عاديٌّ لا يُعجز الناس . وبالتالي لا
دلالة فيه على صدق دعوى صاحبه ، فلا يُقطع حينئذ بأنه آية خصه الله
تعالى به . لذلك قضت الحكمة الإلهية بأن تجيء آية الرسول على نحو
يستحيل على الإنس والجن أن يعارضوها بمثلها . فقد اتهم فرعون موسى
بأنه ساحر وطلب إلى السحرة أن يعارضوا ما جاء به عليه الصلاة والسلام .
فإنهم إذا عارضوه لم تبق له حجة خاصة تثبت نبوته . فلما استرهبوا الناس
وسحروا أعينهم وألقوا عصيهم وجبالهم فحِيلَ للناس من سحرهم أنها
تسعى ، ألقى موسى عصاه فانقلبت حيةً رهيبَةً لقت سحرهم فأصبح أثراً
بعد عين . فعلم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا بالله رباً
وبموسى رسولاً إيماناً جازماً ، فخرُّوا لله ساجدين ، وقالوا : ﴿ آما برَبِّ
العالمين رَبِّ موسى وهارون ﴾ (٢) فاضطربت نيران الغضب في فرعون
وغلت مراجل حقه ﴿ قال : آمتنم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي
علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلبنكم في
جذوع النخلٍ ولتعلمن آينا أشدُّ عذاباً وأبقى . قالوا : لن نُؤثرَكَ على ما
جاءنا من البينات والذي فطرنا ؛ فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه
الحياة الدنيا . إنا آما برَبنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ،

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة الأعراف : ١٢١ - ١٢٢ . وانظر فيها ١٠٩ - ١٢٩ .

والله خير وأبقى ﴿١﴾ .

لقد أدركوا - لشدة تبحرهم في السحر - أن الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام جنس آخر مغاير جنس عملهم تماماً فلا يقدر عليه إلا خالق الأكوان ، وأنه مختص بموسى رسول الله ؛ فدل على صدق دعواه . وقوم فرعون بين معاند مكابر لم يدعن ؛ وبين جاهل استخفه فرعون فاستذله ﴿ فاستخف قومه فأتاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (٢) .

٣) مخالفة المعجزة قوانين الطبيعة :

لا أشك أن مراد علماء الكلام بهذا التعبير « خارق للعادة » أن تجيء المعجزة مخالفة لسنن الكون وقوانين الطبيعة وخواص المادة . فالمعجزة بالتالي تأبى الخضوع لقانون الأسباب والمسببات المعهود للناس . لذلك ضربوا مثلاً فقالوا : إن ما كان معتاداً كطلوع الشمس في كل يوم وبدؤ الأزهار في كل ربيع فإنه لا يدل على صدق المدعي . بل يستوي في الاستدلال به الكاذب والصادق (٣) . فجعل الأمر الجاري على يد النبي خارقاً للعادة شرط لا بد منه لحمل الناس على التصديق .

إن المعجزة ليست من اكتساب الرسل ، وإنما يجريها الله على أيديهم بغير أسباب يعرفها البشر . فيجب فهم عبارة « خرق العادة » بمعنى مخالفة سنن الطبيعة وخواص المادة وقوانينها . وهذا عندي تحقيق المراد من تعبيرهم . فليس ما يصنعه السحرة أو يأتي به علماء المادة خارقاً للعادة ، لأن له أسباباً يمكن تعلمها ، فمن أخذ بها وأحسن الانتفاع منها حقق أعاجيب تلفت النظر . وقد استقر ابن تيمية على هذا المعنى فقال :

(١) سورة طه : ٧١ - ٧٣ .

(٢) سورة الزخرف : ٥٤ وانظر الآيات التي تحكي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الأعراف : ١٠٣ - ١٣٧ وسورة طه : ٤١ - ٧٦ .

(٣) شرح المواقف ج ٨ ص ٢٢٣ .

(فصل في معنى خرق العادة لعادة غير الأنبياء مطلقاً ، بحيث تختص بالأنبياء ، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم . أما أخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لإخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة . . . مما هو بإعانة الشياطين ، فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس . ليس هذا من خرق العادة ، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس . . .)^(١) .

ثم قال : (كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات ، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه ، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل . فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد بل أهل الأقليم . لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة . قد فعل مثلها أناس آخرون قبلهم أو في مكان آخر . فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً . بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون إنهم أنبياء ولا يخبر عنهم أحد بأنهم أنبياء . . .)^(١) .

فأنت تراه يبين أن منتجات النبوغ العلمي والسحر والكهانة مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة . ومعنى خرق المعجزة للعادة أنها لا توجد مرة واحدة ولا أكثر إلا للنبوة . فالعادة تثبت هنا بمرة واحدة . فهو يصف أوصافاً ويحد حدوداً لمعنى (خرق العادة) يوصله إلى ما ذكرنا وإن لم يصرح بلفظه^(٢) ، وهو « خرق سنن الطبيعة وقوانين المادة من غير اعتماد

(١) النبوات ص ٢٠٦ - ٢٠٧ . لقد تاب ابن تيمية في معنى (خرق العادة) إلى هذا التفسير ، لكن بعد اضطرابه فيه ، واعتباره فعل الساحر أيضاً غير معتاد « خارقاً للعادة » ، وهذا خطأ . انظر النبوات ص ١١ و ١٢ و ١٤ .

(٢) النبوات : ص ١٩٨ وقال أيضاً عن المعجزات : (لا بد أن تكون مما لا يقدر عليها الانس والجن) النبوات : ص ٢٩٨ .

على الأسباب الممكنة للإنس والجن» . ويستدعي هذا كله اعتماد شرط أساسي في المعجزة ، هو أن المعجزة من فضل الله تعالى ، وهو الشرط المذكور أولاً .

ولعلك تلاحظ أن تعريف المعجزة الذي قدمته آنفاً ، قد امتاز بإعراجه عن هذه المعاني والخصائص بوضوح لا يقبل اللبس والاحتمال .

كرامات الأولياء أثبتها القرآن الكريم

يجري على يد بعض الصالحين والعارفين بالله تعالى أعمالاً خارجة عن سنن العادات المألوفة ، من غير أن يبذلوا في تحصيلها أسباباً مادية ملائمة . وإنما هي منح إلهية يهبها الله لمن يشاء ويمنعها عن من يشاء . مثالها : تكثير الطعام أو الشراب القليل ، وعدم الاحتراق بالنار ، وضرب الجسم بآلة جارحة في موطن خطر دون أن يُعقبه ضرر إلى غير ذلك مما هو مشاهد ومعروف حتى عصرنا هذا .

أقول : « الكرامة : أمر خارق للعادة يجريه الله على يد أحد أوليائه ، يثبت صحة دينه وصدق رسوله الذي يتبعه » .

وقد ذكر ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح أن أهل الكلام يسمون ذلك كرامة ، وأنه لا يُسمى عندهم معجزة إلا ما جرى على يد أحد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أما السلف كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله فكانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات إذا لم يكن في سياق الكلام ما يخصها بالأنبياء . وربما سمو الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي^(١) .

(١) انظر لوائح الأنوار البهية : ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ . وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٥ - ٤٩٦ ، ط . دمشق .

إثبات الكرامة :

لقد درج العلماء سلفاً وخلفاً على تبيانها وذكر أدلتها ووقائعها الكثيرة الوفيرة المتجاوزة للحد . وشدَّ عن ذلك فأنكرها وأنكر السحر معظم المعتزلة وأبو محمد بن حزم وحكي إنكارها أيضاً عن أبي إسحاق الاسفراييني وأبي محمد بن يزيد ، وكان في الحكاية عنهما غلطاً . لكن السلف الصالح كالإمام أحمد وغيره وأكثر المتكلمين وأبي الحسين البصري من المعتزلة يثبتونها^(١) .

قال الجرجاني في إمكانها عقلاً : (أما جوازها فظاهر على أصولنا ، وهي أن وجود الممكنات مستند إلى قدرته « تعالى » الشاملة لجميعها ، فلا يتمتع شيء منها على قدرته . ولا شك أن الكرامة أمر ممكن ، إذ ليس يلزم من وقوعها محال لذاته)^(٢) .

فالكرامة ممكنة عقلاً ثابتة نقلاً بنص القرآن المبين ، كما وردت وقائعها في آثار صحيحة تعطي في مجموعها تواتراً معنوياً .

لقد استدل المثبتون بوقوعها للسيدة مريم العذراء في أمور منها : أنها وُجد عندها الرزق بلا سبب . فكانت تتنعم بفواكه الصيف في الشتاء وفواكه الشتاء في الصيف ، قال تعالى : ﴿ كلما دخلَ عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريمُ أنى لكِ هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إنَّ الله يرزقُ من يشاء بغير حساب ﴾^(٣) . وأن مريم قد حملت بدون رجل ، وتساقط عليها الرطب من النخلة اليابسة . لكن النافين جعلوا

(١) انظر الأربعين في أصول الدين للرازي : ص ٣٨٤ - والنبوت : ص ٢ و ٢٨ و شرح
المواقف للجرجاني : ج ٨ ص ٢٨٨ . وانظر لوائح الأنوار البهية : ج ٢ ص ٢٧٨ -
٢٧٩ .

(٢) شرح المواقف للجرجاني : ٨ : ٢٨٨ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٧ .

ذلك معجزة لذكريا أو إرهاساً لعيسى (١) .

أقول : إنك ترى أن ذكريا نفسه متعجب من وجود الرزق عند مريم ، مما يدل على أنه ليس ذا صلة بالأمر . ثم انه انتفع من مشاهدته الرزق عندها . إذ ذكر عظيم كرم الله وحسن صنيعه بأحبابه ، فدعا ربه أن يرزق امرأته العاقر ولداً . يدل ذلك على هذا أن الله قد أعقب الآية السالفة بقوله تعالى : ﴿ هنالكَ دعا ذكريا رَبَّهُ قال رَبِّ هبْ لي من لَدُنْكَ ذرية طيبةً إنك سميعُ الدعاء ﴾ (٢) ولا أرى أن الرزق إرهاس بعيسى ، لأن سياق الآيات يشير إلى أنه سابق على الحمل به فضلاً عن ولادته بوقت غير قليل . ويبدو أن القرآن ساق قصة الرزق عند مريم ليبين أهليتها للمكانة التي أحلها الله فيها ، ويدل على براءتها وصدقها . فالآية في صدد تعداد فضل الله على مريم لقوله قبلها : ﴿ فتقبَّلها رَبُّها بقبولٍ حَسَنٍ وأنبئها نبأناً حسناً وكفلها ذكريا كلما . . ﴾ .

واحتج المشبوتون أيضاً بقصة أصحاب الكهف فإن الله سبحانه وتعالى أبقاهم ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ نياماً أحياءً بلا آفة ، وظلوا بقوتهم العادية دون أن يتناولوا طعاماً ولا شرباً ، ولم يكونوا أنبياء إجماعاً ، فلم يكن أمرهم معجزة وتعين أنه كرامة (٣) .

ودلت السنة المطهرة على الكرامة بأحاديث صحيحة ، أهمها ما ورد في الصحيحين وغيرهما :

١- تكليم الرضيع لجريج الراهب ، فشهد على مسامع القوم ببراءته من الفاحشة ، وحديث الثلاثة الذين تكلموا في المهدي معروف (٤) .

(١) الإرهاس : الأمر الخارق للعادة يظهر قبل بعثة النبي ؛ توطئة وإعلاماً .

(٢) سورة آل عمران : ٣٨ .

(٣) شرح المواقف ج ٨ ص ٢٨٩ والأربعين في أصول الدين ص ٣٨٦ وتفسير الرازي ج ٢١ ص ٨٤ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب واذكر في الكتاب مريم : ١٤٠/٤ وصحيح مسلم - كتاب البر - باب تقديم بر الوالدين : ١٩٧٦/٤ الحديث ٢٥٥٠ .

- ٢ - انفراج الصخرة عن الثلاثة ؛ الذين حُبسوا في الغار ؛ بفضل دعائهم متوسلين إلى الله بإخلاصهم في أعمال هامة قاموا بها من قبل (١) .
- ٣ - تكثير طعام أبي بكر رضي الله عنه أمام ضيوفه حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان عليه قبله .
- ٤ - قول رسول الله ﷺ عن عمر : إنه من المحدثين (٢) .

٥ - وجود عنقود من العنب في غير أوانه لخبيب الصحابي الأسير في يد المشركين لما أرادوا قتله . وقد رواه البخاري (٣) والبيهقي وأبو نعيم وابن أبي شيبة . وقد حصل للصحابة كرامات كثيرة . وقد ذكر الفخر الرازي وغيره طرفاً منها (٤) .

٦ - قوله ﷺ : « رَبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي وصححه . قال بعض العلماء : لو لم يكن في الكرامة إلا هذا الحديث لكفى في الدلالة عليها (٤) .

وقائع الكرامة ودلالاتها :

أنكر ابن تيمية رحمة الله عليه على الذين يجحدون كرامات الأولياء تكذيبهم بها وهي متواترة ، ثم قال : (والمنازع لهم يقول : هي « الكرامات » موجودة مشهودة لمن شهدها ، متواترة عند كثير من الناس

-
- (١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب إجابة دعاء من بر والديه : ٦٩/٧ وصحيح مسلم - كتاب الذكر - باب قصة أصحاب الغار : ٢٠٩٩/٤ الحديث ٢٧٤٣ .
- (٢) صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي - باب مناقب عمر بن الخطاب : ٢٠٠/٤ . وصحيح مسلم - فضائل الصحابة - باب من فضائل عمر : ١٨٦٤/٤ الحديث ٢٣٩٨ .
- (٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب ١٠ - ج ٥ / ١١ - ١٢ .
- (٤) الفتاوى الحديثية ! أحمد بن حجر الهيتمي ص ٢١٩ - ٢٢٠ - المطبعة الميمنية - بالقاهرة ١٣٠٧ هـ وانظر تفسير الرازي ج ٢١ ص ٨٤ - ٩٧ فيه إسهاب جميل حول الكرامة . والحديث أخرجه مسلم - كتاب البر - باب فضل الضعفاء : ٢٠٢٤/٤ الحديث ٢٦٢٢ .

أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء . وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء ، فكيف يكذبون بما شهدوه ويصدقون بما غاب عنهم ؟ ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره . . ؟ (١) .

أما وقائع الكرامة فكثيرة ، منها ما ظهر على أيدي الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : فهذا أبو مسلم الخولاني من التابعين لما قال له الأسود العنسي : أتشهد أني رسول الله ؟ فقال له : ما أسمع . وقال الأسود : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . فألقاه في النار فصارت عليه برداً وسلاماً . وحمد الخليفة الصديق الله تعالى على ما جرى ، إذ جعل في أمة محمد ﷺ من ينال تكربة سيدنا إبراهيم عليه السلام . وقد شرب خالد بن الوليد السم فلم يصبه أذى . وقد نادى عمر رضي الله عنه وهو على منبر الجمعة في المدينة هاتفاً باسم قائد جيشه : يا سارية الجبل الجبل . فلما رجع الجند تحدثوا أنهم سمعوا صوت عمر يناديهم يا سارية الجبل الجبل . فصعدوا الجبل فكتب الله لهم النصر (٢) .

ووقائع الكرامة معروفة قديماً وحديثاً عن كثير من الصالحين بما لا يدع مجالاً للتوهم فيها (٣) .

إن آيات الأولياء دليل قاهر على نبوة النبي الذي اتبعوه . فهم دعاة إلى دينه ، ولهذا السبب وحده يختارهم الله تعالى ليُجري على أيديهم نموذجاً مصغراً من المعجزات . فيدل ذلك قطعاً على صدق نبينهم وصحة دينهم الذي أنزله الله عليه .

(١) النبوات : ص ١٠٧ .

(٢) رواها البيهقي في الدلائل . قال ابن حجر : إسنادهما حسن . ورواها ابن مردويه وأبو نعيم وقد صححها ابن تيمية . وفيها كرامة لعمر وسارية . (انظر النبوات ص ٢ والفتاوي الحديثية ص ٢١٩ - ٢٢٠ وانظر ترجمة سارية بن زنيم في الإصابة لابن حجر فقد ذكر عدة أسانيد للقصة وحسن بعضها) .

(٣) النبوات ص ٢٠٤ - ٩٠ - ١٠٠ وص ٤ ومواطن أخرى .

فكراماتُ الأولياء من آيات الأنبياء . وقد خص الله بها أناساً ممن شهدوا بنبوتهم ، فتجيء كراماتهم لازمة الدلالة على صدق شهادتهم لأنبيائهم^(١) .

فكرامات الصالحين من أمة محمد ﷺ دلائل قاطعة على صحة الإسلام وإلهية مصدره ، ودلائل قاطعة على صدق محمد بأنه رسول الله ومصطفاه ﷺ^(٢) .

منزلة الكرامة من المعجزة :

لا شك أن الله فضل المرسلين على الناس أجمعين . فهم أرفع درجة من أصلح أتباعهم . فالمؤمنون يشاركون رسلهم في بعض عباداتهم وطاقاتهم ، ولكنهم لا يبلغون درجاتهم في الفضيلة والثواب . وكذلك الأمر بالنسبة لما يجري على أيديهم من كرامات ، فإنها دون معجزات أنبيائهم . وقد اختلف العلماء في اعتبار الكرامة ، فعدها معظم المتكلمين كالرازي وغيره قسماً من الخوارق مستقلاً عن المعجزة^(٣) . وقد حقق كثير من فحول العلماء كالإمام أحمد وغيره^(٤) أن الكرامات من جملة معجزات الأنبياء . وقال ابن تيمية رحمه الله : (وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم ، وهي من آيات نبوته . وهذا هو الصواب)^(٥) .

وما استصوبه ابن تيمية هو الصواب الذي نقول به ، لأن هؤلاء الصلحاء ما كانت لتجري لهم تلك الخوارق لولا اعتصامهم بالاتباع

(١) النبوات ص ١٤٢ .

(٢) ص ٥ و ٩ و ٢٠٤ .

(٣) الأربعين في أصول الدين ص ٣٨٧ .

(٤) لوائح الأنوار البهية : ٢ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٥) النبوات ص ١٢١ ومواضع أخرى كثيرة .

الكامل لنبيهم عليه الصلاة والسلام وقيامهم بدعوته حق القيام .

إن الله منح الأنبياء آيات كبرى وصغرى شاهدة على صدقهم . ومع أن الكرامات من آيات الأنبياء غير أنها نماذج صغيرة من معجزاتهم . قال ابن تيمية : (وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء ، فإنها إنما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة . فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة . وأيضاً فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك . فانشقاق القمر والإتيان بالقرآن وانقلاب العصا حية وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء . وكذلك خلق الطير من الطين . ولكن آياتهم « الأنبياء » صغار وكبار ، كما قال تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة . وقال عن نبيه محمد ﷺ : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ فالآيات الكبرى مختصة بهم « بالأنبياء » وأما الآيات الصغرى فقد تكون للمصالحين مثل تكثير الطعام . فهذا قد وُجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير . فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وُجد لهم ، لكن لا يماثلون في قدره . فهم « الأنبياء » مختصون إما بجنس الآيات ، فلا يكون لمثلهم^(١) كالإتيان بالقرآن وانشقاق القمر وقلب العصا حية وانفلاق البحر وأن يخلق من الطين كهيئة الطير ، وإما بقدرها وكيفيةها كنار الخليل ، فإن أبا مسلم الخولاني وغيره وقد صارت النار عليهم برداً وسلاماً . لكن لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها ، فهو مشارك للخليل في جنس الآية ، كما هو مشارك في جنس الإيمان : محبة الله وتوحيده . ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله^(٢) .

ويستفاد من كلام العلماء أن الكرامة لا تكون مقرونة بدعوى

(١) والظاهر أنه يريد : « فلا يكون لغيرهم » .

(٢) النبوات ص ١٩٨ وانظر أيضاً ص ١١٥ - ١١٦ وص ٢٠٤ - ٢٠٥ وص ٢٨٢ .

النبوة ، ولا يشترط فيها التحدي أو السلامة عن المعارضة (١) .

لقد احتج المعتزلة وغيرهم كابن حزم في إنكار الكرامة بقولهم :
« إن آيات الأنبياء مختصة بهم ، وما خصهم الله به لا يكون لغيرهم » .

وهذا القول في حد ذاته صحيح ، لكنه لا يتناول نفي الكرامة بالمفهوم السليم الذي أوضحناه . فإن كرامات الأولياء هي أيضاً آيات للأنبياء وإن جرت على أيدي غيرهم . فإنها إنما ظهرت على أيدي بعض الصالحاء المؤمنين بمناسبة دعوتهم إلى الإيمان بالرسول واتباع رسالاتهم ، فهي آيات لرسولهم أظهرها الله على أيدي بعض الصالحاء والدعاة تثبيتاً لدعوة الحق .

إن منزلة الكرامة من المعجزة كما بيّنا . وإن هناك معجزات خاصة بالأنبياء مطلقاً كالعصا واليد وانفلاق البحر لموسى ؛ وكخروج الناقة من الأرض لسيدنا صالح عليه الصلاة والسلام ؛ وكانشقاق القمر ونزول القرآن وتفجير الماء من الأصابع لرسولنا محمد ﷺ . بل لقد اختص كل واحد من هؤلاء الرسل عليهم صلوات الله بالمعجزات التي ذكرناها . فلم توجد لغيره من الأنبياء ولا لغيرهم (٢) .

لا عصمة للأولياء :

ولكن هل كل ما يصدر عن الولي - صاحب الكرامة - هو صواب أو موافق للشرع ؟ إن الرسول معصوم ولكن الولي غير معصوم عن ارتكاب الخطأ والوقوع في الذنب أحياناً . وأيضاً هل تجب طاعة الولي دائماً وفي كل حال ؟ ما دام يُحتمل منه الخطأ والذنب فإن طاعته فيما لا ينص عليه شرع الله ليست واجبة . قال الرازي : (إن ظهور الكرامات عليه لا يوجب

(١) النبوات ص ٣ - ٤ ومواطن أخرى ؛ والأربعين في أصول الدين ٣٨٨ .

(٢) النبوات ص ١٠٧ و ٢٠٤ - ٢٠٧ .

كونه صادقاً « يعني مصيباً » في جميع الأمور ، فلا جرم يجوز مطالبته بالبيّنة (١) .

ومن هنا ضلّ النصارى وغيرهم من الأمم . فإنهم لما رأوا كرامات الحواريين وغيرهم ، توهموا أن ذلك يستلزم عصمة لهم كعصمة الأنبياء ، فأوجبوا على أنفسهم طاعتهم ومتابعتهم في كل صغيرة وكبيرة مما يقولون ويأتون به . وكان عليهم أن يدركوا أن الكرامة ليست دليلاً لصاحبها ذاته ، إنما هي دليل على صدق نبيه وصحة دينه ، فلا يلزم أن يكون التابع - صاحب الكرامة - معصوماً عن كل ذنب وخطأ . وإنما يُستدل على صلاحه بتأسيه بنبيه عقيدةً وخلقاً وعملاً ، وليس بالخوارق فحسب . وإن من فضل رسولنا محمد ﷺ على أمته أن وفقه الله إلى تبيان المنهج السليم ، فلم يكلهم إلى أنفسهم ولا إلى الطاعة العمياء لكبرائهم وصلحائهم . إنما وثق عروتهم بأصل الإسلام . وقد ألزمهم الله في كتابه العزيز بطاعة الله واطاعة رسوله مراراً وتكراراً . وقال رسول الله ﷺ : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه » (٢) .

فالمسلمون يمتازون عن كافة أهل الملل والنحل بأنهم أتباع للمبادئ الربانية التي تضمنها القرآن المجيد والسنة المطهرة ، فلا يتأثرون بالهفوات الشخصية لعلمائهم أو كبرائهم . فإذا ظهر ممن يُظن فيه الصلاح والتقى ما يخالفهما ؛ نبذ المسلمون فعله وضربوا به عرض الحائط ، وتمسكوا بكتاب الله وهدى نبيه وعضوا عليهما بالنواجذ .

الفرق بين المعجزة والمخترعات العلمية

لقد كشف العلم الحديث في تقدمه الدائم عن كثير من المواد وعن

(١) الأربعين في أصول الدين ص ٣٨٨ .

(٢) رواه الحاكم وأصله في صحيح مسلم - كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ .

خصائصها ، كما عرّف الإنسان بكثير من سنن الطبيعة ونواميسها ، فمكّنه بذلك من الانتفاع من المواد الطبيعية بوجوه لم يعهدها الإنسان القديم ، كما ساعده على استغلال ظروف الطبيعة وأجوائها للحصول على فوائد جمة توفر له ألواناً من المتع وضروباً من الرفاه . وكل فن من فنون العلم الحديث له أخصائيون اضطلعوا بدراسته على وجه الدقة والموضوعية ، فأماطوا اللثام عن مبادئه وقوانينه ودساتير الأجناس المتصلة به . وقاموا إلى جانب دراستهم النظرية بالتجارب التطبيقية في مجالات كثيرة فأثمرت جهودهم ثماراً تنعمت بها الإنسانية في كافة مرافق الحياة . حقاً إنه نتاج بارع رائع يلذ للمرء مشاهدة كل مستجدٍ منه والانتفاع به . وإن هؤلاء العلماء يشكلون نسبة ضئيلة من سكان البسيطة . لكنّ كافة الناس قد علموا أن أي امرئ موهوب يقدر على تنمية مواهبه وميوله فيما تنزع إليه من علوم وفنون فيبلغ شوامخ قمم العلم . وقد يبرز أقرانه ويحوز قصب السبق على أساتذته بالذات ، فيقدم من المنتجات والمخترعات ما لم يُسبق إليه ، مما يدهش ويعجب ويستدر الثناء كل الثناء . لكن رقيه تلك المنزلة ليس متوقفاً على صدقه وصلاحه وحسن خلقه . فالبرّ والفاجر في اعتلاء كرسي العلم والصناعة سواء .

وليس يخاف عليك وعلى عامة الناس العقلاء أن تلك المخترعات ليست خارقة للعادة ، وأنها أمور كسبية لها قوانينها ومبادئها ، من تعلمها وتفرغ لها حقق نتائجها . أما المعجزة فإنها خارقة للعادة ليست تعتمد على قوانين الطبيعة ولا على خواص المادة . فهي منحة من الله لرسوله يُثبّت بها قدمه ويقيم له الحجة على صدقه ، لينشر رسالته التي أرسله بها . وكذلك الكرامة مخالفة لسنن الطبيعة وخصائص موادها ، فلا تظهر إلا على أيدي صلحاء المؤمنين بالله ؛ تكرمة لهم وإثباتاً لصحة طريقهم وقبول الله أفواج السالكين فيه .

السحر

تميُّزُ الأنبياء عن الأدعياء بأدلة إلهية :

إن عقلاء البشر الذين يسبرون أغوار المشكلات الإنسانية يوقنون أن الله لا يسوي بين الصادق والكاذب في الدلائل ، بل يميِّز هذا من ذلك بالدلائل الكثيرة . فهو يميز بالأولى بين النبي والدَّعيِّ ، فإن مقتضى عدله وسنته التي لا تتبدل وحكمته التي تنزهه عن نقيضها ؛ أن يسوي بين المتماثلات ويفرق بين المختلفات . فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقاً ، وبين أزدل الناس وشرهم كذباً ؛ فيما يتوقف عليه صلاح البشر أو فسادهم في الأديان والأعراض والحقوق وفي دنياهم وآخرتهم ؟؟

قال ابن تيمية رحمه الله : (فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق وبين هؤلاء شرار الخلق ، لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلتها ولا في سلطان النصر والتأييد « فحسب » ، بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ويُبقي لهم سلطان الصدق ، ويفعل ذلك بمن اتبعهم . وأن يُظهر الآيات المبيِّنة لكذب أولئك ويذلهم ويخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم ، كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء . وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع)^(١) .

(١) النبوات ص ٢٤٣ وانظر ١٢٤ - ١٢٥ فهناك ورد قوله : (والتحقق أن إظهار المعجزات الدالة على صدق الأنبياء على يد الكاذب لا يجوز . لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه ؛ كما قاله الأشعري ، وقيل لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله . وهذا أصح فإنه قادر على ذلك ، لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق) .

حقيقة السحر^(١) :

لا بد أن يتضح في الذهن أولاً ؛ أن ما يأتي به الساحر والكاهن وأصحاب الحيل والشعبذة وجميع الذين لا يقتدون بالأنبياء ليس خارجاً عن قدرة الإنس والجن . . وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس وإنما يختلفون في الأسلوب ، كلٌ حسب طبيعته ووسائله . فالجن قد تطير في الهواء أو تطفو على الماء أو تحمل الأجسام الثقيلة . كما قال العفريت لسليمان في إحضار عرش بلقيس : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . .) وقد تضرّ الجن إنساناً في جسده وحركته أو في إحساسه وإدراكه . لكن الجن مخلوقات ضعيفة لا تضاهي أفعالهم المعجزات النبوية . بل الجن والإنس في صعيد واحد مدعوون للإيمان بالرسول ﴿يا معشرَ الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾^(٢) فلا بد أن تتفوق المعجزات على مقدورهم تفوقاً عظيماً ، بحيث يعجزون عن مثلها عجزاً واضحاً ، فيظهر لهم الدليل وتقوم عليهم الحجة^(٣) .

إن كلاً من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين في استطلاع بعض الأخبار وإنزال بعض الضرر بالناس ، قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما كَفَرَ سليمانَ ولكنَّ الشياطينَ كفروا يُعَلِّمونَ الناسَ السحرَ ﴾^(٤) .

قال الراغب في المفردات : الكاهن : هو الذي يُخبر بالأخبار

(١) أنكر المعتزلة وابن حزم ظهور الخوارق دون مباشرة سبب مادي على أيدي غير الأنبياء من ولي أو كاهن أو ساحر . (النبوات ص ٢٨ وص ١٠٢ وغيرهما) .

(٢) سورة الانعام : ١٣٠ .

(٣) النبوات ص ٧ و ١١٤ - ١١٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٠٢ . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٧ - ٥٠٩ .

الماضية الخفية بضرب من الظن . والعراف : الذي يُخبر بالأخبار المستقبلية على نحو ذلك . ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطيء ويصيب قال عليه الصلاة والسلام : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على أبي القاسم »^(١) .

فالسحر هو استعانة الأدميين بالشياطين « الجن الكافرين » في إظهار العجائب أو إيذاء الناس . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ

(١) انظر المفردات في غريب القرآن - للراغب الأصفهاني - مادة « كهن » . وقد روى الحديث الإمام أحمد في المسند ج ٢ ص ٤٢٩ عن أبي هريرة بلفظ : « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » . ورواه الحاكم في المستدرک - كتاب الايمان ج ١ ص ٨ ثم قال : هذا حديث صحيح على شرطهما جميعاً من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه .

لكنه في رواية حكيم الأثرم عن أبي تيممة عن أبي هريرة بلفظ : « من أتى حائضاً ، أو امرأة في دبرها أو كاهناً . . . » وذلك في : مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٠٨ و ٤٧٦ و سنن أبي داود - كتاب الطب - باب في الكاهن - ج ٤ ص ١٥ حديث ٣٩٠٤ ، وجامع الترمذي - كتاب الطهارة - باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ حديث ١٣٥ ، وفي سنن ابن ماجه - كتاب الطهارة - باب النهي عن إتيان الحائض ج ١ ص ٢٠٩ حديث ٦٣٩ .

أقول : إسناد الحديث الأول عند الإمام أحمد والحاكم إسناد صحيح ، كما أفاد الحاكم في المستدرک . لكن الترمذي انتقد إسناد الحديث برواية حكيم الأثرم . ونقل عن الإمام البخاري تضعيفه هذا الإسناد ، وأن معناه عند أهل العلم على التغليظ . . . فلو كان إتيان الحائض كفراً ، لم يُؤمر فيه بالكفارة (جامع الترمذي ج ١ ص ٢٤٣) . وقد روى الإمام مسلم في صحيحه - كتاب السلام - باب تحريم الكهانة ج ٤ ص ١٧٥١ برقم ٢٢٣٠ عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

أقول : هذه الأحاديث الثلاثة على تفاوتها في دلالاتها واختلاف أسانيدها أجمعت على المنع من إتيان العراف ونحوه من أهل الكهانة . فإن أمر هذا الصنف من الناس ليس مبنياً على حق أو علم صحيح . وبالله التوفيق .

بعضنا ببعض وبلغنا أجَلنا الذي أجَلتَ لنا ، قال : النارُ مَثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ﴿١﴾ . فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض إذ انتفع كل منهم من الآخر في تنفيذ أغراضه . وقد يخبر الساحر أو الكاهن الناس بشيء فيكون حقاً . وطريقه في هذا إما الحدس والتخمين وقياس الحادثة بنظائرها الماضية ، وإما خبر تلقفه من جني شهد الحادث أو علم به ، فيتحدث الساحر أو الكاهن به مضيفاً إليه ما تسول له نفسه من أكاذيب . .

روى البخاري في صحيحه (٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت أناس النبي ﷺ عن الكهان ؟ فقال ﷺ : إنهم ليسوا بشيء . فقالوا : يا رسول الله فإنهم يُحدثون بالشيء يكون حقاً . قال : فقال النبي ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيُقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة (٣) فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة) .

فغاية الأمر أن الجني لما استرق السمعَ كان كالذي يتجسس على قوم أو يستمع إلى حديثهم وهم له كارهون ، فأخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة وأفعال السحرة إنما تتم بإعانة الشياطين . فهذا موجود في العالم ومعروف للناس ، كما يعرف الناس أعمال الشعبة التي تتخذ من خفة اليد وبعض الحيل وسائل في إظهار العجائب . فأفعال هذه الأصناف من الناس ليست خارقة للعادة بل هي مألوفة معروفة ، يختص بها أناس فيشتهرون بها ، كما كان يختص أناس بالقيافة (٤) ، وكما ينبغ أناس في

(١) سورة الأنعام : ١٢٨ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب التوحيد - باب قراءة الفاجر والمنافق ج ٨ ص ٢١٨ وانظر فيه كتاب الطب - باب الكهنة .

(٣) قرء ، وقرقرة الدجاجة : صوتها إذا قطعت (النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير) . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٣ - ٥٠٦ .

(٤) القيافة : تتبع الأثر .

الشعر والخطابة والعلم ، وكما يحذق أناس في الصناعة فيكون إنتاجهم مثار العجب والدهشة ، وكما يسرع أناس في الفلك وحساب موعده الخسوف والكسوف(١) .

يزداد السحرة والكهنة ويتفاقم شرهم في كل بقعة نقص فيها أمر النبوة . فكانوا كثيرين في أرض العرب قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ . ويكثرون الآن في بلاد أهل الأوثان - كالهند - وعند النصارى وفي بعض بلاد المسلمين حيث نقص العلم وضعف الإيمان . وقد ادعى بعضهم النبوة في التاريخ مثل مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي . ولكن سرعان ما افتضح كذبهم وخمدت فتنهم .

والمهم في الأمر هو التيقن بأن آيات الأنبياء تتجاوز كثيراً حدود قدرة الإنس والجن ، وهم الذين أرسل الله إليهم الرسل وكنفهم بالإيمان .

السحر أمر عادي له أسباب :

لقد اضطرب ابن تيمية وتأرجح بين اعتبار ما يظهر على يد السحرة والكهنة خارقاً للعادة أو غير خارق . فهو يقول :

أ (فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهّان ، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم) (٢) .

ب - (وأما أخبار الكهان . . وسحر السحرة . . مما هو بإعانة الشياطين فهذا أمر موجود في العالم كثير يعرفه الناس ، ليس هذا من خرق العادة ،

(١) انظر الأربعين في أصول الدين ص ٣١٧ - ٣١٨ والنبوات ص ٢٠٦ - ٢٠٧ وص ٢٠١ -

٢٠٢ وص ٧ - ٨ وص ١٢ و ٢٠ وص ١٠٧ .

(٢) النبوات ص ١٢ في أولها وآخرها . وانظر فيه ص ٢٠٢ .

بل هو من العجائب الغريبة) (١) .

جـ - (أما السحر والكهانة فهو من إعانة الشياطين لبني آدم . .
فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس) (٢) .

لقد اضطرب ابن تيمية في عجائب السحرة والكهنة ، أهي من
خوارق العادة أم لا ؟ فأنت تراه يعدها خارقة لعادة الناس ، ثم معتادة
للناس يعرفونها فليست من خرق العادة في شيء بل هي من العجائب ،
وأخيراً فهي خارجة عما اعتاده الناس!

ولا نسلم لابن تيمية في زعمه أن نتاج السحر خارق بالنسبة لغير
السحرة ، لأن بإمكان كل امرئ تعلمه وممارسته ، بينما لا يمكن لأحد
من الخلائق تعلم المعجزة أو ممارستها . ولا ريب أن أقواله ههنا تدل على
عدم تحديده معنى « الخارق للعادة » بشكل منضبط . فالخارق للعادة -
فيما استقرأنا - أمر يفوق طاقات البشر ويخرق قوانين الطبيعة وخواص
المادة . والسحر على خلاف ذلك ، فإنه قائم على الأسباب والمسببات ،
لكن على نحو لا يظهر للأعين .

والحق الذي نراه في أفعال السحرة أنها عجائب وغرائب
وطرائف ، لكنها لا تخرج عن مقدور الإنس أو الحيوان « كالطيران » ،
وليست خارقة لعادات البشر . قال ابن أبي شريف : (الحق أن السحر
ليس من الخوارق وإن أطبق القوم على عدّه منها ، لأنه يترتب على
أسباب ، فهو ترتيب مُسبّب على سبب جرت العادة الإلهية بترتيبه عليه .
كترتيب الإسهال على شرب السقمونيا ؛ وشفاء المريض على شرب

(١) النبوات ص ٢٠٦ .

(٢) النبوات : ص ١٢ و ٢٠٢ و ٢٠٦ و ٢٠٧ .

الأدوية الطبية ، فإن كلاً منهما غير خارق (١) .

ويجب أن يستقر في الذهن أن أعاجيب السحرة لا تفوق قدرة
الإنس أو الحيوان ، وهذا يعم ما يغير إحساس الإنسان ويجعله يتخيل
الأشياء خلاف حقيقتها بالاستعانة بالجن حيناً وبالتأثير عليه نفسياً حيناً
آخر ، كما يعم ما يؤدي بالمرء إلى المرض - أو إلى الموت حسب
زعمهم - هذا كله من جنس مقدور البشر . فالإنسان يقدر على إفساد
إدراك غيره والتسبب في مرضه أو قتله . فقيام السحرة بهذا بوسائطهم
الخاصة ليس إلا تصرفاً في أعراض الحي ، إذ الموت والمرض والحركة
أعراض له ، فليس في ذلك قلب جنس إلى جنس آخر . وبالتالي فليس
فيه إذن ما يختص بقدرة الرب تبارك وتعالى . بل هو من فعل الجن ومن
جملة ما يقدر الإنسان العادي على إتيانه . فبعض الإنس يقدر على تكليم
آخر بما يزعجه ويمرضه كما يقدر على ضربه وقتله . ويقدر البعض على
تحبيبه بفلان أو جعله مكروهاً لديه على نحو أعظم مما تقدر عليه الجن ،
لكن تختلف وسائل كل من الفريقين . وقد يسأل الساحر أو الكاهن قرينه
من الجن عن أمور غائبة فيمثلها له . فإن كان مالاً مسروقا قد عرف الجني
عن أوصافه شيئاً أمكنه ؛ صادقاً كان أم كاذباً ؛ أن يُري قرينه شكلاً شبيهاً
بذلك المسروق لِمَا للجن من قدرة على التشكل . . وكذلك الأمر بالنسبة
لشخص مفقود ، فإن بإمكان الجني أن يُريه صورة شبيهة به حتى يظن
الظان أنه الانسي نفسه (٢) .

فإن ترى معي أنه ليس وراء الجن ما يخيف الإنسان . فليست تقدر
على التصرف في أمور الكون بشيء يستحق أن يُحسب له حساب .
والمسلم قادر بقراءة القرآن وقوارع آياته خاصة على التخلص من أضرار

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ٥ ص ٨٩ - المطبعة الميرية .

(٢) النبوات ص ٥ و ٦ و ٢٧٣ و ٢٨٦ .

الزمرة الشريرة فيهم « الشياطين » . بل الجنُّ في نظري أضعف من الإنس فإنهم لا يقدرّون على مجاراتهم فيما توصلوا إليه بسلطان العلم .

والخلاصة أن عجائب السحرة والكهنة فنون أشبه ما تكون ؛ من ناحية تلقيها عن الآخرين ؛ بالعلوم والصناعات المعروفة . فمن أراد إتقانها سلك مسالك أهلها واجتمع بمعلميها فيحقق نتائجهم أو يتفوق عليهم . فهي فنون تلزم روادها بالتفرغ والتعلم والمزاولة ، ونتاج السحرة والكهنة بجانب المعجزة سخيف هزيل لا يساوي شيئاً ، مما يثبت أنه يغير المعجزات والكرامات وأنه دونها بكثير . فأين هي من خلق الناقة في قلب الصخرة لسيدنا صالح عليه السلام . ومن نبع الماء من بين أصابع سيدنا رسول الله ﷺ؟! لذا تجد العقلاء من أهل فن السحر والكهانة يعكفون على الإيمان بالرسول . فقد خَرَّ سحرة فرعون ساجدين وقالوا : آمنا برب موسى وهارون . واعتزل أبو بَرزّة الأسلمي رضي الله عنه - من أهل المدينة - الكهانة وآمن بالله ورسوله .

اشتهارُ صدق النبي وافتضاحُ كذب الدّعيّ :

لعل امرأً من الناس يساوره القلقُ فيقولُ : أرأيتَ لو ادعى امرؤُ النبوة وتظاهرَ أمامَ الناس بالصّلاح والتقوى واستعانَ بالعجائب وغيرها في تأييد دعواه ، ألا يلتبس حاله بحالِ الأنبياء؟ وما السبيل لتمييز الدّعيّ من النبيّ؟

والحق أن الكاذب المدعي للنبوة رجل شرير فاجر شره المطامع دنيء المطالب ، لم يحمله على الدعوى الباطلة إلا نفسه الخبيثة وأغراضه الخسيسة . فهو بهذا الوصف من أعظم شياطين الإنس ، يعينه على تحقيق مآربه شياطين الجن . لذلك فإنه إذا تظاهر في البداية بالتدين والصّلاح للتغريب بالبعض فإنه لا يطيق في البقاء عليه صبراً ، لأنه يُفسد مقصوده ويحول دون تحقيق غاياته ، بل يستحيلُ أن يأمر بجميع ما أمرت به

الأنبياء أو ينهى عن جميع ما نهوا عنه لنفس السبب السابق . والشخص العادي إذا تظاهر بالصلاح وكان فاسد الباطن لم يلبث أن يفضح أمره وتظهر حقيقته لأعين الملأ ، فإن جوارحه وأعضاء جسمه تنصاع لأوامر عقله وقلبه . قال ﷺ : « . . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » (١) .

فالمتظاهر بخلق يعجز عن إخفاء حقيقة خلقه أمدأ طويلاً ، وهذا مما يدرك بالبداهة والملاحظة الاجتماعية . قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

هذا في رجل عادي فما بالك في امرىء مطاع في الناس يتاح له ما لا يتاح لغيره وتلحظه الأنظار أكثر من سواه . . ؟ إنه إن كان مدعياً للنبوّة أو غيرها من فضائل ؛ يقيم على خلافها ؛ فيظهر شاسع البون بين دعواه وأحوال نفسه ، فتتهاوى عن هويته وحقيقته أفنعة الزيف التي استتر بها أمدأ غير طويل .

وقد افتضح للناس شأن مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهما والقرامطة والمتظاهرين بالإسلام والتشيع من الملاحدة الباطنية المقيمين على الشرك وإتيان الفواحش وارتكاب المظالم وإسقاط الصلاة وغيرها عن أنفسهم ، وغير هؤلاء كثير . فجمهور الناس يميز بين الصادق والكاذب

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه - ج ١ ص ١٩ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب المساقاة - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - ج ٣ ص ١٢٢٠ حديث ١٥٩٩ . ورواه ابن ماجه في سننه - كتاب الفتن - باب الوقوف عند الشبهات ج ٢ ص ١٣١٩ حديث ٣٩٨٤ . والدارمي في سننه - كتاب البيوع - باب في الحلال بين والحرام بين - ج ٢ ص ٢٤٥ .

عما قريب ، ولا يشتبه ذلك عليهم أمدأ بعيداً . فالنبي الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس . وبينهما من الفروق ما لا يكاد يحصيه إلا الله تعالى . فكيف يلتبس أمر هذا بذاك !؟ فدلائل كذب الداعي عديدة ودلائل صدق النبي وفيرة ظاهرة .

تبرئة القرآن محمداً ﷺ من السحر :

إن دعوة محمد ﷺ إلى توحيد الله تعالى والإيمان بكتبه ورسوله لم تلق من المشركين إلا نفوراً وحيرة في قذف التهم ، حتى رموا الصادق الأمين بالسحر والكذب . قال الله تعالى :

﴿ ص . والقرآن ذي الذكر . بل الذين كفروا في عزةٍ وشقاق . كم أهلكتنا من قبلهم من قَرْنٍ فنادوا ولاتٍ حينٍ مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب ﴾ (١) .

وهكذا فإن الله وصفهم بالكفر ذماً لهم لتجاسرهم على اتهام الرسول بالسحر ، وهذا ما لا يفعله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق . كيف يتهمونه وهو منهم ، يعرفون نزاهته واستقامته وقد جاءهم مرشداً محذراً من مغبة الانحراف ؟ فإنه لم يأتهم إلا بالحق الصراح . أيعقل أن يتهم الداعي إلى الحق بأنه ساحر ؟ ﴿ بل تمتع هؤلاء وأبائهم حتى جاءهم الحق ورسولٌ مبين . ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ (٢) .

لا غرابة في نكرانهم ، فقد سلكوا في مقابلة رسولهم سنن من قبلهم مع رسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون ﴾ (٣) .

(١) سورة ص : ١ - ٥ .

(٢) سورة الزخرف : ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٢ .

لقد عولوا في تكذيبه على زعمهم أنه ساحر وأنَّ كلَّ ما يأتيهم به هو سحر أيضاً ، حتى لو كان معجزة مفلقة يعجز جميع الإنس والجن عن مثلها ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمرُ . وإن يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ ﴾ (١) . فانشقاق القمر وإن شاهدَهُ الركبان فهو سحر أيضاً ؟ والقولُ البليغُ الناصع الذي يعجزون عن مثله والذي احتوى الحجج البينات والدلائل العقلية الملزمة على صدق محمد ﷺ هو سحر أيضاً ! كذلك قال زعيمهم الوليد بن المغيرة : ﴿ إن هذا إلا سحرٌ يُؤثر ﴾ (٢) .

وتتابع اتهامهم بالسحر للتكذيب بكل شيء حتى بما يدل عليه العقل من بعث ونشور ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٣) .

انهم يكذبون كل برهان ؛ عقلياً كان أم مادياً . فقد نسبوا إلى السحر قولاً يفهم ودليلاً يقنع وأسلوباً يعجز الإنس والجن جميعاً . ولو نزل عليهم كتاب الله مدوناً في أوراق فأمسكوه بأيديهم وتحسسوه بأصابعهم وحملقوا فيه بأعينهم لنكصوا على أعقابهم قائلين : ما هذا إلا سحر مبين . قال تعالى : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٤) .

وتلوح للناظر في الآيات الكريمة براهين كذبهم على رسول الله ﷺ ، ألا يكفيهم بهتاناً أنهم نسبوا إلى السحر كل ما يستحيل في العقل أن يكون سحراً ؟!

ثم ألا يكفيهم دجلاً ومراوغةً أنهم عدّوا الصادق الأمين في جُملة السحرة ؟ والعاقل يدرك براءته ﷺ منهم لفروق بينه وبينهم لا تكاد تحصى !!

(٣) سورة هود : ٧ .

(١) سورة القمر : ١ - ٢ .

(٤) سورة الأنعام : ٧ .

(٢) انظر سورة المدثر : ١١ - ٣٠ .

الفصل الثاني

مُعْجَزَاتُ رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

- أقسام معجزاته .
 - اليقين بمعجزاته .
 - دلالة المعجزة :
 - أ - دلالة المعجزة في القرآن .
 - ب - دلالة المعجزة في الحديث .
 - ج - دلالة المعجزة لدى علماء الكلام .
 - د - معجزة نبي من الأنبياء تدل على صدق سائرهم .
 - هـ - امتداد دلالة المعجزة على مر الزمان .
- تطلب المعجزات .

أقسام معجزاته ﷺ

إذا تأملت معجزات الرسول الأعظم ﷺ وجدت بعضها ذا طابع عقلي غالب ، وهي : المعجزات العقلية . ويغلب على البعض الآخر الطابع الحسي ، مع أنها تعتمد على العقل ، لكن تعويلها على الحس أكثر وأظهر ، وهي : المعجزات الحسية . وترى أن هذا التقسيم ينطبق على معجزاته ﷺ انطباقه على دلائل نبوته عامة . وقد ذكرنا أن المعجزة أخص من الدليل والعلامة ، وبيّنا أقسام دلائل نبوته في الكتاب الأول « نبوة محمد ﷺ في القرآن » (١) .

أ- المعجزات الحسيّة :

وهي تجابه الحس وتُظهر عجز الإنسان عن معارضتها فتقيم للفكر برهاناً ملزماً على نبوة صاحبها . وقد أجرى الله على يد محمد ﷺ الكثير من هذا النوع ، من ذلك ؛ تكثير الطعام القليل حتى كفى الجمع الغفير ؛ وحنين الجزع إليه ؛ وتسييح الحصى في كفه . . . ونعرض الآن لبيان نبع الماء من بين أصابعه حتى روى المئين من أصحابه ؛ وتكثير الطعام القليل ببركته ﷺ ؛ وانشقاق القمر ؛ والإسراء والمعراج .

١ - نبع الماء من بين أصابعه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : عطش الناس يوم

(١) ص ٢٣٥ وما بعدها .

الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهش^(١) الناس نحوه ، فقال : ما لكم ! قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ! كنا خمس عشرة مائة^(٢) .

هذه معجزة عظيمة باهرة تنقطع أنفاس البشر دون معارضتها . لا جرم أنها بليغة الحجة قوية البرهان ، إذ تعطي دليلاً مادياً محسوساً لا مجال فيه لزعم التوهم . فإن الماء قد شاهدته الأعين ولا مسته الأكف والأيدي وضوءاً ، وعبت منه الأفواه وامتلات البطون ، وارتوى الناس حتى زال ما نزل بهم من عطش صحراوي شديد . هذه المكرمة الإلهية المعجزة تكررت لسيدنا رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة ورواها عدد كبير من الثقات عن مثلهم عن الصحابة . فهي من المعجزات القطعية الثبوت . قال القرطبي : (قضية نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة . ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي)^(٣) وقد ذكر ابن حجر روايات وطرق أحاديث نبع الماء فأظهر كثرة رواياتها من الصحابة ومن بعدهم ، وأورد كلاماً للقاضي عياض ككلام القرطبي .

وهذه من المعجزات الرائعة التي امتاز بها رسول الله على سائر اخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي : (ولم يُسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ حيث نَبَعَ الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه)^(٤) .

(١) الركوة : إنا صغير للشرب . جهش الناس : أسرعوا متهئين لأخذ الماء .

(٢) رواه البخاري : باب علامات النبوة .

(٣و٤) فتح الباري : ج ٦ ص ٣٧٨ .

وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال : (تَبَعُ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ أْبْلَغُ مِنَ الْمَعْجِزَةِ مِنْ نَبْعِ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ ، حَيْثُ ضَرَبَهُ مُوسَى بِالْعَصَا فَتَفَجَّرَتْ مِنْهُ الْمِيَاهُ ، لِأَنَّ خُرُوجَ الْمَاءِ مِنَ الْحِجَارَةِ مَعَهُودٌ بِخِلَافِ خُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ) (١) .

٢ - تَكثِيرُ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ بِبِرْكَةِ ﷺ :

روى البخاري أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَةٌ (٢) شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر . ولبنا ثلاثة أيام لا نذوق ذَوْاقاً . فأخذ النبي ﷺ المِعْوَلُ فضرب فعاد كثيباً أَهْيَلٌ أو أَهْمِيمٌ (٣) . فقلت : يا رسول الله ائذن لي إلى البيت . فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعَنَاقُ فذبحتُ العناق (٤) وطحنتُ الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرْمَةِ (٥) . ثم جئتُ النبي ﷺ والعجين قد انكسر (٦) والبرمة بين الأثافي (٧) قد كادت أن تَنْضَجَ . فقلت : طُعِيمٌ لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرتُ له . قال : كثير طيب . قال : قل لها لا تنزع البُرْمَةَ ولا الخبز من التنور حتى آتي . فقال : قوموا ، فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألك ؟

(١) فتح الباري : ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) الكدبية : القطعة الصلبة الصماء .

(٣) الكثيب : الرمل . أهيل أو أهيم : سيالاً غير متماسك .

(٤) العناق : الأثني من الماعز ما لم يتم عمرها سنة .

(٥) البرمة : القدر .

(٦) العجين قد انكسر : لان ورطب وتمكن منه الخمير .

(٧) الأثافي : ثلاث حجارة توضع عليها القدر أثناء الطبخ .

قلت : نعم . فقال ﷺ : ادخلوا ولا تضاغظوا^(١) . فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر^(٢) البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ، ثم ينزع^(٣) . فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقي بقية . قال : كلي هذا وأهدي فإن الناس قد أصابتهم مجاعة^(٤) .

ويروى أن عدد الأكلين كان ثمانمائة ، وفي رواية للبخاري أنهم كانوا ألفاً .

٣ - انشقاق القمر :

قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾^(٥) .

ورد في الصحيحين وجامع الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما .

وتزيد رواية الترمذي (فنزلت : اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر - يقول : ذاهب) .

وأخرج الترمذي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فصار فرقتين . فقالت قريش : سحر محمد أعيينا . فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم) .

(١) لا تضاغظوا : لا تزدحموا .

(٢) يخمر : يغطي .

(٣) ينزع : يأخذ اللحم من البرمة .

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الخندق . وانظر فتح الباري : ج ٧ ص ٢٧٧ وما بعدها ، والنهاية لابن الأثير .

(٥) سورة القمر : ١ - ٣ .

وتزید رواية رزين : (فكانوا يتلقون الركبان ، فيخبرونهم بأنهم قد رأوه ، فيكذبونهم) وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السفار فقالوا ذلك)^(١) .

أقول : إن معجزة انشقاق القمر لسيدنا محمد رسول الله ﷺ ثبتت بنص القرآن العظيم وصریح السنة النبوية . وقد روى أحاديث انشقاق القمر جماعة من الصحابة منهم : عبد الله بن مسعود ، وأنس ، وابن عباس ، وابن عمر ، وحذيفة ؛ وعلي ، وجبير بن مطعم ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره^(٢) : (وقوله تعالى ﴿ وانشق القمر ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « خمسٌ قد مضين الروم والدخان واللزأ والبطشة والقمر » . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات) .

وقرر السفاريني^(٣) تواتر أحاديث انشقاق القمر واجماع أهل الحق على وقوعه . وغير خافٍ أنه لم ينشق القمر لأحد من المرسلين قبله ، ولا تعدله معجزة من معجزاتهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليزوغها

(١) رواه البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وكتاب الأنبياء - باب سؤال المشركين النبي أن يريهم آية - وكتاب فضائل الصحابة - باب انشقاق القمر . ورواه مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب انشقاق القمر . ورواه الترمذي - كتاب التفسير - باب ومن سورة القمر .

(٢) ج ٤ ص ٢٦١ .

(٣) لوائح الأنوار البهية : ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨١ .

في ملكوت السماوات . فكانت آيةً باهرة من أمهات معجزاته ، وخصيصة خصه الله تعالى بها دون سائر إخوانه النبيين . ولا يكاد يعدلها شيء من معجزاته بعد القرآن الكريم .

بينما أنتَ تسمعُ وتقرأ أن العلم الحديث أثبت أن القمر كوكب صلب ويشبه تركيبه تركيب الأرض إلى حد بعيد وفيه الصخور والرمال والجبال والأودية ، تطلع على رأي ملاحدة المتفلسفة الأقدمين ؛ أن الكواكب لا تقبل الخرق والالتئام ، فتزدري نجواهم كل ازدراء . فقد ثبت بالتواتر - وهو يفيد العلم اليقيني - أن القمر قد انشق فلقتين لسيدنا محمد ﷺ حتى ظهر الجبل بينهما . وجاء العلم المادي البحت يقيم دلائل لا تقبل النقاش على أن القمر جرم مادي شبيه بالأرض . فما يُحتمل حدوثه فيها من انشقاق وإلتئام ؛ لا يُستغرب حدوثه فيه . وكثيراً ما شاهد الإنسان انشقاقاً جزئياً في الأرض بعمل البراكين ونحوها . فالانشقاق الكليُّ فيها ليس مستحيلاً . فكيف بالقمر الذي يصغر الأرض بتسع وأربعين مرة . ثم ليس الله تعالى الذي خلقه وسيره في فلكه بقادر على شقه ليكون آية للناس تهديهم صراط الله الذي نصبه لسعادة عباده في خاتم أديانه وأعمها ؟ بلى إنه قادر على تبديده أو على شقه حين يشاء لحكمة بالغة فذلك تقدير العزيز العليم .

وقدمت لنا الأبحاث الأثرية وثيقة تاريخية ملزمة بهذا الشأن . فقد عرّبت جريدة (الإنسان) التي كانت تصدر في الأستانة مقالاً عن الصحف الأجنبية ورد فيه : (لقد عُثِر في الصين على بناء قديم مكتوب فيه أنه بُني عام كذا ، الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم وهو انشقاق القمر نصفين . فحرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا محمد ﷺ)^(١) .

(١) قبسات من نور النبوة - عبد الفتاح أبو غدة وأحمد عز الدين البيانوني ص ٧١ « نقلًا عن باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ص ٤١ - حمزة فتح الله » .

وقد نقل استاذنا الجليل العلامة الشيخ الدكتور محمد السماحي
رحمة الله عليه ؛ خبرين آخرين عن انشقاق القمر من أمهات كتب
التاريخ^(١) . فهذه أخبار تاريخية ثلاثة ، ومنهج التاريخ لا يحتاج في إثبات
حادث إلى أكثر من هذا ، فكيف وقد أثبتته أيضاً أخبار السنة
المستفيضة !!؟؟

٤ - الإسراء إلى بيت المقدس :

إن مما يدهش العقل ويحير اللب ويفضح قصور القدرة البشرية ؛
حتى في أعصر ازدهارها ونموها ؛ تلك التكرمة العظيمة المعجزة ، التي
نقل الله بها سيدنا محمداً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى
بالقدس . ومن ثمَّ عرج به إلى السماوات العلى . وقد خلد القرآن الكريم
مأثرة الإسراء على جبين الدهر ، قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى
بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله
لنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾^(٢) .

أوجز سبحانه حادثة الإسراء مبيناً أنه أسرى بعده محمد ﷺ في
طرف من الليل . والإسراء : السير بالليل خاصة . وإنما قيده بظرفه
(ليلاً) لإفادة قلة زمان الإسراء ، لما في التنكير من دلالة على البعض من
حيث الأجزاء ، كما يدل على البعضية من حيث الأفراد . وآثر أن يكتفي
عن محمد ﷺ بـ (عبده) إيداناً بتمحضه واستغراقه عليه الصلاة والسلام
في عبادة ربه وبلوغه في ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات ، كما يُلَوِّحُ

(١) والعلامة الدكتور محمد السماحي رئيس قسم الحديث في كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقاً ثم أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة في مكة المكرمة ، قد
تعرض لهذا البحث في أطروحته القيمة التي نال بها شهادة (العالمية من درجة أستاذ)
« الدكتوراه » من الأزهر ؛ بعنوان « الرسالة » ولم تطبع بعد ؛ وللأسف .

(٢) سورة الإسراء : ١ .

بذلك مبدأ الإسراء ومنتهاه . فكل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى أرض المرسلين ومأوى الربانيين . وأفاد بذلك أن الإسراء كان بالجسد والروح معاً ، لذلك قال : ﴿ بعبده ﴾ ولم يقل « بروح عبده » . وإنما أضاف التنزيه ﴿ سبحان ﴾ إلى اسم الموصول بعبده للإشعار بما في الإسراء من علية ورفعة . فأفاد أنه تعالى في نهاية التنزه عن صفات المخلوقين وعجزهم ، وأنه ذو القدرة الكاملة والحكمة البالغة . وفي الإسراء من تكريم الله لسيد الخلق ما لا يخفى وقد أراه فيه من الآيات ما يكون بعضها دليلاً له عند القوم على نبوته (١) .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لما كذبتني قريش قمت في الحجر ، فجلّني الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه (٢) .

وروى الإمام أحمد والبخاري بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة ، مرّ بي عدو الله أبو جهل ، فقال : هل كان لنا من شيء ؟ قال رسول الله ﷺ : إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس . قال : ثم أصبحت بين أظهرنا !؟ قال : نعم . قال : فإن دعوت قومك أتحدثهم بذلك ؟ قال : نعم . قال : يا معشر بني كعب بن لؤي ! قال : فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا إليهما ، فقال : حدّث قومك بما حدثتني ، فحدثتهم ، قال : فمن بين مصفّق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً . قالوا : وتستطيع أن تنعت لنا المسجد . الحديث (٣) .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ١٠ ص ٣٠٥ وما بعدها ؛ وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لأبي السعود العمادي ج ٣ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) رواه البخاري - باب حديث الإسراء - كتاب بدء الخلق .

(٣) فتح الباري : ج ٧ ص ١٣٩ ، والحديث عند أحمد في مسنده (١ : ٣٠٩) .

وقد بين الرسول في حديث الإسراء والمعراج أن جبريل قد جاءه بالبراق ليمتطيه ، وشبهه الرسول بدابة متوسطة ، وهو سريع فسيح الخطو يضع قوائمه عند منتهى بصره . ولعل هذا سر تسميته بالبراق ؛ أخذاً من البرق . وامتطى الرسول البراق إلى بيت المقدس ، حيث صلى بالنبيين . ثم عرج به جبريل إلى السماوات العلى ، حتى ناجى ربه سبحانه وتعالى ، وفرض عليه وعلى أمته ما فرض . وشهد من عالم الغيب ما وفقه الله إليه ، ليكون عظة وعبرة لأمته . ثم عاد جبريل به في الليلة نفسها إلى مكانه بمكة . فمعجزة الإسراء إلى بيت المقدس قد نص عليها القرآن الكريم ، والعروج منه إلى السماوات العلى معجزة عظيمة ثابتة بالسنة الصحيحة^(١) .

وللإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس قبل العروج به إلى السماوات العلى حكم كثيرة بالغة ؛ أقربها إلى وريد موضوعنا ، أن الله تعالى أراد إظهار الحق وصموده تجاه المعاندين المؤتمرين على إخماد جذوته . فخصوصية الإسراء أن يرى محمد من آيات ربه ما يكون له برهاناً يقيم به الحجة على القوم ﴿ لئريه من آياتنا ﴾ فإنه لما استصغى آذانهم إلى خبر مسراه أنكروا متسائلين عن الدليل فوافاهم به ، إذ مكّنه الله بتجلية بيت المقدس أمامه من تعريف جزئيات في بيت المقدس وذكر أوصاف ثانوية له ، مما كانوا رأوها بأب أعينهم ، وقد علموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك . فما أن أجابهم بدقة عما لا يلتفت إليه من التفاصيل ؛ حتى تحققوا من صدقه ، ولزمهم تصديقه بتمام حديثه عن المعراج أيضاً^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير - طبعة كتاب الشعب . ج ٥ ص ٤ وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد - باب ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ - ج ٨ ص ٢٠٣ ، والإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الإسراء إلى السماوات وفرض الصلوات - ج ١ ص ١٤٥ ، وجامع الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة بني إسرائيل - ج ٥ ص ٣٠٠ . حديث ٣١٣٠ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) فتح الباري : ج ٧ ص ١٤٠ .

ربما يقول بعض الناس : إن الإنسان العاديّ قد ركب متن الفضاء في عصرنا ، فما وجه الإعجاز في إسرائ محمد ﷺ ومعراجه . ؟

إن الإنسان قد انتفع من نواميس الطبيعة وخواص المادة واستغل ذلك على وجه أعانه على الطيران بمسلك منسجم مع الطبيعة . فكان طيرانه عملاً عادياً يقدر عليه كل من اتخذ أسبابه . أما أن يقدر إنسان على امتطاء صهوة الفضاء من غير سبب مادي ، فتلك هي المعجزة الخارقة لعادة البشر ونواميس الكون المخالفة لنهج الأسباب والمسببات المادية ؛ التي دَرَجَ عليها الانسان . وإن رجال العلم يتخذون ألبسة واقية ويقضون أياماً في الوصول إلى القمر ، وهو أقرب كوكب إلى الأرض إذ يبلغ متوسط بعده عنها / ٣٨٠ / ألف كم ، حسبما قاسه العلماء المعاصرون بواسطة أشعة الليزر . فلا يتجاوز متوسط بُعده ثانية وثلاث بسرعة الضوء ، وهو دون السماء بمسافات هائلة .

أحاط الله تعالى عبده محمداً ﷺ بالعناية الخاصة ، وقِيض له في رحلته من أسباب المنعة والحفظ الغيبية ما كفل له السلامة في إسرائه ومعراجه مع تلك السرعة الفائقة ، إذ عاد إلى مقامه في مكة في أقل من ليلة واحدة .

فالله تعالى عليّ كبير قادر على توفير تلك الأسباب اللازمة بل هو سبحانه الذي خلق نواميس الكون قادر على أن يخرق منها ما يضمن حصول الرحلة المحمدية بسلام .

موقف حاسم :

زماننا هذا قد فتحت فيه أذهان الشباب على المكتشفات العلمية وحقائق الكون . وقد كثر كلام العامة من الناس عن الإسرائ والمعراج بتخليط وجهل مريرين . وهذا أمر جد خطير !! وأخطر ما فيه تفشي قصة

مكذوبة عن هذه المعجزة العظيمة ، وقد نسبت إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . لكنها لم تُرو عنه في أي من كتب الحديث الصحيحة . وهذا الصحابي الجليل ابن عم رسول الله ﷺ قد عُرف بمنزلته العلمية العالية وتقواه لدى العامة والخاصة . فلا يعقل أن تصدر عنه هذه القصة الخيالية الخرافية التي تتنافى مع الأحاديث الصحيحة بل تتنافى مع المعقول والمنقول عامة ، وهي محشوة بترهات وتلفيقات ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن ذلك : تسمية مواد السماوات ؛ فالأولى دخان ؛ والثانية حديد ، والثالثة نحاس ؛ والرابعة فضة . . . الخ . هذا وغيره من التخريف السمجة لا أصل له في أي من روايات حديث الإسراء والمعراج على الرغم من تعدد رواياته السليمة في كتب الحديث الصحاح .

فليس بين هذا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس وبين هذه القصة أي سند سليم أو نسب صحيح . إنما هي من وضع وافتراء القصاصين الكذابين في التاريخ ولعلها من حيك بعض الزنادقة أعداء الإسلام ؛ كيداً منهم للمسلمين وتلهية عن معارف دينهم القويمة . ولسنا نريد الإسهاب هنا في تبيان ذلك .

وقد نبه علماء الحديث على اختلاق قصة الإسراء والمعراج على ابن عباس ، وذكروها في الأحاديث الموضوععة ، التي افتراها كذابون ونسبوها إلى رسول الله ﷺ ، والرسول وأصحابه منها براء .

قال الإمام السيوطي : (من الموضوع^(١) أيضاً : حديث الأرز والعدس والبادنجان . . . والحديث الطويل عن ابن عباس في الإسراء ، أورده ابن مَرْدُؤِيَه في تفسيره ، وهو نحو كَرَّاسِين)^(٢) .

(١) « من الموضوع » يعني : من جملة أنواع الحديث المكذوب على الرسول ﷺ ، الذي وضعه أحد الكذابين ، ولم يتفوه به الرسول قط ، ولا أحد أصحابه أو أهل بيته .

(٢) تدريب الراوي - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : ص ١٩٠ .

أما وقد طبع هذا الكتاب في بعض البلدان الإسلامية^(١) ونفسي في معظم أقطار العالم الإسلامي فإن واجب أولي الأمر القيام بمنع طبعه وتوزيعه بشتى الأساليب الزاجرة ، والموقف الحاسم للشباب المسلم أن يُعَوَّل على الأحاديث الصحيحة ، وأن يتثبت من صحة ما يسمع من أحاديث وخاصة في الأمور الخطيرة كمعجزات الرسول الأعظم ﷺ ، فإن تناقل الأحاديث المكذوبة بين الناس يصد عن الإسلام صدأً قوياً ؛ أشد مما كان يحصل في الأزمنة الغابرة . فلا يجوز لك أن تكتفي بالامتناع عن قراءة القصة المملوكة عن الإسراء والمعراج فحسب ، بل الموقف الإيماني الحاسم يوجب عليك أن تبين الصحيح في هذه المعجزة ، وأن تدعو إلى تمزيق ذاك الكتاب المكذوب المتداول بين العامة ، بل أن تمزقه بنفسك إن أمكنك ذلك . وقد سمعت بعض أساتذتنا من العلماء العاملين المخلصين على منبر الجمعة يحذر الناس من خطر هذا الدجل على الإسلام ومن هذا التشويه المزري لمعجزة الإسراء والمعراج . ورأيتهم يمسك بالكتاب المكذوب ويمزقه على مرأى من الجمهور المزدحم في الجامع . جزاه الله خيراً وأجزل ثوابه .

ب - المعجزات العقلية :

وهي تواجه العقل بكل ما فيه من قوى الإدراك والاستبصار ، وأجلها وأبلغها القرآن العظيم . ومنها : إجابة دعاء رسوله باطراد ، وصحة إخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب . وذكرت لذلك نماذج بليغة البيان جلية البرهان في « نبوة محمد ﷺ في القرآن »^(٢) .

وهاك نماذج أخرى لمعجزاته العقلية عليه الصلاة والسلام :

(١) بعنوان: «الإسراء والمعراج - لابن عباس». (٢) ص ٢٣٩ - ٢٤٤ .

١ - إجابة الله دعاء رسوله ﷺ :

١ - دعاؤه على أشرف قريش لدأبهم على الأذى : روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسلي جزور^(١) بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم^(٢) فجاء به فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضع على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر لا أغير شيئاً ، لو كانت لي منعة^(٣) ! قال : فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض^(٤) ؛ ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فطرحته عن ظهره^(٥) . فرفع رأسه ثم قال : اللهم عليك بقريش^(٦) ؛ ثلاث مرات فشق عليهم إذ دعا عليهم . قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة . ثم سمى : اللهم عليك بأبي جهل

(١) « سلى جزور » : الجلدة من الإبل التي تحمل فيها الولد يقال لها « سلى » وتقابل المشيمة في آدميات .

(٢) « أشقى القوم » : المراد به : عقبة بن أبي معيط ، كما أفادت روايات الصحيحين وغيرهما . وهو أشقاهم في هذه الحادثة لأنه انفرد بمباشرة الأذى وبالعدوان على قدسية صلاة الرسول الأعظم ﷺ .

(٣) « منعة » : قوة . وقول ابن مسعود : « لو كانت لي منعة » فيه حذف والتقدير : لو كانت لي قوة لطرحت الأذى عن رسول الله .

(٤) « يحيل بعضهم على بعض » : تفسرها رواية للإمام مسلم « يميل » : من كثرة الضحك تهكماً ويطراً .

(٥) « فطرحته عن ظهره » : في صنيع السيدة فاطمة الزهراء برهان على قوة شخصيتها وعزة نفسها وشجاعتها منذ صغرها خاصة وأنها « أقبلت عليهم تشتمهم » كما في رواية ، وأنها « دعت على من صنع ذلك » كما في روايات الصحيحين . فقد قابلتهم بذلك وهم رؤوس قريش ظلماً وجبروتاً وطغياناً . فتأمل ! وفي دعائها عليهم من تمنى هلاكهم وإظهار الكراهية لهم ما لا يخفى !

(٦) « اللهم عليك بقريش » : خذهم وأهلكهم . وفي بعض روايات الصحيحين « اللهم عليك الملاء من قريش » والملاء : الجماعة ، والمراد : الأشراف .

وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعُقبَة بن أبي مُعيط وعدّ السابِع فلم يحفظه . قال : فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ^(١) رسول الله ﷺ صرعى في القليب^(٢) ؛ قليب بدر^(٣) .

عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد^(٤) قريش فُقدوا في طَوِيّ^(٥) من أطواء بدر خبيث مُخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة^(٦) ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلّا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركيّ^(٧) فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « يا فلان بن فلان ويا

(١) « رأيت الذين عد رسول الله » قصد معظمهم ، لأن عقبة بن أبي معيط لم يطرح في القليب وإنما قتل صبراً على بعد مرحلة من بدر ، بعد أن وقع أسيراً بأيدي المسلمين .

(٢) « القليب » . البئر القديمة (فتح الباري ج ١ ص ٢٤٣ وما بعدها) .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وانظر روايات الحديث في صحيح البخاري : كتاب الوضوء - باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر . ج ١ ص ٦٥ . وكتاب المغازي - باب دعاء النبي على كفار قريش - ج ٥ ص ٥ - ٦ . وكتاب ستره المصلي - باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى - ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ . وكتاب الجهاد - باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة - ج ٣ ص ٢٣٤ . وكتاب الجزية - باب طرح المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن - ج ٤ ص ٧١ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين - ج ٣ ص ١٤١٨ - ١٤١٩ و ١٤٢٠ . ورواه النسائي في سننه كتاب الطهارة - باب فرث ما يؤكل لحمه يصيب الثوب - ج ١ ص ١٦١ .

(٤) « الصناديد » : جمع صنديد ، وهو السيد الشجاع .

(٥) « طوي » البئر التي طويت يعني بنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار . والذين قذفوا فيها هم السادة الزعماء وليس جميع قتلى قريش ، لأن عددهم سبعين كما روى الإمام البخاري .

(٦) « العرصة » البقعة الواسعة لا بناء فيها .

(٧) « شفة الركي » طرف البئر . والركي : البئر قبل أن تطوى . وإيراد الألفاظ الثلاثة : القليب

والطوي والركي يفيد أن هذه البئر كانت مبنية لكنها قديمة متهدمة .

فلان بن فلان ! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله !! فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟! » قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟! فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم »^(١) « رواه البخاري »^(٢) .

وروى ابن اسحاق أن النبي ﷺ لما خاطب أصحاب القليب قال له المسلمون : يا رسول الله ؛ أتنادي قوماً قد جَيَّفُوا^(٣) ؟ .

فقال ﷺ : « ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني »^(٤) .

أرأيتم ذلكم الحدث الفذ المذهل !! رجل يعلن في وجه الجبابة البطاشين سادة قومه أنه يتمنى لهم الهلاك ، إذ دعا الله على مسامعهم أن ينزل المحق بهم ! ماذا ؟ إنه في قبضتهم ويجابهم بأشنع ما يسوؤهم !! كيف أقدم على ذلك ولا ناصر له من الناس يستطيع أن يدفع عنه بئاسه ومنعته نقمة القوم عليه ؟! ثم ماذا ؟ يلقاهم ببدر في ثلاثمائة من أنصاره المستضعفين ، فيهم الحفاة وأشباه العراة ، فيهم الفقر المدقع والجوع المضني . يلقاهم وقد أجمعوا أمرهم وحشدوا جموعهم وأقبلوا بخيلائهم في نحو ألف من الأشداء المدججين بالسلاح المزودين بالعتاد والمؤن . . فما لبث السادة الأقوياء أن اندرخوا حتى قتل منهم سبعون ، وفيهم علية القوم وأشرافهم ، وأسر منهم سبعون ، وولى الباقون الأدبار وتبعثرت

(١) الظاهر أن المراد : سماع أرواحهم واطلاعها . (فتح الباري ج ٧ ص ٢١٣ - ٢١٥) .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

(٣) « جيفوا » : صاروا جيفاً ، فقد مضى على قتلهم ثلاثة أيام وجشهم في حرارة الشمس الصحراوية .

(٤) سيرة النبي ﷺ - عبد الملك بن هشام - ج ٢ ص ٢٨٠ .

فلولهم في الصحراء ترجع من حيث أتت .

أخبرهم محمد ﷺ بأنه سينتصر عليهم فانكشف صدق خبره . ودعا على ساداتهم بالهلاك ، فتحققت بإذن الله أميته ، وأجبت دعوته على الرغم من عدم التكافؤ المادي بينه وبينهم . وأمعن في تحديدهم وإعلان عزة الإيمان بالله ، فمكث في ساحة المعركة ثلاثة أيام تجلى فيها نصر المسلمين وظهور الإسلام ، وتجلى بالتالي علم ساطع من أعلام نبوته بصدق وعده وتحقق خبره وإجابة دعوته . صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاشت قريحة شاعر الدعوة الإسلامية الأول حسان بن ثابت ، فأنشد قصيدة عصماء في تلك المناسبة الخالدة ، قال فيها :

فغادرنا أبا جهلٍ صريعاً وعتبةً قد تركنا بالجُبوب^(١)
وشيبةً قد تركنا في رجالٍ ذوي حَسَبٍ إذا نُسِبُوا حسيبٍ
يناديهم رسول الله لَمَّا قذفناهم كباكبٍ في القلب^(٢)
ألم تجدوا كلامي كان حقاً وأمرُ الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ؛ ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأيٍ مصيب

٢ - دعاؤه بالغوث لما نزل القحط بالمسلمين : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً ، ثم قال : يا رسول الله ﷺ : هلكت الأموال^(٣) وانقطعت السبل^(٤) فادع الله يُغننا .

(١) « الجبوب » : الأرض الغليظة .

(٢) « كباكب » جمع ككببة ، وهي الجماعة من الناس ، « والقلب » : البئر .

(٣) « هلكت الأموال » : المواشي ؛ خصوصاً الإبل ، ولفظ البخاري « هلكت المواشي » وهلاكها من قلة الأفوات .

(٤) « وانقطعت السبل » : الطرق ، فلم تسلكها الإبل لضعفها بسبب قلة الكلال أو عدمه .

قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » .

قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحب ولا قَزَعَةَ^(١) ، وما بيننا وبين سَلْع^(٢) من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، قال : فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً^(٣) .

قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً ، فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يُمسِكها عنا . قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حولنا ولا علينا ، اللهم على الآكام^(٤) والظراب^(٥) وبطون الأودية ومنابت الشجر » فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس^(٦) .
وعن جابر قال : أتت النبي ﷺ بواكي^(٧) ، فقال :

« اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً ؛ مريئاً مريعاً^(٨) ؛ نافعاً غير ضار ؛

(١) « القزعة » : سحب متفرق ، وفي رواية البخاري « وإن السماء لمثل الزجاجة » : من شدة الصفاء لخلوها من أقل شائبة سحب .

(٢) « سلع » : اسم جبل مطل على المدينة من الغرب .

(٣) « ما رأينا الشمس سبتاً » : كناية عن استمرار الغيم الماطر اسبوعاً ، وعبر عن الاسبوع بالسبت من باب تسمية الكل باسم بعضه ، كما يقال : « جمعة » .

(٤) « الآكام » من الأكمة : التل . والجمع : أكَم - بضم الهمزة - وجمع الجمع : آكام .

(٥) « الظراب » بكسر الظاء وفتح الراء - وهي الجبال الصغار والروابي .

(٦) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم ، انظر صحيح مسلم : كتاب صلاة الاستسقاء وصحيح البخاري : كتاب الجمعة - باب الاستسقاء في المسجد الجامع ، وباب علامات النبوة .

(٧) « بواكي » نساء باكيات من شدة الجذب وفداحة القحط يشكين إلى النبي ﷺ ما نزل بالقوم .

(٨) « مريئاً » : طيباً تستمرىء النفوس ثماره . « مريعاً » : مخصباً .

عاجلاً غير آجل» .

قال : فأطبقت عليهم السماء (١) .

أجل ! هذه هي الدعوة التي لا تخيب ؛ دعوة من اتخذ عند الله عهداً وثيقاً . . عهد النبوة والرسالة . تلك دعوة المرسلين الأخيار الذين أيدهم الله بسطوة جلاله وعظيم قدرته . أجل ! إنها دعوة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٢) .

٢ - إخباره ﷺ عن غيب المستقبل :

إن البشر مهما بلغوا من العلم ومهما رقوا في معارج الفطنة والذكاء فإنهم سيظلون قاصرين عن سير أغوار الغيوب وسيظلون أبداً واقفين فيها عند الحدود التي أوقفهم الوحي الإلهي عندها . والمستقبل غيب مجهول لا يجروء أحد من العقلاء أن يجازف بالحكم فيه بأمر قطعي محدد ، اللهم إلا أن يصدر فيه ظناً أو تخميناً من باب المقاربة والاحتمال ، ثم تكشف الأيام عن خطأ ذلك كله أو أكثره ﴿ وإن الظن لا يُغني عن الحق شيئاً ﴾ (٣) ولئن أسعد الحظ الإنسان أحياناً بتحقيق تنبئه عن المستقبل ، فما أكثر ما يفجأه بالخيبة والتكذيب . وقد كشفت دورة الزمن عن نبوءات المتنبئين في

(١) أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الصلاة - باب رفع اليدين في الاستسقاء - ج ١ ص ٣٠٣ حديث ١١٦٩ . وابن ماجه في سننه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في الدعاء في الاستسقاء - ج ١ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ حديث ١٢٦٩ و ١٢٧٠ . والمستدرک ج ١ ص ٣٢٧ وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي ، وقال النووي في الأذكار ٢٢٤ : « بإسناد صحيح على شرط مسلم » فتأمل ! وللتوسع في معرفة هدى النبي ﷺ في الاستسقاء وصلاته انظر كتاب « هدى النبي ﷺ في الصلوات الخاصة » ص ١٥٦ - ١٦٦ لشقيقي العلامة المحدث الدكتور نور الدين عتر .

(٢) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ٢٣٩ - ٢٤١ . ففيه جانب هام لهذا الموضوع .

(٣) سورة النجم : ٢٨ .

التاريخ القديم والحديث ، فخيبت ظنونهم وكذبت تنبؤاتهم وفضحت فداحة أخطاء توقعاتهم . فكان ذلك من أعظم المنفردات من آرائهم ومذاهبهم ، إذ خسرت ثقة العقلاء إلى الأبد .

ولكن إذا أنبأنا منبيء بأخبار غيبية وفيرة كثيرة عن أمور عظيمة جلييلة ، ثم توالى الأيام والسنون بل توالى القرون والعصور تكشف عن تحقق جميع أنبائه دون استثناء وحصولها على وجه الدقة والضبط . . إذا حصل هذا أدركنا أنه أمر يفوق طاقة البشر . فمن يستطيع أن يحدد مستقبل الناس أو مستقبل الدول أو مستقبل العالم على وجه الدقة والسداد ؟؟

وقد تحدثنا عن تبرؤ الرسول من علم الغيب علماً ذاتياً^(١) ، فالغيب علم إلهي لا يستطلع أحد كنهه إلا الله الذي خلق الوجود وحدد مساره إلى الأبد . قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾^(٢) .

فكيف يُعقل أن تصيب فيه أحاديث إنسان على الدوام؟! اللهم إلا أن يمنحه الله شرف النبوة وعز الرسالة فيخبر الناس بما أطلع الله عليه وأمره بإبلاغه فيكون ذلك من أروع وأقطع الدلالات على إلهية رسالته . قال الله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾^(٣) .

وإليك طائفة من أخبار الغيب العظيمة في الأحاديث النبوية^(٤) الشريفة التالية :

(١) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » : ص ٢٧٤ - ٢٧٩ .

(٢) سورة النمل : ٦٥ .

(٣) سورة الجن : ٢٦ - ٢٧ .

(٤) أما أخبار الغيب في القرآن العظيم فستطلع على أهمها في الفصل الثاني من الباب الثالث .

١ - إخباره ﷺ فاطمة أنها أول أهله لحاقاً به : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي : مرحباً بابنتي ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله . ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت ، فقلتُ لها : لم تبكين ؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت فقلتُ : ما رأيتُ كالיוםِ فرحاً أقرب من حزن !! فسألتها عما قال ، فقالتُ : ما كنتُ لأفشي سر رسول الله ﷺ ، حتى قبض النبي ﷺ فسألتها فقالت : أسرَّ إليَّ : إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي . فبكيْتُ فقال : أما ترَضِين أن تكوني سيِّدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين !؟ فضحكتُ لذلك » (١) .

وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم . وقد روى النسائي من طريق أبي سلمة عن عائشة أن سبب بكاء فاطمة إخبار الرسول إياها بموته ، وأن سبب ضحكها أنها أول أهله لحاقاً به وأنها سيِّدة نساء أهل الجنة (٢) .

أجل ! إن فاطمة عليها السلام أحب أولاد إمام المتقين إليه ؛ وها هي في ريعان الشباب من العمر ولا يتوقع أحد وفاتها ولكن لم تتجاوز حياتها بعده ستة أشهر حتى التحقت بالرفيق الأعلى ، كما ثبت في الصحيح من حديث عائشة ، فكانت أول أهله لحاقاً به ، كما أنبأها من قبل عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات (٣) ، قال ابن حجر : « وفي الحديث إخباره ﷺ بما سيقع ، فوقع كما قال ، فإنهم - يعني الرواة المؤرخين - اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول من مات من أهل بيت النبي

(١) رواه البخاري : باب علامات النبوة ، وباب مرض النبي ﷺ ووفاته من كتاب المغازي .

(٢) فتح الباري : ج ٨ ص ٩٦ .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة : ج ٤ ص ٣٦٥ - ٣٦٨ .

ﷺ بعده حتى من أزواجه» (١) .

٢ - إخباره عن انتصار الإسلام واستتباب الأمن في الجزيرة العربية :

لقي الرسول ﷺ وأصحابه أمر الأذى والاضطهاد من قريش في مكة قبل الهجرة ، وكانوا قلة قليلة لا يقدرّون على المقاومة وهم في قبضة جبابرة قريش وأتباعهم ، لا يأمنون على أنفسهم من بطشهم في يومهم وغدهم . فضاقوا ذرعاً بهذه الحال وأرادوا أن يسأل الرسول ربه النصر . فأخبرهم صلوات الله عليه عن مستقبل هذا الدين . والمستقبل غيب لا يعرفه إلا الله والذين يطلعهم الله على شيء منه من رسله عليهم السلام .

عن حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً (٢) فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، وَلَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً ، فَقُلْتُ : أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟! فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌ وَجْهَهُ ، فَقَالَ : لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لِيَمْشُطَ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ . وَلَيُتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ (٣) حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ » وَفِي رِوَايَةٍ ثَانِيَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ زَادَ « وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » (٤) .

٣ - إخباره عن دحر المسلمين أعظم امبراطوريتين وإنفاقهم كنوزهما :

وقال النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي : « وَلئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كَنْوَزُ كَسْرَى ، قُلْتُ : كَسْرَى بِنِ هُرْمُزٍ ؟! قَالَ : كَسْرَى بِنِ هِرْمَزٍ .. » (٥) .

(١) فتح الباري : ج ٨ ص ٩٦ وعمدة القاري ج ١٦ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) « البردة » : الشملة المخططة .

(٣) « ليتمن الله هذا الأمر » : سينصر الله هذا الدين حتى يؤمن به الناس في الآفاق .

(٤) رواه البخاري : باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة ، وباب علامات النبوة .

(٥) رواه البخاري في باب علامات النبوة . وذكرته بتمامه في كتاب : « نبوة محمد ﷺ في

القرآن » : ص ٢٤٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفس محمد بيده لئن تفقن كنوزهما في سبيل الله » (١) .

وقد هزم الصحابة ومن معهم من المؤمنين جيوش كسرى بالعراق وقيصر بالشام . ودحروهما عن تلك البلاد ولم يخلفهما أحد بعدهما على تلك البلاد . وافتتحوا كنوزهما فأنفقها المسلمون في سبيل الله عز وجل (٢) وما زال المسلمون حتى قوضوا دعائم أعظم امبراطوريتين ملكتا العالم ردحاً من الزمن ، ثم هيمنوا على العالم بأسره .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى (٣) لي الأرض ، فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . . . » (٤) .

هذه باقة عظيمة رائعة من أنباء الرسول الأعظم ﷺ عن غيب المستقبل ، ولا يتسع المقام لتقصي أهم أنبائه الغيبية فضلاً عن استيعابها جميعاً . وقد ذكرنا طرفاً هاماً منها مع التحليل المناسب في كتاب « نبوة محمد ﷺ في القرآن » (٥) وقد تجلّى لك أن هذه الأنباء الغيبية ؛ وقد تحققت كما أنبأ وأخبر على وجه الدقة والسداد ؛ لتؤكد صلة محمد ﷺ بالله جلّ جلاله وترسي دعائم اليقين بنبوته .

(١) رواه البخاري : باب علامات النبوة .

(٢) فتح الباري : ج ٦ ص ٤٠٧ .

(٣) زوى لي الأرض : جمعها وطواها . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر .

(٤) رواه مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . ورواه الترمذي - كتاب الفتن - باب ما جاء في سؤال النبي ثلاثاً في أمته . ورواه أبو داود - كتاب

الفتن - باب ذكر الفتن ودلائلها .

(٥) ارجع إليه : ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

اليقين بمعجزاته ﷺ

لا تخفى على من تتبع سيرة الرسول الأعظم ؛ روعة معجزاته ﷺ فهي كثيرة ومتنوعة ، بل هي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ، كما قال ابن تيمية وغيره . وذكر النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم أن معجزات نبينا ﷺ تزيد على ألفٍ ومائتين . وقال بعض العلماء : إنها ثلاثة آلاف معجزة - يعني غير القرآن ، فإن فيه ستين أو سبعين ألفاً من المعجزات تقريباً - وقد اعتنى بجمعها فحول من الأئمة كأبي نعيم والبيهقي وغيرهما (١) .

وشهير لدى المثقفين المسلمين أن القرآن قطعي الثبوت ، فقد نُقل إلينا بطريق التواتر ، لكن معجزات الرسول الأخرى صنفان ، معجزات وصلت إلينا بطريق التواتر مما يورث اليقين بجريانها على يده عليه الصلاة والسلام ؛ كمعجزة انشقاق القمر وكثبوت نبع الماء من بين أصابعه بالتواتر المعنوي . . والصنف الثاني من معجزاته قد نُقل إلينا بطرق أحادية . وهذا شأن الكثير من معجزاته عليه الصلاة والسلام . لكننا لما رأينا كثرة هذه الروايات أفادتنا بجملتها علماً يقيناً بوقوع خارق للعادة منه ﷺ . فإن تلك الروايات وإن كانت أحادية في أفرادها فإنَّ قدرها كبيراً منها يحصل به التواتر المعنوي على ظهور أمر معجز منه ﷺ (٢) لأن تلك الروايات

(١) فتح الباري : ج ٦ ص ٣٧٦ ولوائح الأنوار البهية : ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) إعجاز القرآن : ص ٨ لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي المتوفي سنة ٤٠٣ . طبع دار

المعارف بمصر ١٩٦٣ .

الكثيرة على الرغم من تفاوتها فإنها ملتبقة جميعاً على إثبات حصول المعجزة على يده ﷺ كثيراً . ولا ريب أنه إثبات قطعي .

قال ابن حجر رحمه الله في مفاد روايات المعجزات الأحادية :
(ومجموع ذلك يفيد القطع « اليقين » بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير ، كما يُقطع بوجود جود حاتم وشجاعة علي ، وإن كانت افراد ذلك ظنية وردت مورد الأحاد . . مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجسم الغفير ، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالأثار والعناية بالسير والأخبار ، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك . بل لو ادعى مدّع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً ، إذ لا مزية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة ، ولا يُحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هنالك ، فيكون الساكت منهم كالناطق لأن مجموعهم محفوظ من الاغضاء على الباطل)^(١) .

فاليقين بمعجزاته يقين بنبوته ﷺ ، وهكذا تتضافر دلالات معجزاته الحسية والعقلية على امتداد الأعصر في إقامة قاطع الأدلة على صدقه ونبوته ﷺ . وإن سائر دلائل النبوة المحمدية الباهرة ومعالمها الساطعة ، بدءاً من أخلاقه العظيمة إلى أميته وعصمته عن المعاصي وتبشير الكتب السماوية ببعثه^(٢) . . . لتتعاقد جميعاً مع معجزاته وتوطّد في الفكر الانساني السويّ والوجدان الحيّ أركان اليقين بنبوته وإلهية رسالته .

(١) فتح الباري : ج ٦ ص ٣٧٦ .

(٢) قدمت تبيان هذه المعالم النبوية وغيرها بدراسة قرآنية موضوعية فريدة في كتابي : « نبوة محمد ﷺ في القرآن » .

دلالة المعجزة

وقد درستُ دلالتها من جميع الجوانب ونَسَقْتُها على النحو التالي :

أ - دلالة المعجزة في القرآن :

لما أنعم الله على عباده ببعث النبيين والرسول فيهم ؛ أتم نعمته عليهم فمَنَحَهُم بمقتضى حكمته أدلة ساطعة تدلهم على الحق في دعوى الرسل ، لينكشف لهم يقيناً أنها رسالات إلهية منيرة . وكان من أهم هذه الدلائل : المعجزات . فإن العاقل إذا علم بالمعجزة ؛ أو شاهدها تجري على يد النبي خارقة سنن الطبيعة وخواص المادة - وهو يتحدى بها الثقيلين تحدياً يثقل كواهلهم ويكشف عجزهم - علم يقيناً أنها أعظم بكثير من نتاج قدرة الخلائق وأنها لا محالة من رب العالمين خالق السماوات والأرض ، وأنه تعالى ما أجزاها على هذا النحو المثير المدهش المعجز إلا توثيقاً لرسالته وشهادة لنبيه . فهي بمثابة قوله تعالى لعباده : صدق عبدي فيما يبلغ عني فأمنوا به واتبعوه وآزره .

وإذا تتبعت آيات القرآن المجيد تجد أن المولى تبارك وتعالى قد سمى المعجزات : آيات وبيّنات وبراهين - كما أسلفنا - وعبر عنها أيضاً بأنها : آيات بيّنات . ولما أطلق القرآن كلاً من هذه الألفاظ على المعجزة أفادنا أن المعجزة تقطع دابر الظن وتمنح العقلاء علماً وثيقاً بصدق المرسلين وإلهية رسالاتهم . وقد تفصّيت هذه الألفاظ في الكتاب المبين ، وأبرزت دلالتها في الدراسة التالية :

أما التعبير عن المعجزة بالآية فكثير جداً في القرآن المبين . منه قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى إذ أجرى على يده إبراء الأكمه والأبرص^(١)

(١) « الأكمه » : الأعمى منذ ولادته « الأبرص » : المصاب بالبرص وهو مرض جلدي .

ونفخ روح الحياة في طير من الطين : ﴿ .. أني قد جئتكم بأية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله . . . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾^(١) وأما الحجة الفاصلة لسيدنا صالح عليه السلام على قومه ثمود فمعجزة خلق الناقة في باطن الصخر الأصم . قال تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية . . . ﴾^(٢) وقال تعالى عن معجزات سيدنا موسى : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾^(٣) .

ولفظ « الآية » في اللغة بمعنى : العلامة والعبارة . أما لدى إطلاقه على المعجزة فيكون بمعنى العلامة الدالة على صدق الرسول . قال الراغب الأصفهاني : (والآية هي العلامة الظاهرة . وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره . فمتى أدرك مُدْرِكُ الظاهرَ منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته ، إذ كان حكمهما سواء ، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات)^(٤) .

ولولا أن المعجزة تفيد علماً حقيقياً بصدق الرسول لما أسماها الله آية . كيف لا وقد جعل الآية « بمعناها العام » سبيلاً محتملاً للوصول إلى الحقيقة لمن أرادها من أهل التفكير والتذكر والتعقل والسمع الواعي !!؟؟
 ألا ترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ ﴿ إن

(١) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة النمل : ١٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني . وانظر لسان العرب في مادة (أي) .

في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴿١﴾ .

كما عبّر القرآن المبين عن المعجزة بالبينة في قوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربكم هذه ناقةُ الله لكم آيةٌ ﴾ (٢) وبعد أن ذكر الله المعجزات التي أُيد بها عيسى امتنَّ الله عليه بقوله : ﴿ . . . وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيلَ عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ (٣) وأكد تعالى أنه أُيد المرسلين بالمعجزات الظاهرة التي تبين لهم طريق الهداية الأقوم فهي بينات ، قال تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كَذَّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزُبرِ وبالكتابِ المنير ﴾ (٤) .

وأصل « البَيِّنَة » في اللغة : بَانَ الشيء بياناً فهو بَيِّنٌ ، واستبان وتَبَيَّنَ : ظهر واتضح . ومنه قوله تعالى ﴿ حم والكتابِ المبين ﴾ يعني الكتابِ البَيِّن ، وقيل : المراد بالمبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان كل ما تحتاج إليه الإنسانية . فالبيِّن والمبين : اسم لما ظهر في نفسه وأظهر غيره . و « البينات » جمع بَيِّنَة ، وهي الأدلة والبراهين التي هي بينة في نفسها ويتبين بها غيرها (٥) .

قال الراغب الأصفهاني : (والبيِّنَة : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة . وسُمي الشاهدان : بينة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « البَيِّنَةُ على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر ») (٦) .

وقد أكد القرآن تأكيداً متضافراً أن المعجزات تفيض على الأفئدة

(١) سورة النحل : (١١ و ٦٩) و ١٣ و ٦٥ و ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة المائدة : ١١٠ .

(٤) سورة فاطر : ٢٥ وانظر آل عمران : ١٨٤ .

(٥) لسان العرب والقاموس المحيط : مادة (بين) والنوبات : ص ١٥١ .

(٦) المفردات في غريب القرآن : مادة « بين » .

علماً مكيئناً بنبوة أصحابها المرسلين ، إذ عبّر الله عنها جلّت حكمته بأنها : « آيات بينات » فقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعونُ إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائرٍ وإني لأظنك يا فرعونُ مَثْبُوراً ﴾ (١) وعبر القرآن المجيد عن كل معجزة لسيد الرسل بأنها : « آية بينة » فقال تعالى : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة . ومن يُبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ (٢) أمر الله رسوله الكريم وكلاً من أتباعه الدعاة المهديين أن يُقرّعوا اليهود بهذا السؤال لا استجواباً لهم ، وإنما توبيخاً على طغيانهم وجحودهم رسالة محمد ﷺ بعد اطلاعهم على دلائلها الباهرة ﴿ كم آتيناهم من آية بينة ﴾ أي علامة ظاهرة ، وهي المعجزات كما قال الحسن ومجاهد .

ولكن لماذا خصّ الله بالخطاب بني إسرائيل مع أن المعجزات عامة للجميع ؟

لا ريب أنهم أعلم بالمعجزات من غيرهم ودلالاتها على الصدق ، فإنهم عهدوها على أيدي أنبيائهم . فوجب أن يكونوا أسبق الناس للتسليم والإيمان . وقد حذرهم المولى من تأويل المعجزات تأويلاً زائغاً ومن تمحل الأعذار لرفض دلالتها . فإنها نعمٌ جلييلة من الله لعباده ، لكونها أسباب هدايتهم . فمن حرّف مغزاها بعد أن عقلها فقد أتى جرماً شنيعاً يستحق به أهوال العقاب الشديد : ﴿ فَمَنْ يُبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ (٣) .

(١) سورة الإسراء : ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢١١ .

(٣) انظر روح المعاني : ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ - وهذا هو التفسير الراجح في نظرنا ؛ فإن بني =

فلولا أن المعجزات تزيل ممن يتأملها الظن والاحتمال وتفيده علم اليقين بصدق المرسلين لما ذمَّ الله جاحديها بما ذمَّهم به في القرآن ولا توعدهم بشديد العقاب في جملة ما توعدهم .

وعبَّر الله في الذكر الحكيم عن المعجزة بأنها : « برهان » فقال في معجزتيَّ اليد والعصا لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (١) .

قال الراغب الأصفهاني : (البرهان بيان للحجة . . . فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً ، لا محالة) .

وأنزل الله المعجزة وضاءة تبدد ظلمات الجهالة وتفتح الأحداق على الحقيقة ، لذلك وصفها جلَّ شأنه بأنها : مبصرة ، فقال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة . . . ﴾ (٢) . وقال على لسان موسى يصف معجزاته وصفاً يبين وظيفتها في الناس : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر . . . ﴾ (٣) .

فالمعجزة - كما جلاها القرآن الكريم - ترسي في الفكر والفؤاد دعائم اليقين بصدق عباد الله المرسلين ، وتُلزم العقلاء بالإذعان والإيمان . ولا يصدر ذلك عنهم إلا تجاوباً مع ما في أعماق فطرهم الإنسانية السليمة . وليس أدل على ذلك من موقف السحرة خصوم سيدنا

= إسرائيل إنما عهدوا من أنبيائهم المعجزات ، وعليها كان التعويل في هدايتهم لا على البيان العقلي المنير . لذا فإن من الحكمة خطابهم بما يفهمهم . وإذا صح جعلها عامة في المعجزات والآيات القرآنية، فإن من المرجح تخصيصها بالآيات القرآنية وحدها ، لأنه تخصيص بغير مخصص .

(١) انظر سورة القصص : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٢ .

موسى وأعوان عدوه المتجبر المتأله فرعون ، فإنهم لما ابتلعت عصا موسى ثعابين سحرهم أفاضت على نفوسهم علم اليقين ، ولم يتمالكوا أفئدتهم أن تهوي بهم دفعة واحدة إلى أحضان الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . . ﴾^(١) .

وأنت تلاحظ أنه تعالى عبر عن جريان المعجزة بقوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ وعن إدراك السحرة لدلالاتها : ﴿ فألقى السحرة ساجدين . . ﴾ ولما هددهم الطاغية بتعذيب مرير ، يقطع فيه أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم في جذوع النخل لم يُثنهم تهديده عن التثبيت بيقينهم ، بل اشتد ثباتهم وعظمت بسالتهم وتضحيتهم : ﴿ قالوا لن نُؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاضٍ ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا . . . ﴾^(٢) .

ومنح الله عباده حماية من الإضلال ، فحال بين المعجزة وبين الأدعاء الكذابين المضللين . فالمعجزة ؛ وهي علم الصدق ؛ قد خص الله بها النبيين والمرسلين فلم يمنحها الله أحداً سواهم . وإذا استعرضت جميع المراحل الدينية في تاريخ الإنسانية وجدت كافة السحرة والمشعبذين الطامعين في مقام النبوة قد أخفقوا في تثبيت مزاعمهم وافتضح دجلهم وتزييفهم ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطْلِغَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٣) ، فقد تعهد الله جل شأنه بحكمته وعدله أن يصون رسالاته عن كل دخيل . قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل

(١) سورة الأعراف : ١١٧ - ١٢٢ .

(٢) سورة طه : ٧٢ - ٧٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٨ .

لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴿١﴾ .

فجعل النكال العاجل رسداً لمن يتقول شيئاً في الرسالة الإلهية . فكيف بمن يتقول على الله ما لم ينزل به سلطاناً فيفتري رسالة بأكملها ؟؟! لا جرم أنه محل نقمة إلهية أعظم ! فلا يعقل أبداً أن يؤيده الله بمعجزة من المعجزات (٢) .

ب - دلالة المعجزة في الحديث :

وطريق القرآن فيها الهدى والنور وشفاء الصدور . وقد سلك سيدنا محمد ﷺ طريق القرآن في الاستدلال بالمعجزة على صدقه في رسالته ، فأفادت أحاديثه أن المعجزة علمُ الصدق لدى العقلاء .

روى الإمام مسلم أنه (لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا (٣) فأكلنا وادّهنا . فقال رسول الله ﷺ : افعلوا . فجاء عمر فقال : يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر . ولكن ادعهم بفضل أزوادهم (٤) . ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله يجعل في ذلك . فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فدعا ينطع (٥) فبسطه . ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة . قال : ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير . قال : فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال : خذوا في أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في

(١) سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٥ والوتين : نياط القلب ، فإذا انقطع مات صاحبه .

(٢) انظر نبوة محمد ﷺ في القرآن : ص ٢٥٥ و ٢٧٨ .

(٣) « النواضح » جمع ناضح : البعير .

(٤) « فضل أزوادهم » : ما بقي لديهم من الأطعمة التي تزودوا بها للسفر .

(٥) « النطع » : بساط من الجلد .

العسكر وعاء إلا ملأوه . قال : وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة . فقال رسول الله ﷺ :

أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقي الله بهما عبد غير شك فيحجب عن الجنة (١) .

وروى الإمام البخاري نحوه بسند ثان وفيه أنهم بعد أن ملأوا أوعيتهم وظهرت لهم المعجزة ، خاطبهم الرسول ﷺ قائلاً : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » (٢) .

كما نبه الرسول ﷺ إلى دلالة المعجزة على صدقه في ختام حديث جابر بن عبد الله إذ قضى أبوه نحبه يوم أحدٍ شهيداً . فخلف ست بنات وترك ديناً عليه . وقد أفادت روايات أنه لليهودي . ويبدو أن معظمه كان لهذا اليهودي ، وقد رفض إمهال جابر لعام واحد في نصف دينه فقط !! قال جابر : (فاشتد الغرماء في حقوقهم ، فأتيت رسول الله ﷺ ، فكلمته . فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي ، فأبوا ، فلم يعطهم رسول الله ﷺ حائطي ولم يكسره لهم . ولكن قال : سأغدو عليك . فغدا علينا حين أصبح ، فطاف في النخل ودعا في ثمره بالبركة . فجددتها (٣) فقضيتهم حقوقهم . وبقي لنا من ثمرها بقية . ثم جئت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ لعمر - وهو جالس - : اسمع يا عمر ! فقال عمر : أن لا يكون ! قد علمنا أنك رسول الله .

(١) رواه مسلم - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً - ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) رواه البخاري - صحيح البخاري - كتاب الشركة - باب الشركة في الطعام والنهد والعروض - ج ٣ ص ١٠٩ - وكتاب الجهاد - باب حمل الزاد في الغزو - ج ٤ - ص ١٣ - ١٤ .

(٣) « جددتها » : قطفت ثمارها .

والله إنك لرسول الله (١) .

وإذا كانت المعجزة علم الصدق على رسالة النبي ﷺ ، كانت إعلماً من الله للناس بنبوته . وتدلهم بالتالي على تكليف الله إياهم بطاعة رسوله واتباع شريعته . ففائدتها الإعلام والإلزام (٢) .

ج - دلالة المعجزة لدى علماء الكلام :

أطبقت جماهير علماء المسلمين على أن المعجزة علم الصدق . فجميع آيات الأنبياء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة ، كما رأى أبو المعالي والرازي وغيرهما . ويصح أن يقال : إنها تفيد صدق الرسول بالنظر والاستدلال ، حسب رأي الكعبي وأبي الحسين البصري وأبي الخطاب (٣) . فالمعجزة تُعلمنا صدق الرسول علماً ضرورياً أو علماً نظرياً . والتحقق أن كلا القولين حق . ونبين ذلك فيما يلي :

(١) رواه البخاري - صحيح البخاري - كتاب الهبة - باب إذا وهب ديناً على رجل - ج ٣ ص ١٣٨ . ورواه بنحوه في كتاب الأطعمة - باب الرطب والتمر - ج ٦ ص ٢١١ . وفي كتاب الاستقراض - باب إذا قضى دون حقه أو حلله فهو جائز - وباب إذا قاص أو جازفه في الدين تمرأ بتمر أو غيره - ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وذكر ابن تيمية أن الله تعالى قد يريد بالمعجزة تكريم نبيه أو تخويف عباده . انظر النبوات : ص ١٥٩ ، ١٣٨ ، ٢٨٢ .

(٣) النبوات : ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ والأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ - ٣٢٤ . وتفصيل أقوال العلماء : أن المعجزة دلت على الصدق دلالة عقلية عند بعضهم . ودلت دلالة وضعية عند البعض الآخر . ورأى آخرون أنها دلت على الصدق دلالة عادية : « يعني أن عادة الله جرت بخلق العلم بصدق الرسل عقب ظهور المعجزة فإنه لا يجريها إلا على يد صادق ، ويفضح الكاذب إذا حاولها » وقد مضى الشيخ محمود أبو ديقة إلى أنه يصح أن تكون دلالة المعجزة عقلية ووضعية وعادية في آن واحد . وقد خرج ذلك تخريجاً حسناً (انظر شرح المواقف : ج ٨ ص ٢٨٢ - ٢٣٠ ومذكرات التوحيد لطلاب السنة الرابعة في كلية أصول الدين بالأزهر : ص ١٢ . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٠) .

إن المعجزة تجري على يد كل من رسل الله موافقة لدعواه ، ويعجز عنها الخلق على نحو يفضح قصور قدراتهم عن معارضتها إلى الأبد ، مما يثبت بالضرورة أن الله قد خلقها عقيب دعوى الرسالة تصديقاً لرسوله . فتخصيص الله رسوله من بين سائر الناس بإظهار المعجز على يده يدل بالضرورة على صدقه وأن الله قد خصه برسالته إلى عباده^(١) .

فمن الناس من يدرك إفادة المعجز صدق الرسول بالضرورة . ولكن آخرون يحتاجون لاستفادة صدق الرسول منها إلى النظر والاستدلال حتى يتبين لهم أن المعجزة تستلزم صدق الرسول : وأن الحكم بصدقه لازم للمعجزة . وذلك بأن ينظر إلى عجز الخلق عن معارضة المعجزة فيعلم أنها من الخالق جل شأنه ، وأنه تعالى حكيم عادل ، فلا تقبل حكمته أن يمنح الكاذب تأييداً خاصاً يعينه على إضلال البشر . بل مقتضى الحكمة الإلهية الجليلة أن يمنح الله الرسول برهاناً خاصاً على صدقه - وهو المعجزة - تثبيتاً لقلوب العباد على الاعتصام بهداية الله .

وكثير من الناس يثبت عندهم صدق المخبر - أي مخبر - أو كذبه بالضرورة ؛ لقرائن أحواله أو قرائن خبره أو بسببهما معاً . فإن رسول الله موسى بن عمران لما قام في مصر بدعوته وأعلم هارون وغيره برسالته صدقوه قبل أن يظهر لهم الآيات . كما صدقه أخوه هارون عندما أخبره أن الله يأمره أن يؤازره في نشر رسالته ، وذلك لما يعلم من استقرار حال موسى قديماً على الصدق والاستقامة وفضائل الأخلاق ، ولما رأى من

(١) وقد مثَّل الرازي والأيجي وغيرهما مثلاً لتفهم إفادة المعجز الصدق ضرورة ، فقالوا : إذا جلس الملك على سرير مملكته فقام واحد وقال : اني رسول هذا الملك إلى شعبه . ثم قال : أيها الملك ! إن كنت صادقاً في دعواي هذه فافعل ما يخالف عادتك . فإذا فعل الملك في تلك الساعة فعلاً يخالف عادته علم الحاضرون بالضرورة أنه إنما فعل ذلك لتصديق رسوله (انظر الأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ و ٣٢٤ وشرح المواقف : ج ٨ ص ٢٢٩) .

سمو حاله - حين دعاه - سمواً دالاً على صدقه^(١) .

استفاد ورقة بن نوفل من أحوال سيدنا رسول الله ﷺ ومما جرى له ، صدقه بالضرورة فقال : (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ! قال رسول الله ﷺ : أو مُخرجي هم !!؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ)^(٢) .

وانشقاق القمر لمحمد عليه الصلاة والسلام نصفين ؛ بعد إعلان الرسالة ؛ أفاد علماً ضرورياً أن الله تعالى قدشقه إثباتاً لصدقه في دعوى الرسالة . ومن صدقه الله فهو صادق^(٣) . وكذلك شأن جميع المعجزات .

واستفاد النجاشي العلم الضروري بصدق رسول الله ﷺ لما سمع القرآن . فقال : (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة)^(٤) .

وعلم أبو بكر الصديق وزيد بن حارثة صدق رسول الله علماً ضرورياً مما تلاه عليهم ومن سابق أحواله المستقرة على الصدق والأمانة . .

وإذا كان المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة . فكيف بمن كان ثابتاً أنه أصدق الناس !!؟؟ وإذا كان العلم بصدقه من غير آية علماً ضرورياً ، فكيف إذا جاءت المعجزة علامة على صدقه تساند دلائل أحواله وقرائن خبره .

(١) انظر النبوات : ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(٢) رواه البخاري : باب بدء الوحي : ج ١ ص ٣ . والحديث بتمامه في كتابي « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ١٨٥ - ١٨٨ .

(٣) الأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١ : ٢٠٣) و (٥ : ٢٩١) .

وزيدة القول : إن الأدلة النظرية لا بد أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية . وإن الأدلة النظرية للمعجزة تفيد العلم اليقيني بصدق الرسول ، فتأتي موافقة لما ثبت بالضرورة . فلا تنافي بين القولين (١) .

د - معجزة نبي من الأنبياء تدل على صدق سائرهم :

إن المعجزة تفيد علماً ضرورياً بصدق المخبر بها وتستلزم ثبوت نبوته وبالتالي فهي تستلزم كذب كل نافٍ للنبوة . ويمتنع وجود المعجزة مع انتفاء النبوة في كل كذاب أشر ، فهذا أمر عقلي مقطوع به معلوم بالبديهة .

وإثبات نبوة نبي إثبات لجنس النبوة ولصدق جميع الأنبياء ، فإنهم جميعاً متميزون عن غيرهم بتلك الآيات والدلائل الدالة على صدقهم ؛ التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم . وإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ويشتر بعضهم ببعض . فأية كل نبي آية لجميع الأنبياء ، فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما ممن أخبر بنبوة محمد ﷺ فهو بآن واحد آيات لهم دالة على صدقهم وآيات لهم لمحمد ﷺ دالة على نبوته نظراً لاخبارهم بها . وما أتى به محمد ﷺ من الآيات فهو دليل على إثبات جنس النبوة وصدق جميع الأنبياء الذين سماهم القرآن الكريم كتاباً الله تبارك وتعالى .

هـ - امتداد دلالة المعجزة على مر الزمان :

عرفت أن المعجزة دليل قطعي على صدق الرسول لدى كافة من شهدها . ولكن هل تدل المعجزة الذين لم يشهدوها على نبوة صاحبها ؟ بلى ! إن المعجزة من أعظم براهين النبوة حتى للذين لم يروها في زمان النبي أو الذين جاؤوا من بعدهم في الأزمنة المتتابة . ألا ترى أنهم إذا سمعوا بخبرها متواتراً عن أناس من مشاهديها بلغوا درجة من الكثرة يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب ، وكان ذلك شأن كل طبقة من

(١) انظر النبوات : ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

طبقات رواة الخبر ، ألا ترى أن ذلك التواتر يفيدهم علماً يقيناً بوجود ذلك النبي وصدقه؟! فإنهم بهذا العلم الضروري - الذي لا يتطرق إليه الشك - بمنزلة المشاهدين لمعجزات النبي بأنفسهم . ونضرب لحصول العلم الضروري بالتواتر مثلاً ، فنقول : نحن نرى أن أناساً كثيرين من بلدان مختلفة مع تباعد بلادهم وتباين أخلاقهم متفقون على الأخبار بوجود بلد إسلامي اسمها (بخارى) فحصل لنا العلم القطعي - الذي لا يحتمل الشك - بوجود تلك المدينة على الرغم من أننا لم نرها^(١) .

وكذلك نقل إلينا رواة الأمة الإسلامية جيلاً عن جيل حتى جيل محمد ﷺ - مما يجعل اتفاقهم على الكذب محالاً في العقل - أنهم سمعوه يعلن أنه رسول الله إلى الناس كافة ، وشاهدوا معجزات كثيرة أجراها الله على يديه ، كما تلقنوا منه القرآن الكريم كتاب الله تعالى المنزل عليه . وهو المعجزة التي تحدى الله بها الأولين والآخرين ؛ إنهم وجنهم على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فلم تزل معجزة القرآن ماثلة ، والبشرية تتحاشى معارضتها عجزاً وقصوراً .

وهكذا فإن معجزات محمد ﷺ التي غيبتها عن أنظارنا صفحات الزمن ؛ ومعجزات القرآن الماثلة على مر الزمان ؛ قد أقامت جميعاً أبلغ الأدلة وأقطعها على أنه رسول الله الأمين حقاً وصدقاً ﷺ .

وإذا أخبر أحد الصالحين بنبوة نبيه وأظهر الله على يده الكرامة تدل على صدق إخباره ، كان ذلك من دلائل النبوة . وقد وجد هذا لخلق كثير من الصالحين من أتباع الأنبياء من النفر الذين أطاعوا ربهم وتحققوا بأوامر دينهم وجاهدوا عنه ونشروه بين الناس ، كأصحاب محمد ﷺ والتابعين وكثير من صلحاء المؤمنين إلى زماننا . ووجه دلالة كراماتهم على صدق

(١) الأربعين في أصول الدين : ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

نبيهم أنهم آمنوا به ودعوا الناس إلى دينه وبينوا لهم أن ما يجريه الله على أيديهم إنما حصل بسبب إيمانهم وتصديقهم . فيكون ذلك دليلاً قاطعاً على صدق المخبر وبالتالي على نبوة نبيه ، بل كون علامة الصدق تظهر على غير النبي من المؤمنين به أبلغ في الدلالة على نبوة ذلك النبي وصدقه فيما بلغ عن ربه تبارك وتعالى . ولهذا كان من أعظم آيات النبي إخبار غيره من الأنبياء بنبوته^(١) .

(١) النبوات : ٢٠٠ و ٢٥٧ .

تَطَلُّبُ المعجزات

تضايق أعداء الرسل من انكشاف زيف عقائدهم وهيمنة العقيدة الإلهية بسُلطان الحق القاهر . فحاصوا حيصة حُمر الوحش ليخرجوا من الحصار المحكم الذي ضربته حولهم الدلائل المفحمة والخوارق المعجزة التي أيد الله بها المرسلين . لقد أبلست زعماء الشرك دعوة سيد الرسل محمد ﷺ ، فأسقط في أيديهم ولم يجدوا لأنفسهم مندوحة عن التسليم لها إلا بالتشبيث بمطالب سمجة متتابعة ، يكون عدم تلبيتها في نظرهم علة لانصرافهم عن هدي الله ورسوله .

فعولتُ على تقصي تطلبات المشركين ومقترحاتهم ؛ واستطلاع أسلوب القرآن الحكيم في حجاجهم وإفحامهم وعرضت زبدة دراستي فيما يلي :

(عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يُنحي الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له (٢) : إن شئت أن نستأني بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم ، قال : لا ، بل استأني بهم . وأنزل الله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا

(١) « فقيل له » : أوحى الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام .

ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نُرسلُ بالآياتِ إلاَّ تخويفاً ﴿١﴾ .

لقد أبى الله ؛ وهو الحكيم في تدييره الخبير بعباده ؛ أن يُلبى مطالب قريش ، فقد تذرعوها بالمطالبة ببعض المعجزات المادية ، رفضاً للإيمان ودلائله الكثيرة المتنوعة ، فلم يُجرها الله لهم ، فقد رأوا معجزات كثيرة قبل أن يتكلفوا المطالبة بتحويل جبل الصفا ذهباً ؛ وبتنحية الجبال عن محيط مكة حتى تصير سهولاً خصيبة . وكان في امتناع الله جلت حكمته عن الاستجابة لهم رحمةً عظيمة بهم . فإنهم في حال عناد وتعنت لوجاءتهم فيه المعجزات التي اقترحوها ، كما جاءت إلى مَنْ كان على شاكلتهم من الأمم السابقة ، لكذبوا بها وأمعنوا في اللجاج بالباطل واقترح مزيد من الآيات . وفي هذا الاستخفاف بآيات الله ما يستنزل نقمة العزيز الجبار عليهم فيهلكهم كما أهلك مَنْ قبلهم ﴿ وما منعنا أن نُرسلُ بالآياتِ إلاَّ أنْ كَذَّبَ بها الأولون ﴾ وليس من مانع له تعالى عن فعل ما يشاء إلاَّ أن ينصرف عنه بإرادته ؛ حكمةً منه في نشر دينه ورحمةً بخلقه . لكنه ابتغى بقوله ﴿ وما منعنا ﴾ المبالغة في التعبير عن إباطه هذا الإرسال حتى جعله كالممنوع بالنسبة إليه (٢) . ثم أورد تعالى نموذجاً عن الأمم التي أحاطها بنكاله لعنادها واستخفافها بعد إجابة الله مطالبها وظهور الحق وانقضاء فترة التأمل والاعتذار ، فقال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ لقد سأل ثمود نبيهم صالحاً أن يُخرج لهم ناقة من صخرة عينوها . فاستجاب الله دعاء سيدنا صالح فلبى طلبهم ومنحهم من باطن هذه الصخرة الصماء تلك الناقة العجيبة . فكانت آية

(١) روى الحديث الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم . وانظر المسند

ج ١ ص ٢٥٨ والآية في سورة الاسراء : ٥٩ . وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧

وروح المعاني ج ١٥ ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) نقل الألوسي : أن المنع هنا مستعار للصراف .

مضيئة ومعجزة مبينة دالة على رسالة صالح عليه الصلاة والسلام وعلى قدرة الله الذي بعثه إليهم . ﴿ فظلموا بها ﴾ : فكفروا بها وجحدوا أنها آية لهم من الله تثبتاً لرسالة رسوله . وهذا النكران حملهم على التفلت من العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالحفاظ عليها وعلى حقها بشرب المياه واجترؤوا فقتلوا ، قال تعالى على لسان صالح : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ (١) . فأرسل الله عليهم صيحة رهيبة تُقطع نياط القلوب فاستأصلهم جميعاً : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود ﴾ (٢) . وهكذا كانت عاقبة عنادهم واقتراحهم معجزات خاصة فإن قلوبهم المقفلة لم تفتح لها لأنهم ما طلبوها تثبتاً واسترشاداً ولكن جحدوا ومعاجزة وعناداً .

﴿ وما نرسلُ بالآياتِ إلا تخويفاً ﴾ والمراد بالآيات هنا حسبما يدل السياق : الآيات المقترحة . إذ يتطلبها من ركب رأسه وصمم على الجحود والنكران ، فلا يتعظ ولا يعتبر ولا يهتدي بالمعجزات التي أيد الله بها رسوله أولاً ، بل يمعن في حرب الحق بهذا النمط من المعاجزة والتعنت . فإذا استجاب الله لهم فلجوا في طغيانهم لزمهم العقاب الذي يجعلهم عبرة لأولي الأبصار ، فكان في هذه الآية ردع رهيب للمتمادين القرشيين ، يخيفهم من مصائر الأقبام السابقين ، ويميط عن العقول غشاوات التحجر والكفران ، ويزيل عن الأفئدة والضمائر صداً التعنت والعناد ؛ معرفة للحق وانشراحاً للإيمان (٣) .

(١) و (٢) سورة هود : ٦٤ - ٦٥ و ٦٧ - ٦٨ .

(٣) انظر تفسير الآية في : الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي : ج ١٠ ص ٢٨١ وتفسير القرآن

العظيم - لابن كثير : ج ٣ ص ٤٧ - ٤٨ - وروح المعاني - للألوسي : ج ١٥ ص ٩٥ - ٩٧ .

تعنت آخر وإصرار على التكذيب :

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمّية بن خلف وأناساً آخرين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه حتى تُعذروا فيه فبعثوا إليه فجاءهم صلى الله تعالى عليه وسلم سريعاً وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بداء . وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم حتى جلس إليهم « فاشتكوا مما قام به الرسول من انتقاص دينهم وتسفيه عقولهم وعقول آبائهم ومهاجمة آلهتهم . وعرضوا عليه أن يكف عنهم فيعطوه مالاً وفيراً حتى يصير أغناهم ، أو يجعلوه سيّداً عليهم لا يخالفونه في إبرام أمورهم ، أو يُنصبوه ملكاً عليهم . وهنا تحلّت براءة دعوته ﷺ عن الأغراض الشخصية والمطامح الذاتية إذ أعرض عن كل مغرياتهم التي يتفانى كبراء الناس في السعي لنيلها في كل زمان . فإن قضيته ليست إلا دعوة إلهية خالصة »^(١) فقالوا : يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك . فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لنا ربك الذي بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا وليسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً دوقاً ، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من عند

(١) هذا معنى طرف من الحوار الذي دار بينهم .

الله بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » . . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله وملائكته قبلاً .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب . فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب . فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك

أنك كما تقول : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ .

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباحدتهم إياه^(١) .

فوبخهم الله على تماديهم في ضلالهم وإمعانهم في مطالب سخفهم وإعراضهم عن حقيقة أمر الرسول وطبيعة مهمته . فأنزل تعالى :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيلٍ وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً »^(٢) .

تلك مطالب القوم من رسولهم : فجر في أرض مكة عيوناً غزيرة دافقة . واستغن عن الناس بغنى واسع ؛ بجنات من نخيل وأعناب تشعب فيها أنهار متفجرة هادرة .

وأنت ترى معي أن هذه المطالب انعكاس لعقلية الجاهليين المادية الجامدة ، وقد تجافت عن البراهين المنطقية القويمة ، وأقبلت بلهفة على الهالات الدنيوية تعتمدها وتعتر بها شأن الزعماء المبطلين والجهلة الغافلين الذين اغتروا بزخرف الحياة الدنيا وزينتها ، فملك عليهم أبوابهم وعبثت بمفاهيمهم وقيمهم حتى حملتهم على تقديس

(١) تفسير الطبري ج ١٥ ص ١١٠ - ١١١ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٢ - ٦٤ وروح المعاني ج ١٥ ص ١٥٥ - ١٥٨ والآية من سورة الاسراء : ٩٠ - ٩٣ وانظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ٦٩ و ١٣٧ و ١٧٢ .

الغنى والقوة دون الحق والحكمة وعلى الركون إلى التخريف والأباطيل عزوفاً عن صفاء الهداية الربانية وكمالها وجلالها .

ولا يخفى عليك أن مسaire الدعوة الإلهية مطالب المتعنتين وأهواءهم يلغى مهمتها الروحية ، ويجعلها تبعاً للمفسدين وطغيانهم وتصرفهم حسب أهوائهم المريضة واعتلالاتهم المنحرفة . وفي ذلك تناف عنيف مع مهمة الرسالة الإلهية إذ تنزلت بأمر الله العزيز العليم لقمع فساد المفسدين ونسف المفاهيم الباطلة والقيم السقيمة . . . فكيف تلتفت لمثل هؤلاء؟!؟!؟

ثم ماذا؟! شطط آخر!! ألسنت يا محمد تُذَكِّرنا بعذاب الله للأقوام السالفين وتحدثنا عن قدرته وبطشه؟! إذن أسقط السماء علينا ، قطعاً فتاة مهلكة أو دَعْنَا نقابل الله والملائكة عياناً!

أما العذاب فليس وراء إنزاله خير ولا تيسير هداية لهم ، وقد أمهلهم - كما مرّ - حتى يؤمن مؤمنهم ويكفر كافرهم . وأبلغ من هذا فقد سأل نبي الرحمة ﷺ ربه أن يصرف عنهم عذاب النقرة والهلاك في الدنيا قائلاً : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً »^(١) . بل لقد أسلم من هؤلاء المؤتمرين من أسلم وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية .

لكن الله تعالى لم يدع المحاذين الراسخين في الضلال يفلتون من العذاب في الدنيا فقد أرداهم بأسياف المسلمين تقتيلاً ، ووقف الرسول ﷺ على جثث بعضهم يوم بدر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ؛ أيسركم أنكم أطعمتم الله

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء - وصحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب ما لقي النبي من أذى المشركين .

ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً... ؟؟!!» (١).

كل تلك المطالب أمر يسير بجانب ما يليها !! تأمل قولهم لما هاج غرورهم وطفغ أمواج الكبر والتجبر على عقولهم حتى فاهوا بتلك المطالبة السفيهة الشنعاء ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وهم أجساد آدمية ضعيفة لا تحتمل ذلك ولا تطيقه ، وهم في دار الاختيار والاختبار لا في دار الاجبار والاضطرار (٢). وهذه الأقوال مبنية أصلاً على إشراكهم بالله وعدم معرفتهم صفاته الكمالية من عدل وحكمة حق المعرفة ؛ وعلى جحودهم يوم الحساب . فغطوا ذلك بإنكار النبوة أيضاً ، ومضوا في أساليب التهرب من الاقرار بنبوة محمد ﷺ . قال تعالى ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً . بل كذبوا بالساعة وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً... ﴾ (٣).

شوط آخر من التمادي في الغي واللجاج والجحود : ليكن لك بيت من زخرف « من ذهب » والزخرف في الأصل الزينة ، غير أن الزينة عندهم بالذهب أعجب وأرغب . لذلك أطلقوا لفظ الزينة على الذهب .

يا للسذاجة وضحالة الرأي !! ماذا يكون المرء لو أصبح غنياً يسكن بيتاً من ذهب فياض بالذِّ ألوان النعيم !؟ أيكون بذلك وحده

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي .

(٢) راجع تفصيل جواب مطلبهم في كتابنا: «نبوة محمد ﷺ في القرآن» ص ٧٢ وما بعدها.

(٣) سورة الفرقان ٧ - ١١ .

فاضلاً ومصداًقاً . . .؟! أم يكون نبياً رسولاً؟! ومتاع الدنيا كثيراً ما يتعاضم
في أيدي الأشرار بينما يزهده فيه الأخيار وينفقون منه بغير اغترار . . .؟!
وتنتنعوا أيضاً . . . إذن اصعد إلى السماء . . . ولن نؤمن لريقك وإن
شهدناك ترقى حتى تُنزلَ منها إلينا كتاباً نقرؤه . . .؟!؟!؟

لم يعد في وسع حصيف الرأي إلا أن يسألهم هل بقيت لكم إلى
عقولكم من حاجة . . .؟! لقد أنهيتم بمطالبكم كل احتياج إليها . . .!!!
كيف لا؟! وقد صرتم على أسفٍ حال من الإغراق في الحسيات
والتعلق بالماديات والأموال والإذعان لكل مطالب الجاهلية الشهوية
ونصبتهم أمام إيمانكم بالرسالة سداً كتيماً تجاه كل شفافية روحية
وأحاسيس وجدانية وتأملات ذهنية واعية!! بل لقد زدتم على ذلك
إصراركم على التكذيب والكفران حتى لو شهدت أعينكم تحقق مطالبكم
المادية . . . ماذا تركتم للدلائل الحق بعد هذا . . .؟!؟!؟

وواضح لكل ذي لب أن هؤلاء القوم ما طلبوا تلك المسائل في
مجلسهم ذاك استهداء واسترشاداً . وإنما طلبوها عناداً ومعاجزة وإصراراً
على الكفر ، ولورغبوا أن يتخذوا إلى الحق سبيلاً لكفاهم القرآن المبين
بالبراهين العقلية المتعاضدة وينظّمه البياني الذي أعجز بلغاهم
وأفحمهم . . . ولكان لهم بباقي معجزات الرسول شفاء واكتفاء .

وتنزل الوحي الإلهي ينزه المولى تبارك وتعالى عما لا يليق به من
إتيان وجيئة وذهاب ﴿ قل سبحان ربي ﴾ رداً على قولهم ﴿ أو تأتي بالله
والملائكة قبيلاً ﴾ وذهب مفسرون آخرون إلى أن المراد من ﴿ سبحان
ربي ﴾ التعجب من كفرهم ولجاجهم . ويتبادر للبال أن في اقتران هذا
التنزيه للمولى سبحانه وتعالى مع صيغة الاستفهام ﴿ هل كنتُ إلا بشراً
رسولاً ﴾ تنزيهاً لله جل شأنه عما نسبوه إليه من صفات التجسيم ؛ وعن
قبول تحكم أحد من الخلائق في شؤون رسالته سواء أكان من المرسلين

أم كان من المشركين . فإنه تعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعّال لما يشاء ، يرسل من المعجزات والخوارق ما يشاء ، كما أن هذا الاقتران يثير في أغوار النفس التعجب من شدة شكيمتهم في الضلال وفرط حماقتهم في الجدل .

وأعلن الله حقيقة رسوله جلية ناصعة ﴿ هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً ؟! ﴾ قل لهم يا محمد : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء من الخوارق بحولي وقوتي وليس لي أن أتخير على ربي فعل ما سألتموني ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقول لكم إنني ملكٌ . إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ؟؟ أفلا تتفكرون ؟! ﴾^(١) . ولست أزعمُ أنني إلهٌ ، إنما أنا مجرد رسول كسائر رسل الله من قبلي . فإنهم ما كانوا يأتون أممهم بكل ما يريدون ويتغون ، ولكن كانوا يقتصرون على ما أيدهم الله به من آيات دالة على صحة نبوتهم . فإن للرسول في قومه مهمة محددة ؛ عليه أن يقوم بأدائها ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإلى الإيمان بأن داعيتهم عبدُ الله ورسوله ، ويبلغهم رسالة ربه ولا يعصي له أمراً . لذا كان جواب رسولنا ﷺ للقوم فوراً : « ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم »^(٢) .

(١) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٢) انظر تفسير الآية في : الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي : ج ١٠ ص ٣٢٧ - ٣٣١ .

وتفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٦٣ - ٦٤ . ومفاتيح الغيب للرازي ج ٢١ ص ٥٦ - ٥٨ .

وروح المعاني ج ١٥ ص ١٥٥ - ١٥٨ .

وإن عليّ أن التزمَ أدب الرسالة . فكيف يسأل الرسول ربه مطالب الاسفاف في العناد بعد أن كرمه بدلائل باهرة نيرة وبراهين رفيعة شريفة ملزمة !؟ كيف يدعوه أن يستجيب لتنتع قوم مذبذبين بين شطحات من المطالب لا حدود لها ولا اتزان فيها ولا استرشاد ؟!

كيف يستسيغ الرسول أن يرفع إلى ربه هذه القباحة ؟ بل كيف يجرؤ على الدعاء بتنفيذها !! .

الحكمة الإلهية تأبي الاستجابة لمقترحاتهم :

تعرضت الثقافة الإسلامية في مطلع النهضة الثقافية الحديثة إلى هجمات عنيفة من المستشرقين ومقلداتهم . وكان من جملة ذلك إنكارهم معجزات سيد المرسلين محمد ﷺ . واحتجوا لتأييد زعمهم بالقرآن . فإن الله تعالى قد لفت النظر إلى إعجازه ولم يستجب لمطالب المشركين في معجزات حدّوها . وإذا تأملت مطالبهم أنباتك أنها نتاج إنحراف عقدي وأفات نفسية متأزمة ولوجدت أن الحكمة الإلهية تأبي الاستجابة لها لعدة أمور :

١ - ان مبعث مطالبتهم التعنت والعناد لا الثبت والاستهداء : وإن فيها تجاوزاً على سلطان الله تعالى وكأنهم يرون لأنفسهم حق التحكم في رسوله وفرض رغباتهم عليه وإحراجه ليطلب ربه بتنزيل البيئات حسبما يرتأون ويشتهون لا حسب دلالتها وكفايتها .

٢ - قال القرطبي : (ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أو من حتى أوتي بآية خلاف ما طلب غيري . وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس ، وإنما التدبير إلى الله تعالى) (١) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٣١ .

٣ - إن الواجب على القوم أن يُسَلِّموا بصدق رسولهم ويعتصموا برسالته إذا جاءهم بأي فعل خارق للعادة معجزاً لهم . فإنه دليل على تأييد الله وشهادته له بالصدق في دعواه . وليس شرطاً أن يستجيب لاقتراحهم معجزاً معيناً يريدونه . قال الإمام الرازي : (إذا حصل الدليل وتمّ ، فالمطالبة بدليل آخر تكون طلباً للزيادة وإظهاراً للتعنت واللجاج ، والله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فلا اعتراض عليه لأحد بأنه لم أعطى هذا الرسول هذه المعجزة وذلك الرسول الآخر معجزاً آخر . وهذا الجواب المذكور ههنا هو الجواب المذكور في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ - إلى قوله - : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ يعني أنك ادعيت الرسالة ، والرسول لا بد له من معجزة تدل على صدقه وذلك قد حصل . وأما أن تأتي بكل ما يُطلب منك ، فذاك ليس من شرط الرسالة (١) .

٤ - لو أنه تعالى أجابهم إلى مقترحاتهم - وهم في تلك الحال من العناد واللجاج بالباطل ، وقد ظهر لهم بإجابتهم قوة الدليل وصدق الرسول - لاستمروا في تعنتهم وتمادوا في باطلهم تمادياً يعميهم عن دلالة المعجزة ، ويُظهر تكبرهم وتجبرهم وعدم ميلهم إلى الهدى والرشاد . قال تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أُوتِيَ رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أُجْرِمُوا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً . وإن يروا

(١) مفاتيح الغيب للرازي ج ١١ ص ١٠٨ .

(٢) سورة الانعام : ١٢٤ .

سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿١﴾ .

ولو أن المعجزات المطلوبة أنزلت إليهم فأعرضوا عنها - وسيعرضون لا محالة - لأعرضوا بذلك عن قطعي الدلائل التي ينتفي معها أدنى ريب أو احتمال ، وكانوا كالمستخف بالله وعظمته وحكمته في رسالته ، ولاستحقوا بذلك أشد سطوات العقاب ليكونوا عبرة لأولي الألباب . وقد جرت سنة الله تعالى بذلك فيمن قبلهم من الأقسام (٢) .

٥ - في رحلة الرشد الانساني وبلوغ الإنسانية درجة رفيعة من النضج العقلي أنزل الله الإسلام خاتم أديانه . فعولّ تعالى على تفتُّح الافهام والأذهان للإيمان بالتفكير والتعقل . والأمة التي بُعث محمد ﷺ إليها تمتاز عن بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة برجاحة العقول . فأكثر الله لفت الأنظار إلى تأمل ما احتواه القرآن من دلائل قاطعة وبيانات باهرة تُثبِت الرسالة المحمدية وتبرهن على صدورها عن الله حقاً وصدقاً ، كما اجتذب القرآن الأفتدة إليه لأنه معجزة الرسول العظمى الخالدة . وإنه وإن لم يكن المعجزة الوحيدة فإن الناظر في الدعوة الإسلامية لا يستغني عن إنعام النظر فيه ، ولكنه لو أحسن التعرف على معجزاته العظيمة الوفيرة ؛ لوجد به كل غناء واكتفاء في اثبات نبوة محمد ﷺ .

من أجل هذا قدّم الله تعالى على هذه الآيات إشادة بليغة بمكانة القرآن وإعجازه ودلالته فقال :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا

(١) سورة الأعراف : ١٤٦ .

(٢) انظر سورة الاسراء : ٥٩ .

القرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١﴾ .

ونوّه باكتفاء العقلاء به فقال : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل ، إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

فأنت ترى بجلاء أن الآيات ردع للمشركين لتطفلهم في أمر المعجزات ؛ وشططهم في الاستزادة منها ؛ وضلالهم عن صفات الله وعدم تقديرهم مقام الرسالة وأدبها ، وتماديهم في الإعراض عن اللازم الحتمي للمعجزات ، وهو الإيمان بالرسول والاعتصام التام برسالته . فليست الآيات بصدد تحديد نوع المعجزات التي يؤيد الله بها رسوله محمداً ﷺ وليست تتضمن نفي أي من المعجزات المادية أو العقلية التي أيد الله بها رسوله . فلا تتوفر فيها أدنى دلالة على ما تجشم عناء عمله منكرو المعجزات المادية لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الإسراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥٠ - ٥١ .

الباب الثاني والأدلة المعجزة العظمى

الفصل الأول : القرآن معجزة الرسول العظمى .

الفصل الثاني : شهادة العالم بإعجاز القرآن .

الفصلُ الأوَّلُ القرآنُ مُعْجِزَةُ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ

- معنى المعجزة القرآنية .
- القرآن هو المعجزة العظمى وآية الآيات .
- خلود المعجزة القرآنية مدى الدهر .
- التحدي بالقرآن العظيم .
- القرآن معجزات كثيرة .

معنى المعجزة القرآنية :

جرت سنة الله في خلقه أن يرسل إلى كل أمة رسولاً وينزل عليه تعاليمه الحكيمة ، حتى بلغت الإنسانية طور الرشد ، فبعث الله لكافة أممها خاتم رسله محمداً ﷺ . وأنزل عليه القرآن كتاب هداية وإعجاز ومنارة هدى وإيمان ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور . فجمع الله به شتات العرب ، وبنى به دولة الإسلام ومجتمعها ، وأنقذ الإنسانية من المظالم والفساسف .

(فالقرآن الكريم ، هو اللفظ العربي المنزل من الله تعالى على محمد ﷺ بواسطة جبريل للإعجاز والهداية . وهو المنقول بالتواتر ، المكتوب في المصحف المتعبد بتلاوته)^(١) .

والقرآن الكريم هو نفسه برهان صدق أنه كلام الله تعالى فقد نزل على وجه يعجز البشر عن الإتيان بمثله أبداً . فكان معجزة الرسول الخالدة مدى الدهر الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

وبين القاضي عبد الجبار معنى أن القرآن معجز فيقول : (فمعنى قولنا في القرآن أنه معجز : أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن - لفضيلة استاذنا الشيخ عبد الوهاب غزلان - ص ٢٣ .
طبع دار التأليف بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م وأمالى أصول الفقه لطلاب السنة
الرابعة في كلية الشريعة بدمشق - للشيخ أحمد فهمي أبو سنة . مبحث أدلة الأحكام
والاجتهاد ص ٨ .

مثله في القدر الذي اختص به (١). فأنت ترى أنه جعل الإعجاز قاصراً على أسلوبه البياني الفائق . وإليه ذهب بعض العلماء كما سترى .

ومعنى إعجاز القرآن في فهمنا : أنه يتعذر على البشر فصحاء وعلماء وعامة الإتيان بمثله في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية أو أي من وجوه إعجازه الأخرى ؛ لسموه على طاقتهم ؛ وأنهم يفقدون العلم بكيفيته ويقصرون عنه قصوراً أبدياً .

أما أنه تعالى جعل القرآن معجزة عقلية بنى عليها أمر نبوة محمد ﷺ ، فذلك على ذلك سور كثيرة وآيات وفيرة . نأتيك منها بقبس علك بعد عمق تفهمه تتقصى أشباهه ونظائره في الكتاب العزيز .

لقد أخبر جل شأنه أن الكتاب آيات من آياته المعجزة وعلم من أعلام هدايته كاف في الدلالة على نبوة محمد ﷺ . فهو معجزة أعطاها الله رسوله محمداً ليقوم مقام معجزات غيره من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال تعالى :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه !! قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . . ؟ ﴾ (٢) .

قال الإمام حسن البقاعي في تفسيره : (﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا يقدر على إنزال شيء منها غيره . فإنما الإله هو لا سواه . ﴿ وإنما أنا نذير ﴾ أقوم لكم بما حملني وكلفني من التذارة دالاً عليه بما أعطيت من الآيات ونواقض المطردات . وليس لي أن

(١) المغني في أبواب العدل والتوحيد - للقاظمي عبد الجبار الأسد آبادي ج ١٦ ص ٢٢٦ -

مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

(٢) سورة العنكبوت : ٥٠ - ٥١ .

أقترح عليه الآيات . على أن المقصود من الآية : الدلالة على الصدق ، وهي كلها في حكم آية واحدة (١) .

بأن بهذه الآية ونحوها وبآيات التحدي أن نبوة محمد ﷺ قد بُنيت على دلالة القرآن الكريم وإعجازه ، وصار القرآن نفسه دليلاً بل أدلة جزيلة تثبت أنه كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ . وافترق في هذا الحكم عن باقي الكتب المنزلة على الأنبياء . فإن نظمها غير معجز ، فلا تدلُّ على نفسها بنفسها من ناحية النظم ، إنما بمعجزات أخرى (٢) .

القرآن هو المعجزة العظمى وآية الآيات

من أوضح البيّنات وأشهرها أن القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى وآية الآيات التي أُعطيها محمد ﷺ برهاناً على نبوته . وقد قرر الله هذه الحقيقة في الكتاب الكريم نفسه في معرض رده على المشركين . فقد طالب كفار قريش - بإيعاز من بعض أهل الكتاب - رسول الله ﷺ بمعجزات تناظر معجزات الرسل السابقين ؛ كناقاة صالح وعصا موسى ونحو ذلك ؛ فأثبت الله جل جلاله نبوة سيدنا محمد ﷺ وقطع دابر

(١) نظم الدرر في تناسب الآي والسور : ج ٤ ورقة ١٨١ - مخطوط في دار الكتب المصرية .

(٢) فإن قيل : إن الاخبار عن الغيوب وجد في جميع الكتب السماوية كما وجد في القرآن فلا ميزة له عليها .

قلنا : ان القرآن وإن شاركته الكتب السماوية في اشتغالها على الاخبار الغيبية - وهو أمر معجز - فإنه قد أرى عليها وجوه إعجاز أخرى ، تزيده قوة في إعجازه والدلالة على ربانية مصدره . ومن هاتيك الأوجه : نظمه المعجز الذي يستدل به وحده . وهو موفور في كل سورة وفي كل قدر منه يتضمن معنى تاماً ، ولو لم يزد في طوله على أصغر سورة من القرآن . وقد وقع التحدي بالقرآن بل بسورة منه ، بينما لم يقع التحدي بتلك الكتب السماوية أو بقدر منها .

التشكك في رسالته بقوله المنزل : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟! إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

فقمعت هذه الآية تعلق المشركين عن الإيمان . ونصرت رسول الله بإعلان الحجة عليهم ليفهمهم بأن الإتيان بالمعجزات الخارقة ليس من شأن النبي ﷺ فالله تعالى ينزلها حسبما يشاء لا دخل لأحد في ذلك البتة . فقل لهم يا محمد إنك نذير لهم بالآيات التي منحك الله إياها . يا ويحهم ألم يبرحوا يقترحون الآيات ويتكلفون تقديم المطالب؟! ألم تكفهم تلك الآية العظمى التي تغني عن سائر المعجزات؟! ألا وهي القرآن المجيد ، وقد أدام الله تلاوته تفرغ أسماعهم بالتحدي وأقامه معجزة كبرى ثابتة لا تزول ولا تضعف . لا ريب أن ذلك الكتاب العظيم الشأن الخالد على مر الدهور نعمة عظيمة ، قد تفضل الله بها رحمة وتذكرة لمن ابتغى معرفة الدين الحق والإيمان به (٢) .

إن الله تعالى جعل معجزة كل نبي مناسبة لحال قومه . فقوم فرعون برعوا في السحر فجاءهم موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا . ونبغ قوم عيسى بالطب حتى فاقوا به . فجعل الله معجزة عيسى من جنس عملهم فتحداهم بما لم تصل قدرتهم إليه ، فأحىى الميتة ، وكان منه إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى .

قال القاضي عبد الجبار : (وعلى هذا الوجه رتبَّ تعالى المعجزات ، فجعل المعجز الذي أظهره على موسى ، مما الأغلب وضوحه لأهل زمانه ، وانكشافه لهم ، فقد كانوا يتعاطون السحر ، فلما ورد عليهم ما ورد من انقلاب العصا حية ، آمنوا لظهور الأمر . وكان

(١) سورة العنكبوت : ٥٠ - ٥١ . (٢) روح المعاني : ج ٢١ ص ٦ .

اعترافهم وإيمانهم مقويًا لدواعي غيرهم إلى البصيرة وشدة التأمل . . .
وكذلك فعل تعالى فيما أظهره على عيسى ، مما بهر عقول الأطباء
في زمنه . . . (١)

ولقد بلغ العرب أرفع مستوى عرفته الإنسانية في الفصاحة والبلاغة
وارتقوا في ذلك فوق جميع الأمم مراتب ظاهرة . فكان لاظهار الله تعالى
القرآن على لسان رسوله محمد ﷺ من الفوائد ما لا يساويه غيره من
المعجزات ، فإنه لو اقتصر الأمر على إظهار معجزات مادية على منوال
قلب العصا حية أو إحياء الموتى ، مما لم يألف العرب جنسه وليس لهم
بحاله معرفة ولا بصيرة ، لاحتمل أن يتوهموا أنهم إنما عجزوا عن مثله
لذلك السبب خاصة . فلما خص الله محمداً بالقرآن أبعدهم عن الوقوع
في تلك الشبهة . فالفصاحة دأبهم ومفخرتهم ، بها يتبارون ويصلون .
فكان القرآن المعجز مما يعلمون مزيته لأول وهلة بيسير من التأمل . وهذه
الطريقة السديدة في المعجزات عين الحكمة ، فلا يحسن العدول عنها
إلى غيرها . فأنت ترى أن القرآن قد جاء على سنن الحكمة الإلهية في
توجيه المعجزات . وامتاز عنها بكونه خاتم كتب الله مشتملاً على خاتمة
شرائعه وأنه خطاب الله للناس جميعاً . فاختص بكونه معجزاً جميع
المكلفين باقياً بقاء التكليف تصونه رعاية إلهية خاصة .

قال القاضي عبد الجبار : (واختص القرآن مع كونه معجزاً أنه
معجز لجميع المكلفين ، فوجب في الحكمة أن يكون أمراً يبقى ببقاء
التكليف ، ولذلك تكفل تعالى بحفظه وحراسته ، من جهة الدواعي
وتوفرها ، وخصه بأن أودعه من علم الأولين والآخرين ومن دلالة الحرام
والحلال ما يدعو إلى تحفظه ، والتوفر على تأمله ، والمحافظة على

(١) المغني ج ١٦ ص ٢٠٥ .

تأويله ، وألزم تعالى تلاوته ورغب فيه وفي حفظه وتعليمه ، ليكون محروساً محفوظاً يتداوله الصغير والكبير ، وينشأ عليه الطفل والوليد (١) .

وهذا كله بالإضافة إلى وجوه إعجاز القرآن الأخرى توجب له مزية بل مزايا في الإعجاز على كل معجز .

تحدى الله العرب أن يأتوا بقدر سورة من القرآن على صفته في روعة البيان وعلو الطبقة في البلاغة . ففي القرآن بناء على ذلك آيات كثيرة ومعجزات غزيرة . فليس له مثل سابق لدى أحد من الأنبياء .

وإننا لنعلم أن صنعة البيان دأب كل جماعة من بني الإنسان ، غير أن العرب قد أربوا فيها على غيرهم . فإذا كان القرآن معجزة لهم فهو معجزة لغيرهم أيضاً ، وإذا كانت معجزات الأنبياء حسية تشاهد بالأبصار كناقاة صالح وعصا موسى ، قد انقرضت بانقضاء أعضائها ، فإن القرآن معجزة عقلية تشاهدها البصائر باقية مستمرة الإعجاز أبد الدهر ، لا يعترها اللبس والغموض ولا تشبهه بالسحر ولا يحوم حولها ريب التصنع ، فهي قاهرة مفحمة كل إنسان علمه الله البيان . بهذا كله امتازت معجزة الرسول العظمى عما سواها من المعجزات . وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله :

« ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » (٢) .

يقول رسول الله ﷺ في هذا الحديث : إن معجزتي العظمى التي تحدثُ بها إنما هي ذات الوحي الذي أنزل الله عليَّ ، وهو القرآن الكريم

(١) المغني : ج ١٦ ص ٣٤٤ . (٢) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن .

الواضح إعجازه . لكنه ﷺ لم يقصد أن جميع معجزاته محصورة في القرآن وحده ، أو أنه لم يُؤتَ نظير معجزات الرسل السابقين . إنما قصد أن القرآن هو المعجزة العظمى والآية التي تفوق كل الآيات السالفة ، وأن الله قد اختص به محمداً ﷺ دون غيره من إخوانه الأنبياء . فقد أيدهم الله بمعجزات حسية رأتها الأبصار ثم أدرجتها الأعصر في طياتها فلم يبق منها إلا الذكر ، إن بقي الذكر . أما القرآن المجيد فمعجزة جابهت العقول زمن البعثة وتحدث الملكات والمواهب ، ولم تزل على مجابقتها وتحديها ما بقي الزمان وتتابع الجديدان . فالذي يُشاهد بعين العقل يبقى ماثلاً لكل ذي عقل . . والقرآن لم يزل على توالي الأيام بارزاً بإعجازه في أسلوبه البليغ الخارق للعادة ، وفي أخباره عن المغيبات . فلا يمر عصر إلا ويدرك أهله قصورهم عن أسلوبه . ويظهر لهم تحقق أمر مما أخبر الله أنه سيكون ، وفي هذا تثبت جديد لرسالته وصدق نبوته ﷺ . وهكذا يعم النفع بالقرآن ويزداد المؤمنون به إيماناً وعدداً ، خاصة وأنه مشتمل على الدعوة والحجة والأخبار بالغيب وبيان كل من العقيدة والشريعة . ولذلك تحققت رجوى رسول الله ﷺ فكان أتباع دينه المنزّل - المصون من التبديل والتحريف - أكثر من أتباع كل نبي ، وأمه أعظم من كل أمة^(١) .

قال العلامة عبد الرحمن بن خلدون :

(إعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة : القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه . والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهدته في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي . فهو أوضح دلالةً لاتحاد الدليل والمدلول فيه . وهذا معنى قوله ﷺ : « ما من نبي من

(١) فتح الباري : ج ٩ ص ٤ - ٥ .

الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ . فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي كان المصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثير المصدق والمؤمن ، وهو التابع والأمة (١) .

خلود المعجزة القرآنية مدى الدهر

أيد الله محمداً ﷺ بمعجزات حسية كثيرة ، إلا أنها قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة ومشهد أناس معينين ، غيبتهم الأرض بعدئذ . ومع أنها انقضت بانقضاء وقت حدوثها فلم يستمر وجودها ؛ فهي تقيم الحجة على صدق الرسول ﷺ للأجيال المتعاقبة . فإن كثيراً منها قد نقل على نحو يفيد العلم اليقيني بحصولها ، فيلزم كل من بلغته أن يسلم بنبوته صلى الله عليه وعلى آله ويذعن لشريعته .

لكن المعجزة العظمى لسيدنا محمد ﷺ القرآن الكريم . فهو معجزة عقلية عامة لكل العهود والأعصر ، وستظل قائمة مستمرة في تحديها وقهرها مواهب البشر إلى يوم القيامة . فالحجة به ملزمة وقت تنزله على رسول الله ﷺ ، كما أنها ملزمة في كل آن بعده إلى قيام الساعة على حد سواء ، فإن التحدي بالمعجزة القرآنية لم يخص قوماً دون قوم ولا أهل العصر الأول دون غيرهم . فهو معجزة ثابتة خالدة على مر العصور والسنين والشهور ، والتحدي به يفحم أهل كل زمان ومكان ، والإعجاز فيه قائم في كل عصر ومصر ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦ - ١٠٧ - مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩ . راجع رواية البخاري للحديث ص ١١١ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

لقد حظي القرآن بعناية فائقة ، حفظته لأهل الأعصر المتوالية بدقة لا نظير لها . فكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه كل ما ينزل من آيات كتاب الله ويستحفظهم إياها ، ويستمع لهم ليستوثق من دقة حفظهم ، ويأمرهم بأن يعلم بعضهم بعضاً . وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا . وهكذا حفظ الصحابة القرآن وأتقنوه غاية الإتقان .

فإن أول جمع للقرآن حصل في عهد رسول الله ﷺ وهو جمع الصدر ، فقد جمعه في صدورهم جمهور غفير من الصحابة رضوان الله عليهم (١) .

وقد عُني المسلمون من بعدهم بتلاوة كلام الله تعالى وتوافدوا على حفظه ودراسته . فمنهم من يتزلف إلى الله جلّ شأنه بأحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها ، أو يحفظه تفقهاً في أصول الدين وفروعه وقياماً بأركانه وأوامره ، أو يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه . ومنهم من يتوخى بحفظه إلتماس أسباب الفصاحة والبلاغة . وهكذا توفرت الدواعي وتضافرت العوامل لحفظ القرآن وصيانته . فنجم عن ذلك تواتر نقل القرآن . فقد حفظه بالمشاهدة عن رسول الله ﷺ جمع كبير من الصحابة يستحيل تواطؤهم على الكذب ورواه عنهم جمع عظيم أيضاً . . وهكذا في كل العصور إلى زماننا هذا . والنقل بهذا الطريق القطعي خصوصية للكتاب الكريم . فالكتب السماوية الأخرى إنما نُقلت نقلاً أحادياً فرداً فرداً إلى نبي تلك الأمة أو إلى أحد قديسيها بانقطاع في سلسلة الرواة الناقلين عن ذلك النبي عليه السلام .

وهكذا نجد أن الله جلّ شأنه قد هيأ لكتابه العزيز أكمل أسباب

(١) تقدمت ببحث عن جمع القرآن وتدوينه وحفظه وتواتره في « الأحرف السبعة في القرآن ومنزلة القراءات منها » .

الحفظ المتقن المضبوط ، فحفظته في الصدور الجموع الكثيرة المتعاقبة ، وتناقلته ثقات الأمة مكتوباً في السطور ، متحد النص لا اختلاف فيه ، فتحققت معجزة الوعد الإلهي : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

لقد انقضى على تنزيل القرآن أربعة عشر قرناً ولم يزل القرآن بحمد الله مصوناً محفوظاً ، وهذا من الدلائل المنيرة على نبوة سيدنا محمد ﷺ . وقد عدّه القاضي عياض رحمه الله وجهاً من أوجه إعجازه (٢) فقال :

(ومن وجوه إعجازه المعدودة : كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ . . ﴾ الآية . وسائر معجزات الأنبياء انقضت بإنقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها (٣) .

ولا شك أن قصداً إلهياً عظيماً يكمن في حفظ القرآن وضمّان استمرار حفظه سليماً للناس ، وهو استمرار المعجزة وخلودها وبقاء الهداية ما بقي الليل والنهار ، لتقوم الحجّة البالغة على الناس في كل زمن ، تُلزمهم الإيمان بدين الله تعالى والعمل بما في كتابه الكريم من شريعة عالمية خالدة على غاية الصلاحية لكل زمان ومكان (٤) .

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) ونحن نعد ذلك معجزة فحسب . وستكلم عن ذلك عند تحديد أوجه الإعجاز .

(٣) الشفاء - للقاضي عياض ص ٢٣٢ المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ .

(٤) البرهان في علوم القرآن - للزركشي - ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٤٣ والاتقان للسيوطي ج ١ ص

٥٧ - ٦٤ والمناهل : ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ - والبيان : ص ١٤٥ وما بعدها .

التحدي بالقرآن العظيم

الشان في كل معجزة أن يتحدى النبي قومه بأن يعارضوها فيعجزوا عنها ، فيُسقط في أيديهم ويستعلن عجزهم على الملأ . فالتحدي شرط في المعجزة وعنوان مميز لها دال عليها . ولم يوكل التحدي بالقرآن لمحمد رسول الله ﷺ ، بل صدر عن الحق جل شأنه . وأنت ترى أن هذا تعظيم لأمر القرآن دونه كل تعظيم . فقد تحدى الله العرب حين اتهموا رسوله باختلاق القرآن من تلقاء نفسه أن يأتوا بحديث يماثله فيما استقل به من أوصاف ومزايا في نظمه ومعناه . قال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (١) .

فلو توفر في زعمهم ذلك أدنى قدر من الصدق إذن لاقتدروا على تقديم مثل القرآن ، لا سيما أنهم يشاركون محمداً ﷺ في العربية ، وأنهم فرسان البلاغة والفصاحة ، أكثروا مزاولة أساليب النظم والنثر وتمرسوا بالخطب والأشعار وبالغوا في حفظ الوقائع والأيام . فإن القدرة على الأمر من دواعي الاتيان به (٢) . فإذا جابههم التحدي مع التنديد بالأصنام وتسفيه الاحلام وإهانة المقدسات ، فقد أوجب كل ذلك عدم التواني لحظة في حشد الأنصار والأعوان للتظاهر والتأزر على المثل المطلوب لو كان في حيز الإمكان ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٣) .

المقام الثاني في التحدي :

لقد كبلهم العجزُ بأصفاده مع قيام التحدي على مر الزمن ، فأمسكوا

(١) سورة الطور : ٣٣ - ٣٤ .

(٢) روح المعاني : ج ٢٧ ص ٣٢ .

(٣) سورة الإسراء : ٨٨ .

عن المحاولة ، ففجأهم التحدي مقتصراً على عشر سور على سبيل التساهل . وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ أمي لم يصحب أهل العلم ولم يرحل في طلبه ، وأنهم يقفون معه في مضممار العلم على قدم المساواة ، فقد أمعن القرآن في إفحامهم فتنزل عن مطالبتهم بالمماثلة في المعنى والنظم معاً ، وتحداهم بالنظم وحده بعشر سور فحسب ، فلا يعوزهم بعد هذا أن يكون في العرب مثل محمد فصاحة أسلوب وبلاغة تعبير ، فهم فرسان الفصاحة والبلاغة . قال تعالى في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه !!؟ قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون !؟ ﴾ (١) .

اختلف المفسرون في المتحدى به في هذه الآية ، فذهب أكثرهم إلى أنه قدر عشر سور تماثل القرآن في نظمه ومعناه والمراد بالمعنى ما يتضمنه القرآن من إخبار عن الغيب ووعد ووعيد وحكم وأحكام .

وذهب آخرون ومنهم ابن عطية والمبرد والبقاعي إلى أن المطلوب في المتحدى به هو مماثلة القرآن في حسن النظم والبيان فحسب ، دون المغيبات والحكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال (٢) .

قال البقاعي رحمه الله عند تفسيره هذه الآية من سورة هود :

(مفتريات : أي إنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة ؛ أي قطعة واحدة ، آية أو آيات من مثله ، فيما هو عليه من البلاغة والاختبار بالمغيبات والحكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال ، وادعيتهم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحكم ، فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير ملزمين

(١) سورة هود : ١٣ - ١٤ .

(٢) البحر المحيط : ج ٥ ص ٢٠٨ وروح المعاني : ج ١٢ ص ١٩ - ٢٠ ومعالم التنزيل -

للبنغوي - سورة هود .

بحقائق المعاني وصحة المباني . ذكره البغوي عن المبرد ، وقد مضى في البقرة عند ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ عن الجاحظ وغيره ما يؤيده (١) .

ونحن نذهب إلى ترجيح مذهب الفريق الثاني (ابن عطية والمبرد والبقاعي) ، فنرى أن المُتحدَّى به هو عشر سور تماثل القرآن في حسن النظم والبيان . وهو معجز حتماً لا يدرك البشر شأوه . وهذا التحديد في المتحدى به هو نتيجة تقييد القرآن السور المماثلة بقوله (مفتريات) . وإذا لم تقل بهذا ، فما تقول بهذا القيد الاضافي الذي لم يرد نظيره في سورة يونس على الرغم من التشابه في السياق ؟ قال تعالى في سورة يونس : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢) .

وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٣) .

ثم نحن نسأل ما الافتراء ؟ هو الكذب . وهل الكذب إلا مخالفة الخبر للواقع !؟ إذن المطلوب منهم عشر سور لا تحتوي على معان وأخبار وعلوم تطابق الواقع . فهل خلاف الحق والواقع في ذلك يعقل أن يُعدَّ مماثلاً لما في القرآن ؟؟ لذلك تحتم علينا أن نقول إنما ورد التحدي هنا بأسلوب القرآن البياني دون أوجه الإعجاز الأخرى . وهذا مقتضى إعمال الفهم في لفظ (مفتريات) واعتباره يحمل معنى ، لأن القرآن - والله الحمد والمِنَّة - بريء عن الفضول في القول والتزويد في الكلام .

(١) أراد من « صحة المباني » : سلامة المعاني وتناسقها وعدم اختلافها . انظر نظم الدرر في تناسب الآي والسور : ج ٣ ورقة ٤٦ - مخطوط دار الكتب المصرية .

(٢) سورة يونس : ٣٨ .

(٣) سورة هود : ١٣ .

لقد توجه خطاب الله في هذه الآية إلى المشركين يقطع دابر تعللهم
ويقيم بالغ الحجة عليهم ، فكأنه يقول :

أما زلتم تقيمون على الزعم بأن محمداً افترى هذا القرآن على
الله . . ؟ أم أنكم لم تبرحوا تقولون أن القرآن أساطير الأولين ، اكتتبها
محمد فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً . . ؟ لئن دار بعض هذا في خلدكم
فخلوا عنكم أخباره الغيبية وعلومه اللدنية ، فلن يكون أسهل عليكم -
حسب زعمكم - من اختلاق عشر سور تماثله بلاغة أسلوب وفصاحة
بيان ، فأنتم العرب سادة الفصاحة والبلاغة !؟ وقد دُعيتم إلى مثله في
النظم في أي معنى أردتم مطلقاً غير مقيد ، موسعاً غير مضيق . فليس إلى
معاني القرآن دُعيتم ، ولكن إلى بلاغة أسلوبه وفصاحة عبارته .

هيا ! شمروا عن ساعد الجد ، لا تقفوا في الميدان وحدكم .
استنصروا بالهتكم ، استعينوا بكهانكم ومصايق شعرائكم وخطبائكم ،
فسيبين لكم إن كنتم صائبين في حكمكم أم لا !؟ فإن عجزتم أنتم
وأنصاركم وأصنامكم ولم ينجدكم أحد ، فقد استبان لكم الفرق بين ظلمة
الليل وضياء النهار ، فاعلموا أنه لم ينزل إلا من عند الله بعلمه وقدرته ،
فإنه وحده الإله الحق الذي دونه قدرةً وعلماً . . كل من في الوجود
متفرقين ومجتمعين ، فلن يقدرُوا على الإتيان بمثل هذا القرآن . وهذا
إثبات قوي قاطع على أن القرآن كلام الله وحده وأن الله واحد لا شريك له
لا يدانيه أحد في قدرته وعلمه وتصرفه . فكل من في السموات والأرض
عبده ، لأمره خاضعون منقادون .

أما وقد عجزتم وباء جمعكم بالخزي والخذلان ، ولم يبق لديكم
بعدُ شائبة شبهة في صدق هذا الرسول وحقية القرآن وبطلان ما أنتم عليه
من شرك . فهل تغادرون المكابرة والعناد وتدخلون الإسلام دين الله
أفواجاً ؟ .

هذا ما يتوجب عليكم بعد زوال الوهم المانع وقيام الدليل المعجز
الملزم (١) .

المقام الثالث في التحدي :

ثم وسع الله لهم غاية التوسعة فتحداهم بسورة واحدة ولو كانت من
أقصر سوره . قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه !؟ قل فأتوا بسورة مثله
وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢) .

وقد اختلف العلماء في ترتيب نزول الآيتين : فذهب المبرد وغيره
إلى أن آية يونس وفيها التحدي بسورة واحدة قد نزلت قبل آية هود التي
تحداهم الله فيها بعشر سور مفتريات (٣) .

وذهب آخرون ومنهم أبو حيان الأندلسي وابن كثير إلى أن آية هود
والتحدي بعشر سور هو النازل أولاً . وقد اتفق الفريقان على أن الآيتين
نزلتا بمكة .

ونحن إذ لم نجد أثراً ثابتاً يبين أي الآيتين أسبق نزولاً ، نستحسن ما
ذهب إليه الفريق الثاني فإن مقتضى التحدي بعشر سور أن يكون نزوله قبل
التحدي بسورة واحدة . فسورة هود أسبق نزولاً على رسول الله ﷺ ، من
سورة يونس ، ولو أنها جاءت في ترتيب المصحف بعد سورة يونس
مباشرة .

ويكفي أن ابن كثير العلامة بالمأثور قد ذهب إلى هذا فقال في
تفسير آية يونس :

(١) للتوسع في تفسير الآية انظر روح المعاني : ج ١٢ ص ١٩ - ٢١ .

(٢) سورة يونس : ٣٨ .

(٣) معالم التنزيل : عند تفسير الآية من سورة هود .

﴿ أم يقولون افتراه؟! قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ :

(فأتوا أنتم بسورة من مثله أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان . وهذا هو المقام الثالث في التحدي . فإنه تعالى تحداهم ودعاهم ، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا ، وأخيراً أنهم لا يقدرّون على ذلك ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وكذا في سورة البقرة وهي مدنية ، تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار . . ﴾ الآية ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب . ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به (١) .

لقد تحداهم تعالى في سورة البقرة فأثبت عجزهم ، إذ خاطبهم سبحانه ، فكرر التحدي بعد التحدي ليكشف للملأ عجزهم ويفضح عنادهم وكذب ادعائهم ويدمغهم بطابع العجز الدائم ، فيسجله عليهم بقوله : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٣٠٤ مطبعة المنار - الطبعة الأولى ١٣٤٦ هـ وانظر البحر المحيط : ج ٥ ص ٢٠٨ .

وادعوا شهداءكم من دون الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١﴾ .

لئن كنتم في شك من تنزيل الله القرآن على محمد ﷺ فلا بد لكم
من الرؤية والتثبت قبل إرسال القول فيه ، هيا ! فاخْتَبِرُوا الأمر بأنفسكم
فإنكم أشد تمرساً في النظم والنثر ، ومزاولة لضروب الفصاحة والبلاغة ،
فهاتوا قدر سورة واحدة مثل القرآن طالت أم قصرت . وقد تقدمكم من
العرب فصحاء بلغاء فالتمسوا في فنهم الرفيع قدر سورة يماثل القرآن في
صفاته الجلييلة ، أو اجمعوا من لديكم ممن تبوؤا قمة الفصاحة والبلاغة ،
واستعينوا بأنصاركم وأصنامكم التي تدعون من دون الله ، وقدموا مثيل
القرآن بما لا يتجاوز سورة واحدة ، إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ أَدْنَىٰ حَظٍّ مِنَ الصَّوَابِ
فِي اتِّهَامِكُمُ الرِّسُولَ وَتَكْذِيبِهِ ؟!

فلئن عجزتم وظهر لكم هزال مواهبكم وقدراتكم وقصوركم عن
إدراك مثله قصوراً أبدياً لا يُتلافى ، فقد انكشف لكم هول الحمق في
الشك بالمتيقن الشديد الوضوح . فلو كان لأحد ثمة قدرة على ذلك لكنتم
أسبق إليه لأنكم ذوو الألسن الفصيحة سليقة والأذواق الأدبية الرفيعة
فطرة !! لئن بدا لكم عجزكم المتأصل وأنه لا قدرة لبشر قط على مثله ،
وسيدو ذلك لا محالة ، فاحترزوا من إنكار تنزله من عند الله ، وآمنوا
برسوله الذي أنزل عليه ، فإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم الحجة ، وحق
عليكم القول (٢) .

وصفوة القول أن التحدي بالقرآن قد تدرج ؛ فيما نرجح ؛ بالمراحل
التالية :

(١) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤ .

(٢) انظر روح المعاني : ج ١ ص ١٧٧ - ١٨٤ وج ١١ ص ١٠٥ - ١٠٦ والجمل على
الجلالين : ج ١ ص ٢٧ - ٢٩ .

أولاً : تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن .

ثانياً : تحداهم أن يأتوا بعشر سور تماثل القرآن في نظمه دون معناه ، تماثله في أسلوبه البياني فحسب .

ثالثاً : تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة تماثل مماثلة تامة ؛ أي سورة كانت ؛ طويلة أم قصيرة .

القرآن معجزات كثيرة

رأيتَ أن الله تحدى العرب أن يأتوا بسورة واحدة تماثل القرآن . فالقَدْر المعجز الذي يفوت البشر سورة واحدة منه ولو من قصار سوره بل أقصر سورة فيه . وكل آية طويلة معجزة وكل مجموعة من الآيات القصار تعدل سورة الكوثر أو سورة العصر أو أكثر من ذلك فهي معجزة أيضاً . فإن الفصاحة وقوة البيان والبلاغة في التصوير ومثانة السبك لا تتبين بأقل من ذلك القدر ، لذا كان هوحد المعجز^(١) .

وقد ذهب البقاعي إلى أن المراد بالسورة مفهومها اللغوي لا الاصطلاحي وارتضى في ذلك قول الحرالي : (السورة : تمام جملة من المسموع تحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة)^(٢) ، وفسر البقاعي السورة في موضع آخر بأنها : (قطعة واحدة)^(٣) .

ولكن كيف السبيل إلى معرفة أن كلاً من السور القصار معجز ؟

أجاب عن ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى فقال : (إن

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٢٥٥ و ٢٨٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور - حسن البقاعي - ج ١ ص ١٠ مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق .

(٣) راجع ص ١١٧ - ١١٨ .

كل سورة قد عُلم كونها معجزة بعجز العرب عنها) .

أجل : لقد عجز العرب عن معارضة القرآن بقدر أصغر سورة منه على الرغم من التحدي القوي المستمر . وإذا علمت أن القرآن يزيد على ستة آلاف آية ، وأنه يحمل عدة أوجه معجزة بالإضافة إلى إعجازه البياني^(١) ، تراءت لك في القرآن معجزات متنوعة تجل عن الحصر والتعداد ، وحكمت بيقين أن هذا الكتاب المجيد هو المعجزة العظمى والآية التي تُسدُّ مسد جميع الآيات ، وتُربي عليها في قوة الدلالة على صدق صاحبها محمد ﷺ وتثبيت نبوته والبرهان على إلهية رسالته . قال تعالى :

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ؟! إِنَّ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةً وَاذْكَرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

(١) طالع وجوه إعجاز القرآن فيما يلي من هذا الكتاب .

(٢) سورة العنكبوت : ٥١ .

الفصل الثاني شهادة العالم بإعجاز القرآن

أولاً : شهادة العرب بعجزهم عن معارضة القرآن :

- ١ - نكوصهم عن معارضته على الرغم من استمرار التحدي .
- ٢ - الطبيعة البشرية تجبرهم على معارضته لو كانوا قادرين .
- ٣ - القادر على المعارضة لا يرضى بمخاطر الحروب بديلاً عنها .
- ٤ - يستحيل ترك معارضته مع توفر الدواعي القوية عليها إلا لعجزهم .

ثانياً : اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن :

- ١ - حقيقة رأي المشركين في القرآن .
 - ٢ - عقلاء فصحاء عرفوا إعجاز القرآن فأمنوا به .
 - ٣ - أدباء النصارى يعترفون بعظمة القرآن وإعجازه .
- ثالثاً : محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجازاة القرآن .
- رابعاً : خلود إعجاز القرآن إلى الأبد .
- خامساً : دلالة إعجاز القرآن العظيم على نبوة محمد ﷺ .

شهد العالم بإعجاز القرآن عربيه وعجمه ؛ مؤمنه وكافره ؛ في القديم والحديث .

فقد فجأ القرآن العرب بما لا قبيل لهم به ، فبهتهم وحيّرهم ، لكنهم لجؤا في المكابرة وأنفوا أن يُسلّموا بأنه كلام الله تعالى تجبراً وطغياناً ، فألبسهم بالتحدي المستمر لباس العجز متيناً محكماً يأخذ بخناقهم ، فتضافرت في إثبات عجزهم دلائل وفيرة من أحوالهم وأقوالهم . وقد درج بعض العلماء على اعتبار قعود العرب عن المعارضة أحد أوجه إعجاز القرآن الكثيرة^(١) . والصواب أن قعودهم عن المعارضة دليل يثبت إعجاز القرآن وليس وجهاً من أوجه إعجازه ، لأن وجه الإعجاز لا بد أن يكون أمراً قائماً بالقرآن ، لذا عمدنا إلى استخلاص « قعودهم عن المعارضة » من أوجه الإعجاز ، ونبوة محمد ﷺ . وألحقنا به ما يشكل معه صيغة متكاملة تثبت إعجاز القرآن الكريم ، وقدمناها في العناصر التالية :

أولاً : أحوال العرب أثبتت عجزهم عن معارضة القرآن .

ثانياً : اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن .

ثالثاً : محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجازاة القرآن .

(١) انظر بيان إعجاز القرآن - لأبي سليمان الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨ هـ) ص ١٩ - ٢٠ .

والنكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي الرماني (٢٩٦ - ٣٨٦ هـ) ص ١٠١

« ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » وانظر إعجاز القرآن - للباقلاني ص ٤٣ - ٤٤ .

رابعاً : العجز عن مثل القرآن في العصر الأول وإلى الأبد .
خامساً : دلالة إعجاز القرآن على نبوة محمد ﷺ .

أولاً : شهادة العرب بعجزهم عن معارضة القرآن

لما خنس المشركون عن معارضة القرآن اعترتهم أحوال بدت
للعيان ، تكفي العاقل تثبتاً من عجزهم ، منها :

١ - نكوصهم عن معارضته وسكوتهم على استمرار التحدي عجز
فاضح :

دخل التحدي على العرب من كافة أقطار قدرتهم البشرية ، وسألهم
الإتيان بمثل القرآن ، وفي هذا توسعة عليهم ، فلم يجبرهم على تكلف
المعارضة من أقوالهم ، إذ لم يخاطبهم « قولوا سورة مثله » لكن ﴿ فأتوا
بسورة مثله ﴾^(١) فما كان بعد هذا أسهل عليهم من النظر في مجدهم
اللغوي المؤثّل ، ليختاروا ما يجدونه كفوّاً للمعارضة وإزالة مرارة
التحدي . فالأدب الجاهلي لم يزل منذ عصر نزول القرآن حتى زماننا هذا
أسمى ما وصل إليه العرب في نطاق الأدب العربي . فلو كان القرآن مقدوراً
للعباد لوجدوا في الأدب الجاهلي ضالتهم ، وكان اتفق لأحد بلغائهم قبل
البعثة أن يأتي بما يوازي القرآن ، مما يمكنهم من المعارضة به ويغنيهم
عن تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال . فلما لم نرهم احتجوا عليه
بكلام سابق من خطبة متقدمة أو رسالة سالفة أو نظم بديع ، ولا عارضوه
به - فقالوا : هذا أفصح مما جئت به أو هو مثله - ظهر جلياً أنه لم يوجد له
نظير وأن ليس إلى معارضته من سبيل . فلو وجد له لدى الجاهلين مثلاً
لنقل إلينا ولعرفناه كما نقلت إلينا أشعارهم ومأثورات فصحاءهم
وحكمائهم ، وكما بلغنا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير

(١) روح المعاني: ج ١١ ص ١١٥ - ١١٦ .

ذلك من أنواع بلاغاتهم وصنوف فصاحتهم^(١) .

لقد حاروا في شأن القرآن حتى استبدَّ بهم العجب من عجزهم عن مثله ، فانفضوا إلى مدافعة التحدي بعلاوات واعتذارات هزيلة . فقالوا كما قال قوم موسى : ﴿ ما هذا إلا سحرٌ مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾^(٢) . وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴿^(٣) وقالوا : ﴿ أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾^(٤) وحكى الله حجتهم : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾^(٥) ونبه الله إلى نعتهم بأنهم أصحاب حقد وعداء ﴿ وتنذر به قوماً لئلا ﴾^(٦) . وذكر اتخاذهم الجدل والخصام مسلماً تجاه الحق . فقال سبحانه : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾^(٧) ثم لجؤوا إلى تهوين أمر الإعجاز القرآني واعتبار هذا التهوين سبباً للعدول عن معارضته . قال تعالى : ﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾^(٨) .

وهكذا التمسوا لأنفسهم عذر القعود عن معارضته بأنه أساطير الأولين أو قول شاعر مجنون أو هو كذب أعانه على اختلاقه أناس آخرون . واعتبروا اتهامهم هذا عذراً يسوغ صمتهم ويبرر عجزهم الفاضح

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٢٤ .

(٢) سورة القصص : ٣٦ .

(٣) سورة الحجر : ٦ .

(٤) سورة الصافات : ٣٦ .

(٥) سورة الفرقان : ٤ - ٥ .

(٦) سورة مريم : ٩٧ .

(٧) سورة الزخرف : ٥٨ .

(٨) سورة الأنفال : ٣١ .

عن المعارضة . . يا للمنطق السديد ؟ ألا ترى أن هذا التهرب من مواجهة التحدي ومن تقديم المعارضة ليس في الواقع إلا إقراراً منهم بالعجز ، وأبي إقرار ؟!

لكن مع تقولهم هذا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم الذين يتقنون صنعة العربية لم يشتغلوا بشيء من المعارضة وما ذاك إلا لعلمهم بعجزهم عنه وقصور فصاحتهم دونه . وقد نسب الله هذا القول إليهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . وذلك لأنه صدر عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار لكونه زعيماً وقاضياً فيهم ، يقولون بقوله ويأترون بأمره ، وكان يحدث القوم تلهية لهم عن القرآن حسب وهمه بقصص استمعها في أسفاره إلى فارس والحيرة عن رستم واسفنديار وغيرهما من كبار العجم ، وبأخبار عن التوراة والإنجيل ، كان استحفظها من اليهود والنصارى حين مر ببلادهم .

أقام المشركون قولهم على المقايسة الخاطئة والمغالطة الفاضحة ، ففي القرآن قصص الأولين وما كان من قصصهم فهم على قول مثله قادرين . وهذا القول غاية المكابرة ونهاية العناد ، إذ تحداهم الله وقرعهم بالعجز سنين كثيرة فتهربوا منه وتشاغلوا عنه بأقاصيص سخيفة ليس في نظمها ولا في دلالتها ما يرفع رؤوس الشرك المنكوسة . لذلك أشار الله إلى صنيعهم هذا على سبيل التوبيخ بإظهار المفارقة العظيمة بين حقيقة أمر القرآن وكونه آيات إلهية جليلة وبراهين مضمجة ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ ويبيّن زعمهم أنه ﴿ أساطير الأولين ﴾ وأنهم على مثله قادرين ، فظهر أن قول النضر بن الحارث (لو نشاء لقلنا مثل هذا)^(١) هو مجرد

(١) وقد نسب القاضي عبد الجبار هذا القول إلى أمية بن خلف الجمحي . المغني : ج ١٧ ص ٢٧ والصواب ما ذكرناه وعليه جمهور المفسرين . انظر تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٠٤ . وروح المعاني ج ٩ ص ١٧٧ .

ادعاء ، وليس إدعاء الفعل يدل على إمكانه ، فلا يمنع من الاستدلال على تعذره . لكن ما بذله الخصم - ههنا - بهتاً ومكابرة ، لتهوين أمر الحجة التي أقيمت عليه ، ولتخفيف عار الهزيمة التي مُني بها والخِذلان الذي حل به ، وإلاً فلو كان الأمر تحت مشيئتهم - كما زعم - فما منعهم أن يشاؤوا معارضته ويتحولوا من الوعد إلى الإنجاز والوفاء . . ؟ فذاك سبيل نيل مرامهم من فض النزاع وحسم الخصومة والاحتراز عن خوض غمار الحروب . . .

فلما لم يقدموا شيئاً مع استمرار التحدي في فسحة مديدة بطلت دعواهم وثبت عجزهم . فهم أصحاب أنفة يستنكفون أن يغلبوا وخاصة في ميدان البيان ، فإنهم فرسانه ، ملكوا أزمته ، وحازوا قصب السبق به ، فحكيمهم وخطبهم وقصائدهم ومعلقاتهم الشعرية على الكعبة مشهورة . وقد كان البليغ فيهم يرصف الخطب أو يقول الشعر في جليل الأغراض والتافه منها ؛ حتى يقول في الحشرات والحيات والهوام . . ويتنافسون في ذلك أقوى التنافس ويتبحرون به أشد التبجح . فهل يصح أن يتمكنوا من معارضته في المعاني الفسيحة والعبائر الفصيحة ، تكديماً له وذباً عن أديانهم وتخلصاً من خزي السكوت تجاه مديد التحدي ، ومن منازعته ورميهم بالضلالة والسفاهة ، ثم يحجموا مع تمكنهم - ويحيلوا أنفسهم على التعاليل ويؤمنوا أتباعهم بالأباطيل - لا جرم أن هذا محال^(١) .

قال الإمام الباقلاني : (فلو كان هذا « القرآن » من ذلك القبيل « الشعر » أو من الجنس الذي ألفوه ، لم تُزل أطماعهم عنه ، ولم يُدهشوا عند وروده عليهم ، فكيف وقد أمهلهم ، وفسخ لهم في الوقت ، وكان يدعو إليه سنين كثيرة . وقال عز من قائل : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذِكُرْ فِيهِ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٤٣ - ٤٤ وروح المعاني : ج ٩ ص ١٧٧ .

من تَذَكَّرَ وجاءكُمُ النذيرُ ﴿١﴾ .

ويظهر العجز عنه بعد طول التفرغ والتحمدي بأن أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرُون عليه .

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يُبينُ عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم ، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة (٢) .

٢ - الطبيعة البشرية تجبرهم على معارضته لو كانوا قادرين :

ومما يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن ، أن الله قد جعله دليلاً على صدق نبيه محمد ﷺ ، فتحدى به العرب قاطبة أن يأتيوا بسورة من مثله ، فانقطعوا دونه . وقد أقام على تحديهم نحو عشرين سنة معلناً عليهم النكير زارياً على أديانهم مسفهاً آراءهم وأحلامهم . فلو كان بوسعهم قول مثله لقالوه ، فإن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما يقدر عليه من الوسائل والأحاييل ، لا سيما إذا بدده بعظائم الأمور من خلع آلهته وتضليل آبائه وتسفيه رأيه في معتقده وإظهار ما يوجب الانقياد لطاعته وضمه إلى زمرة الاتباع بعد أن كان متبوعاً وإدخاله في تكاليف شاقة وعبادات تخالف أهواء النفس . فإنهم لو كانوا قادرين على معارضته لم يجز - بمقتضى الطبيعة البشرية - أن يتفق منهم ترك المعارضة مع بلوغهم ذروة الفصاحة والذراية والذلاقة وفيهم الشعراء المفلقون والخطباء المصارع . وهو يشيد فيما يتلوه عليهم بعظيم شأنه وتفخيم أمره كقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٣) ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنِ

(١) سورة فاطر : ٣٧ .

(٢) إعجاز القرآن : ص ٢٨٩ .

(٣) سورة النحل : ٢ .

العظيم ﴿١﴾ ﴿١﴾ وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٢﴾ وقوله :
 ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
 يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ
 يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿إِنَّا
 نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٤﴾ .

ونحو ذلك في القرآن كثير .

ويستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ومجاراته ، ويقرعهم
 ويؤنبهم ويكرر تحديهم وإعلان عجزهم منفردين ومستنصرين بألتهم
 وبلغائهم بل بالإنس والجن جميعاً ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على
 أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
 ظهيراً ﴿٥﴾ .

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : (أما الأحوال « أي
 أحوال العرب بعد التحدي بالقرآن » فدلّت من حيث كان المتعارف من
 عادات الناس التي لا تختلف وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا
 لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ولا ينتحلون العجز

(١) سورة الحجر : ٨٧ .

(٢) سورة الزخرف : ٤٤ .

(٣) سورة الزمر : ٢٣ ، والمراد من قوله ﴿سبعاً من المثاني﴾ فاتحة الكتاب ، فإن آياتها
 سبع . وسميت المثاني لأنها تتلى في كل صلاة بقراءتها ، أو لأن فيها ثناء على الله تعالى .
 والمراد من قوله : ﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾ يشبه بعضه بعضاً في فصاحته وبلغته ؛
 ونظمه وإعجازه ؛ وجلالة معانيه وأحكامه ؛ وروعة هدايته وحكمته . وهو « مثاني » يعني
 تتلى وتكرر فيه القصص والمواعظ والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، وتتلى تلاوته فلا
 يمل على كثرة الترداد . و﴿تقشعر منه جلود . . .﴾ تعلوها قشعريرة ورعدة خوفاً مما فيه
 من الوعيد . وفي التعبير كناية عن شدة خوفهم من الله تعالى .

(٤) سورة الحجر : ٩ .

(٥) سورة الإسراء : ٨٨ .

وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الاقليم الذي هو فيه من يئأى^(١) بنفسه ، ويُبدل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل ، ويبدل ما لديه من المنة ، حتى أنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوع من التمثل . هذا وهو لم ير هذا الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض ، وإن كان المدعي ذلك بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو انه منه أفضل . فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مماثنته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذي يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته . وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقابلة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جد كل واحد منهما في مغالبة الآخر وكيف جعل ذلك همه وكده وقصر عليه دهره . هذا وليس به ولا يخشى إلا أن يُقضى لصاحبه بأنه أشعر منه ، وأن خاطره أحد وقوافيه أشرد ، لا ينازعه ملكاً ولا يفتات عليه بغلبته له حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ولا يضرب عليه ضريبة^(٢) .

(وإذا كان هذا واجباً بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجري على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ؛ وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية والأنفة والحمية ؛ من يدعي النبوة ويُخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى

(١) يئأى : يفخر ويباهي .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية - للجرجاني » ص ١٠٨ - ١١٠ .

الخلق كافة وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به ﷺ ، ثم يقول : وحُجتي أن الله تعالى قد أنزل عليّ كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرّون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ؛ ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله وقريب منه ؟ (١) .

٣ - القادر على المعارضة لا يرضى بمخاطر الحروب بديلاً عنها :

ألا ترى أنهم كانوا يفاخر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، فكانوا يتنافسون ويتبجحون ويتفاخرون بينهم ، ولهم في ذلك مواقف معروفة وآثار منقولة مشهورة . فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه لو كانوا قادرين على تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ؟ وقد توفر لحملهم على هذا كل الدواعي الملزمة ، والحمية حميتهم والهمم الكبيرة العالية همهم !! ومعلوم أنهم لو استطاعوا أن يعارضوه بمثل القرآن لكان فيه تكذيب قوله وتوهين أمره ونكوص أصحابه عن دينه وتفريق جمعه . فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ، وظل أمره يعلو وأزره يشتد وخطره يزداد ، وهم ماكنثون على السكوت عن مقارعتة والقدح في دلالة آيته ، صار معلوماً أنهم عاجزون عن معارضته وتوهين حجته . فلو كان ذلك في وسعهم وتحت مقدورهم لما عدلوا عن السهل الدمث من القول إلى ركوب متن كل صعب وذلول وتكلف الوعر المضني من الفعل بخوض غمار الحروب . فهذا ما لا يختاره عاقل بديلاً ولا يرتضيه ذولب . وقريش - قومه - خاصة موصوفون برزانة الاحلام ووفرة العقول والألباب ، ولديهم

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية - للجرجاني » ص ١٠٨ - ١١٠ .

من لا يضاهاى شعره أو تُبارى خطبه . أيعقل أن يكونوا قادرين على مثله ويعرضوا عن التوصل به إلى تخليص أنفسهم وأهلهم وأموالهم من حكمه؟! لا جرم أنهم يدركون أن في معارضته غنى لهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال والجلاء عن الأوطان وتسليم الأهل والذرية للسيبي ؛ وتحكيم السيف في الأعناق حتى أريق المهج وذهبت الأموال وقُطعت الأرحام . أيعقل أن يعرضوا عن تخليص أنفسهم من ذلك كله بأمر سهل قريب معتاد في لسانهم مألوف في خطابهم لو كانوا عليه قادرين!!؟؟^(١) .

بين الإمام الجرجاني ذلك ومثّل له فقال :

(أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم وأولادهم ، وعمدته التي يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ودعاء من يدعوه ؛ ودعوى له إذا هي أبطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يُشتغل بإبطالها مع إمكان ذلك ومع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع ؟ وهل مثّل هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى ، إن هي سُمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه ، فأحضر بيته من دعواه تلك ، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تلك البيته أو يعارضها ، وما يحول على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويُضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الأخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ، ويقتل فيها أولاده وأعزته ، وينهك

(١) للجاحظ في هذا المعنى بيان بليغ أخاذ . انظر الاتقان في علوم القرآن : ج ٢ ص

عشيرته ويغنم أمواله ، ولا يقع في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي قضى لخصمه ، ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المحق ، فيقول : لقد كانت عندي - حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده ، قد تركتها تهاوناً بأمره أو أنسيته ، أو منع مانع دون عرضها ، وما هي هذه قد جئتكم بها فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غررتم ؟ ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين لما صح أن يفعل ذلك^(١) ، فكيف يقوم هم أرجح أهل زمانهم عقولاً وأكملهم معرفة وأجزلهم رأياً وأثقبهم بصيرة؟! (٢) .

ومسألة ترك العرب معارضة القرآن وخوضهم غمار الحروب بديلاً عنها ، قد أوردها الخطابي والرماني^(٣) على أنها وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وقد أحببت أن أضعها في موضعها الصحيح - كما مر بك - وأنبه على أنها دليل عظيم يثبت أصل إعجاز القرآن الكريم . وقد أوردها على هذا الأساس الإمام الباقلاني رضي الله عنه^(٤) . وقد اعتبر الجرجاني^(٥) - إمام البلاغة - في إثبات إعجاز القرآن نوعين من الأدلة : دلالة أحوال العرب ؛ ودلالة أقوالهم ، كما بينا .

٤ - يستحيل ترك معارضته مع توفر الدواعي القوية عليها إلا لعجزهم :

هل يجوز في طبع العرب ومجرى عاداتهم ؛ مع احتياجهم واضطرارهم إلى معارضة القرآن ؛ أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن

(١) اسم الإشارة « ذلك » عائد على قوله « ولا يقع في أثناء تلك الحال . . . » .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية للجرجاني » ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ١٩ - ٢٠ والنكت في إعجاز القرآن - للرماني - ص ٦٩ و ١٠١ .

(٤) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٢٠ - ٢٤ .

(٥) الرسالة الشافية - للجرجاني ص ١٠٨ - ١١١ (توفي سنة ٤٧١ هـ) .

يضربوا عنه الذكر ولا يظفروا فيه لولا عدم القدرة عليه . . ؟ فإن توفر
الدواعي والدوافع في الفرد أو الجماعة لعمل شيء هام مع إمكانه وعدم
العائق تجاهه يوجب فعله لا محالة .

قال القاضي عبد الجبار رحمة الله عليه : (أما الذي يُعرف به توفر
دواعيهم أنا نعلم أن من قرَّعه غيره بالعجز عن أمر أتى به . . أن ذلك
التقريع يحرك طبعه إذا كان عالماً به . فإن انضاف إلى ذلك أن يكون
المقرِّع من قومه وأبناء جنسه ، كانت الدواعي أقوى . فإن كان المقرِّع
ممن لم تظهر له تلك الأحوال العظيمة الموجبة للرياسة والنباهة من قبل ،
فهو أقوى . فإن انضاف إلى التقريع أنه صرفهم لذلك عن عادات وأغراض
من قبل ؛ كان أقوى ، لأنه ﷺ أوجب لمكان القرآن انتقالهم عن العادات
في الدين ، لأنه سقَّه آلهتهم وطريقتهم في الدين بل سقَّه أحلامهم
وعقولهم لاقدامهم على ما كانوا يتدينون به . . ونقلهم مع ذلك عن عادات
تختص الدنيا ، من رياضات وأحوال كانوا عليها ، وصيَّروهم تبعاً بعد أن
كانوا متبوعين ، وألزمهم الكلف على النفس ، والحقوق في المال ،
وأبطل رياضات البعض على البعض . . . حتى منع التوارث بين أهل
ملتين ، وقطع أحكام الأنساب باختلاف الدين ، وجمع لهم وجوه المذلة
بالثبات على طريقتهم ، وعرفهم أنواع العز بالانتقال إلى شريعته . . .
وانضاف إلى ذلك ما كانوا يتحققونه ، وتظهر أماراته من نقصان عددهم
وزيادة عدده وضعف حالهم وقوة حاله ، لأجل عجزهم عن مساواته . . .
وكل ذلك مما يقوي الدواعي . . فلا يمكن أن يقال : أنهم ذهبوا عن ذلك
بسهو ؛ وغفلة ؛ ولئس ؛ وشبهة)^(١) .

ومثلاً مشركي العرب في تركهم معارضة القرآن العزيز ؛ مع توفر

(١) المغني « إعجاز القرآن » جـ ١٦ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ . وانظر فيه أيضاً إثبات أحوال العرب
عجزهم عن معارضة القرآن ، ص ٢٤٣ و ٢٦٨ و ٢٧١ و ٣٠١ و ٣٣٧ - ٣٤٢ .

الدواعي القوية الملحة على مباشرتها ؛ مثل إنسان بلغ به العطش من الشدة مبلغاً خاف منه هلاك نفسه ، وبين يديه ماء معرض للشرب وكله دوافع ملحة تدعوه للشرب منه درءاً لخطر الهلاك . فإن لم يشربه دل ذلك على عجزه عنه لعائق قوي مانع من شربه ، فإنه لا يصح في العقل ولا في الواقع أن لا يشربه مع توفر الدواعي وعدم المانع حتى يموت عطشاً . . . فذلك مما لا يقع في طبائع عقلاء البشر . . . فكذلك توفرت الدوافع القوية عند العرب كافة إلى معارضة القرآن ، فلما لم تقع منهم على الرغم من تفوقهم في ضروب البيان واللسن ، وعدلوا عنها إلى الإحطار بأنفسهم وزارارهم وأموالهم . . . دل ذلك على عجزهم عن مثله عجزاً متأسلاً . وهذا بين واضح لا يشكك على عاقل (١) .

قال الإمام الجرجاني : (وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته ، ومن الذي ادعاه حداً تركوا معهم أحلامهم الراجحة ، وخرجوا له طاعة عن عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكروه ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكل من تبعه بضروب المكايده ، وأرادوهم بأنواع الشر . وهل سُمع قط بندي عقل ومُسكة استطاع أن يُخرس خصماً له اشتط في دعواه بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُسفه فيها وينسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعزَّ عليه المخلص ؟ .

(أم هل عرف في مجرى العادات وفي دواعي النفوس ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه ، فلا يذكرها ولا يفصح بها ولا يُجلي عن وجهها ولا يريه الغلط فيما قال والكذب فيما ادعى ، ولا

(١) انظر إعجاز القرآن - للباقلاني ص ١٩ - ٢٤ وثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ١٩ - ٢٠ من « رسالة بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي » و « النكت في إعجاز القرآن - لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ص ٦٩ و ١٠١ » .

يدعي أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ، بل يجعل أول جوابه له ومعارضته إياه التسرع إليه والسفه عليه والإقدام على قطع رحمه وعلى الإفراط في أذاه (?!؟) (١) .

ثانياً: اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن

وقد جاءت مصداق ما قلنا آراء فرسان الفصاحة والبلاغة المتقدمين ، سواء مَنْ ظل منهم مقيماً على العناد والكفر وَمَنْ خالطت منهم بشاشة الإيمان قلبه .

١ - حقيقة رأي المشركين في القرآن :

تحير المشركون لروعة أسلوب القرآن إذ لم يسمعوا من قبل له مثيلاً ، فقد صدر عن سادتهم الفصحاء البلغاء أقوال صريحة على السجية العربية ، تشير إلى علو كعبه ، مع أنهم مخالفون لرسول الله ﷺ . وإنما بدرت منهم تلك الأقوال إبان تفكرهم في القرآن وحيرتهم في جمال نظمه وجلال معناه . فجاء كل منها اعترافاً عفويّاً بريئاً من التكلف . لذا فهو أدل ما يكون منهم على عرفانهم مكانة القرآن ؛ وإدراكهم رفعة شأنه واستعلاءه على العبقريّة البشرية .

فهذا الوليد بن المغيرة من زعماء المشركين جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لِمَ ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبّله ، قال الوليد : قد علمت قريش أنني أكثرها مالاً . قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنتك كاره له . قال الوليد : وماذا أقول ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية للجرجاني » ص ١١٠ .

برجز ولا قصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ؛ مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقولَ فيه ، قال : فدعني أفكّر . فلما فكّر قال : هذا سحر يُؤثر ، يَأُثره^(١) عن غيره ، فنزلت :

﴿ ذرني ومَن خلقت وحيداً ، وجعلتُ له مالاً ممدوداً ، وبينَ شهوداً ، ومهدتُ له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدرٌ فقتل كيف قدر . ثم قُتل كيف قدر . ثم نظرَ ثم عبسَ وبسرَ ، ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يُؤثرُ ﴾^(٢) .

فليس اعتراف أبليغ مما صدر عن الوليد بن المغيرة ، فهو على رياسته وتقدمه في العلم بالفصاحة ينزه القرآن عن مشابهة شيء من فنون القول الممكنة للعرب . ويجلّي البيان عن رفعة مقامه على هاتيك الأفانين حتى تندحر جميعها دونه : إنه ليعلو وما يعلَى وإنه ليحطم ما تحته . فما الذي تراه صانعاً بعد أن بهره جلال القرآن وجماله ، وضاق صدره بتفوقه ونفوقه . . . ؟ كان لا بد أن ينسبه إلى أمر يراه العامة عسيراً عليهم ميسوراً لغيرهم ليصرفهم عن الايمان والاذعان ، فقال : ﴿ هذا سحر يؤثر ﴾ كما فعل سلفه فرعون من قبل . وما كان ليقوله لو علم إمكان معارضته . وإذا استقر في علمك أن السحر منبث آئذ في أرجاء الجزيرة شائع في أهلها ، حُق لك أن تقيم الحجّة ، فتسأل : ما الذي منعهم إذن من مثله ؟

(١) لتعرض لما قبله : لتنتفع بماله . طلاوة : رونقاً وحسناً . مغدق : كثير الماء . يَأثره : ينقله .

(٢) سورة المدثر: ١١ - ٢٤ ، والحديث رواه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وروى الإمام محمد بن إسحاق في كتاب السيرة : أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقومُ إلى محمدٍ فأكلمه وأعرضُ عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحابَ رسول الله ﷺ قد اشتد ساعدهم ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقتَ به جماعتهم وسفَهتَ به أحلامهم وعبتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم فاسمعُ مني أعرضُ عليك أموراً تنظرُ فيها لعلك تقبلُ منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليدِ اسمع » قال : يا ابن أخي إن كنتَ إنما تُريدُ بما جئتُ به من هذا الأمرِ مالاَ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاَ ، وإن كنتَ تريدُ به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطعُ أمراً دونك ، وإن كنتَ تُريدُ به مُلكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِيئاً تراه لا تستطيعُ رده عن نفسك طلبنا لك الأطباءَ وبدلنا فيه أموالنا حتى نُبرئكَ منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغْتَ يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : فاستمع مني ، قال : أفعل . قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرضُ أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾^(١) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه فلما سمع عتبة أنصتَ لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم

(١) سورة فصلت : ١ - ٤ .

لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وَرَأَكَ يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أنني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ ، فإن تُصبه العربُ فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزمكم وكنتم أسعدَ به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

وقد روى الحافظان البزار وأبو يعلى الحادثة نفسها على غير هذا النمط ، غير أن سياق ابن إسحاق أشبه مما عندهما - كما قال ابن كثير - والله أعلم^(١) .

ثبت لك بهذا إعجاز القرآن المجيد بدلالة أقوال مشركي العرب أيضاً ، بعد أن ثبت بدلالة أحوالهم من قبل ، واذكر أنهم تركوا معارضته على الرغم من عنف التحدي واستمراره ، وأن فحولاً من بلغائهم قد آمنوا وأخلصوا ، وأن من أصرَّ على الكفر قد اتضحت له دلائل الإيمان ، لكن كفرانه له أسباب أخرى خارجة عن قيام الأدلة وإعجاز القرآن ؛ وقائمة على التكبر والعناد واتباع الهوى والجهل والتعصب الأعمى .

قال الإمام الباقلاني رحمة الله عليه : (إن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاحد ؛ وبين كافر نعمة وحاسد ؛ وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ؛ وحائر عن النظر في الدلالات ؛ وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ؛ وغاؤٍ تحت حباله الشيطان ومقدوف

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٩٠ - ٩١ .

بخذلان الرحمن . وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة .
وهلا جعلت بإزاء الكفرة ، مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن
إسلامه وكعب بن زهير في صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم :
من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ؟
على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر ، أو بحر زاخر (١) .

٢ - عقلاء فصحاء عرفوا إعجاز القرآن فآمنوا به :

وهاك أقوال أناس كانوا على جاهلية فلامس القرآن شغاف قلوبهم
وملك أفئدتهم وعقولهم ، فعرفوا مزيته وإعجازه فقادهم إلى صراط الحق
القيوم .

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن
إسلامه ، وفيه : أن أنيساً أخوا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر :
(لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله . قلت : فما يقول
الناس ؟ قال : يقولون شاعر ؛ كاهن ؛ ساحر . وكان أنيس أحد
الشعراء . قال أنيس : لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد
وضعتُ قوله على أقرأء الشعر فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر .
والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون) (٢) .

وإليك تصريح جبير بن مطعم أن سبب تحول قلبه إلى الإسلام ؛ أنه
أصغى إلى تلاوة الرسول سورة الطور في صلاة المغرب .

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) صحيح مسلم - فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه - ج ٤ ص
١٩٢٠ - طبع عيسى البابي الحلبي بمصر . وصحيح البخاري - كتاب مناقب الأنصار -
باب إسلام أبي ذر الغفاري - ج ٤ ص ٢٤١ - أما قوله : « على دينك » : أي مثلك يعبد
الله . والمراد بقوله : « أقرأء الشعر » : طرقة وبحوره ، ويقول : « فما يلتئم .. أنه
شعر » : لا يوافق نسق الشعر .

فقد روى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال :
(سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، وذلك أول ما قرأ الإيمان في
قلبي) (١) .

وكان عمر بن الخطاب في جاهليته أشد الناس عداء للإسلام وأذى
للمسلمين فما كان أحد منهم يحلم بإسلامه . فلما استعد ضعفاء الإسلام
للهجرة إلى الحبشة . مرَّ عمر بالركب قبل انطلاقه كما روت أم عبد الله
زوج عامر بن ربيعة : كان عامر ذاهباً لبعض حاجاتنا إذ أقبل عمر بن
الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه . قالت : وكنا نلقى منه البلاء
أذى لنا وشدة علينا . قالت : فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله . قالت :
فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، أذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل
الله لنا مخرجاً . قالت فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن
أراها . ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجننا . قالت : فجاء عامر
بحاجته تلك . فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه
علينا . . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : قلت : نعم . قال : فلا
يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب . قالت : يأساً منه لما كان
يرى من غلظته وقسوته على الإسلام .

وهذا عمر يمضي في بعض طرق مكة متوشحاً سيفه . فلقيه نعيم بن
عبد الله وكان يكتُم إيمانه ، فسأله أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً
هذا الصابيء الذي فرَّق أمر قريش وسَفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها
فأقتله ، فقال نعيم : لقد غرتك نفسك . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم
أمرهم قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد
وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه .

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي والسير - باب (١٢) قبيل باب تسمية من سُمي أهل
بدر - ج ٥ ص ٢٠ .

فتحول عمر إلى بيت أخته . وكان خَبَاب بن الأرت يعلمها وزوجها سورة طه من صحيفة معه . فلما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب . فلما دخل عمر قال : ما هذه الهزيمة التي سمعتُ؟ قالوا له : ما سمعتُ شيئاً قال : بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بصره سعيد ، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فقالا له : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى ما بأخته من الدم ، ندم وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، فاستحلفتها أن يردها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى . . ﴾ .

ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خَبَاب خرج إليه فقال له : يا عمر والله إنني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإنني سمعته أمس وهو يقول :

« اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب »
فإن الله الله يا عمر . .

فقال له عمر : فدُلّني يا خَبَاب على محمد حتى آتية فأسلم ، فدُلّه فذهب إليه فأعلن إسلامه^(١) .

(١) وقد تقدمت خلاصة أخرى للقصة عند الحديث عن أخلاقه ﷺ « شجاعته » في كتابي : نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ١٢٤ - ١٢٥ . وهي خلاصة ما رواه ابن هشام في السيرة ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٨ . وقد أخرجها أيضاً محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه وأبو نعيم من طريقه ومن طريق أخرى . انظر الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني في ترجمة عمر بن الخطاب وفاطمة بنت الخطاب .

أرأيت كيف اعترف المخالفون من المشركين بسمو مكانة القرآن وكيف أثنى عليه أناس تحولوا بسببه من الشرك إلى الإسلام بيقين . فإنه لم يصدر ثناء هؤلاء واعتراف أولئك المشركين - حين صدر - إلا تنويهاً بأمر يعرفه ذوو الخبرة ، فهو إخبار عن شيء باد للعيون لا يرسل أحدهم بصره إلا رآه . فقد أطلق كل من القائلين قوله وهو واثق أنه معلوم للجميع . فليس من منصف بصير بمراتب الفضل في اللغة - مؤمناً كان أم جاحداً - إلا وجد نفسه مسوقاً للاعتراف بإعجازه ، شاء أم أبى ، لظهوره عند نظرائه وشدة وضوحه . لذا فإن أقوالهم دليل بالغ على إعجاز القرآن^(١) . وهذا ما دعانا لسردها .

٣ - شهادة الأجنب والنصارى بعظمة القرآن وإعجازه :

إن عدم التمكن من ترجمة أسلوب من الأساليب إلى لغة أخرى مع المحافظة على بلاغة الأصل ليدل على رفعة وسمو مكانة هذا الأسلوب . وقد ذكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى أن رجلاً بريطانياً يدعى (محمد مراماديوك بكتل) قد نقل القرآن إلى الإنكليزية ، لكنه قدم القاهرة ليدارس المتقنين للغتين معاً فيما تعثر في أداء معناه . وقد صحح بمساعدتهم ما تذكروا فيه . ثم لم تزل ترجمته ناقصة ، وقد عقد العزم على تصحيحها مرة ثانية .

أقول : وأعتقد جازماً أنها لو ظلت تصحح إلى الأبد فلن تدرك بلاغة كلام الله العربي المبين إطلاقاً ، وذلك بسببين رئيسيين : قصور فهم الإنسان وعجزه عن هذا الأسلوب البليغ . وقصور اللغة التي ينقل إليها .

وقد اعترف بالعجز عن تحقيق هذا الغرض - قبله - الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي وقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف

(١) الرسالة الشافية للمرجاني « ثلاث رسائل في الاعجاز » ص ١١٤ - ١١٥ .

الفرنسية بترجمة (٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرر فيها ، ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ :

(أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا . فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً . والحق الواقع أن أكثر الكُتّاب شكاً وارتياباً قد خضعوا لسلطان تأثيره .

وإن سلطانه على الثلاثمائة الملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجنب « المبشرين » يعترفون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين إلى الآن .

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ؛ مُتجانساً مُسججاً ، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع « الذي لم يسمع بمثله » بلغة أخرى . وخاصة الفرنسية القاسية الضيقة « التي لا تتسع للتعبير عن الشعور » . . وزدّ على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية . وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية (١) .

وقد خط الشيخ رشيد رضا مقدمة لكتاب إعجاز القرآن - لمصطفى صادق الرافعي - رحمهما الله تعالى . ووبخ فيها الدعاة إلى العامية الذين يبغون صد المسلمين عن هداية الإسلام وعن الإيمان بإعجاز القرآن . ثم قال :

(١) الوحي المحمدي : ص ٢١ - ٢٢ .

(فإن مَنْ أُوتِي حظاً من بيان هذه اللغة وفاز بسهم رابح من آدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها ، لا يملك أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته ؛ وبأسلوبه في نظم عبارته . وقد صرح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرين الاستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكية في كتابه « الخواطر الحسان ») .

وعقب الرافي على ذلك بقوله : (وصرح لنا بذلك « بإعجاز القرآن » أديب هذه الملة وبلغها الشيخ إبراهيم اليازجي الشهير . وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية . وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد) . وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الاستاذ خليل مطران ، ولا نعرف من شعراء القوم مَنْ يجاربه فأقر لنا بمثل ما أقر به أستاذه اليازجي ، والأمر بعد إلى العقل « المنصف » ، والعقل « المنصف » ليس له دين إلا الحق . والحق واحد لا يتغير^(١) .

أقول : ولهذا نظائر كثيرة فقد أشاد الأديب اللبناني المعاصر مارون عبود في مقالاته بالقرآن وأعلن اعتقاده بإعجاز القرآن ومحبه محمد ﷺ كما أعلن عن تسميته ولده محمداً ، ولا أتصور أديباً متذوقاً حيادي الفكر والنظر يخرج عن الاعتراف بإعجاز القرآن قيد أنملة .

وهذا الأديب الشاعر المعاصر نقولاً حنا قد تلا القرآن ، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وزاده إيماناً بالله على إيمانه ، وقذف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز ، وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء ، فهو معجزة إلهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها . وهكذا أعلن الشاعر إسلامه بأسلوب علمي بارع ، قال نقولاً حنا مقدمة لقصيدته الرائعة « من وحي القرآن » :

(١) عن وحي القلم - بتصرف يسير ص ١٥ - ١٦ .

« قرأت القرآن فأذهلني ، وتعمقتُ به ففتنتني ، ثم أعدت القراءة فآمنت .. آمنت بالقرآن الإلهي العظيم ، وبالرسول مَنْ حملة .. النبي العربي الكريم ، أما الله فَمِنْ نصرانيتي ورثت إيماني به ، وبالفرقان عظيم هذا الإيمان ... »

وكيف لا أوْمَن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظرها وأحسها كل حين .. هي معجزة لا كبقية المعجزات .. معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها ، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشّر بها .

وكان يقول : « وكم احتاجت واحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لِحُضْر الخلق على اعتناقها ، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبّت أصولها في القلوب . أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن . فهو أعلم معلم وأهدى مبشر ، وهو أصدق شاهداً وأبلغ حجة وأدمغ برهاناً .. هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي ، المنظورة المحسوسة في كل زمان .. ومن إيماني العميق هذا استلهمت أبيات قصيدتي هذه »^(١) .

وذكر في قصيدته ثبوت نبوة محمد ﷺ بمعجزات كثيرة أجراها

القرآن :

يقولون ما آياته ، ضلّ سعيهم
كفى معجز الفرقان للناس آية
وآياته - ليست تعدّ - عظام^(٢)
علا وسما كالنجم ليس يُرام
فكل بليغ عنده ظل صامتاً
كأنّ على الأفواه صُرّ كمام^(٣)

(١) من وحي القرآن - نقولا حنا ص ١ .

(٢) « ليست تعد » جملة معترضة بين المبتدأ « آياته » والخبر « عظام » . والمراد : إن آيات

النبي عظام أي معجزاته عظيمة جداً وكثيرة لا يحيط بها العد والاحصاء .

(٣) الصر : الشد أو الربط . الكمام : ما يكم به فم البعير لئلا يأكل أو يعض .

كفى نصره فرداً تعاديه أمة
 وشاء إله العرش بالناس رحمة
 ففرق ما بين الضلالة والهدى
 أتاهم بقرآن السلام رسوله
 كتاب هدى لا ريب فيه مشرع
 مفصلة آياته عربية
 تلا كتب التنزيل لكن مكملأ
 فصيح بليغ نطقه وبيانه
 تنزه عن هجر فما اللفظ فاحش
 تجاوب أصداء التلاوة في قبا
 ومن ينصر الرحمن كيف يضام^(١)؟
 وأن يتلاشى حقدهم وخصام
 بفرقان نور لم يشبهه قتام
 فطاف بأرجاء البلاد سلام
 وللسلم وال عمران فيه دعام
 فصاح بها عز البيان عظام
 فذي أول التشريع وهو ختام
 قريب بعيد فهمه ومرام
 ولا فيه بهتان وليس يذام^(٢)
 فشق لها في المشرقين إمام^(٣)

ثالثاً: محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجازاة القرآن:

انبرى باندفاع قوي مسيلمة الكذاب لمعارضة القرآن وألقى على
 الملأ كلاماً زعم أنه قرآن منزل فإذا هو أخس من أن يشتغل به مشتغل ، أو
 يفكر فيه عاقل . إنما نقل منه طرفاً ليعجب الناظر كيف أضل على ركاكته
 أقواماً اشتملهم ميدان جهل فسيح . فتبعوه تلبية للعصبية الجاهلية ولا
 نطيل عليك - أيها القارئ - خشية أن يبهظ ثقل سخفه كاهلك . لقد
 قال : (والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن
 الأبيض إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون !) .

وقال : (ضفدع بنت ضفدعين نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء
 وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين . لنا نصف
 الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون) .

(١) من وحي القرآن : ص ٥ - ٦ .

(٢) يذام : يعاب . .

(٣) إمام : طريق . انظر من وحي القرآن : ص ٨ .

وكان يقول : (والمبديات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحنناً ، والخابزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، واللاقمات لقمماً ، إهالةً وسمناً ؛ لقد فضلتكم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ فأووه ، والباغي فناوئوه) .

وجرت بينه وبين سجاح مساجلة من ذلك النوع نضرب عنها الذكر وفاء بوعدنا .

روى الخطابي بإسناده (أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفي رسول الله ﷺ ، وعمرو ثم . قال عمرو : فأقبلت حتى مررتُ عليّ مسيلمة فأعطاني الأمان . ثم قال : إن محمداً أرسل في جسيم الأمور وأرسلتُ في المحقرات . فقلت : اعرض عليّ ما تقول . فقال : يا ضفدعُ نقي فإنك نعم ما تنقين . لا وارداً تنفرين ولا ماءً تُكدرين ، يا وبرُ يا وبرُ ، يدانٍ وصدور ، وسائرِكِ حضر^(١) نفر) .

ثم أتى أناسٌ يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض ، فتسجى بقטיפفة ثم كشف رأسه فقال : (والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاء بنو أبي مسلم من مُحرم) ثم تسجى الثانية فقال : (والليل الدامس ، والذئب الهامس ما حرّمته رطباً إلا كحرّمته يابس قدموا فلا أرى عليكم فيما صنعتُم شيئاً) . قال : قال عمرو : أما والله إنك تعلم وإنما لنعلم أنك من الكاذبين . فتوعدني .

وقدّم قومٌ من ربيعة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فسألهم عن كذابهم ، فحكوا له بعض تلك الألفاظ . فقال أبو بكر رضي الله عنه :

(١) كذا في الأصل . لكن الشيخ عبد الله صديق قد علق عليه في تحقيقه رسالة الخطابي ص ٧٦ بترجيح ما وقف عليه في تفسير ابن كثير بأن أصل العبارة هكذا : « وسيرك حفر ونقر » أما في طبعة دار الشعب لتفسير ابن كثير فقد اضطربت العبارة في موضعي ورودها (٤ / ١٩٢ و ٤٩٩) فلا يظهر للباحث ضبطها في الأصل !! .

(سبحان الله ! ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن إَلٍ « يعني عن ربوبية » فأين كان يذهب بكم !؟) .

وبعد : فهل يخالـج أحداً شكُّ في ضلال هذا المدعي وتهافت برهانه ودليله ! فأَي بلاغة في هذا الكلام ؟ وأي حكمة فيه ؟ وهل يتوهم ذو لب أن فيه معارضة للقرآن أو مبارأة له على وجه من الوجوه ؟ كيف وقد صرّح الدعويّ - وهو أعلم بنفسه وبمستوى دعوته وأقواله - أنه أرسل في المحقّرات . . ؟؟ وليس أحقر ولا أقل مما صدر عنه . ولولا العصبية والحمية القبيلة الهوجاء لما تبعه أحد من قومه ، فإنه لا يشتبه على عاقل سخف كلامه ، غير أنهم أرادوا بمتابعته منافسة قريش في زعامة الجزيرة العربية^(١) ، حتى قالوا : (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) . لذا فإن العرب لم يحتجوا به ولا بكلام أضرابه في معارضة القرآن ولم يأبهوا له ، لعلمهم أنه سخيف الأسلوب مضطرب النسخ ، مبتذل المعنى ، لا ينهض ولا يتماسك .

فلأن يبذل عربي قُح فصيح في صلب الجزيرة محاولة المعارضة فيبوء بالإخفاق الذريع المزري ، لهو دليل على البون الشاسع بين مستوى بلاغة القرآن والمستوى الذي يتسع له طوق البشر . ولو أنّ فصحاء العربية آنذ في أنفسهم قدرة على مضاهاة القرآن ، لافترضوا وجود هذا الدعويّ ، ولأمدّوه بحصيلة قرائحهم ، ليتمكنوا بذلك من هزم عدوهم ، الذي أرقّ ليلهم وأقضّ مضاجعهم ، ولكن عرف كل من فصحاء القوم حدّه فوقف عنده .

قال الخطابي : (وإذا أنتَ وقفتَ على شروط المعارضات ورسومها ؛ وتبيّنتَ مذاهبها ووجوهها ؛ علمتَ أنّ القومَ لم يصنعوا في

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ١٥٦ - ١٥٨ ورسالة بيان إعجاز القرآن - للخطابي « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ٥١ - ٥٢ » .

معارضة القرآن شيئاً ، ولم يأتوا من أحكامها بشيء بته . والأمر في ذلك بين واضح ، لا يخفى على ذي مُسكة ذكي والحمد لله (١) .

رابعاً : خلود إعجاز القرآن إلى الأبد :

ثبت من غير امتراء عجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه . ومضى وجه دلالة ظاهراً في إثبات نبوة محمد ﷺ . لكن رُبَّ سائل يسأل : هل يعجز الناس في الأعصر التالية عن معارضة القرآن ؟ .

والإجابة عن هذا تتخذ عندي طريقين سديدين :

أولاهما : أننا علمنا يقيناً عجز البلغاء في عصر البعثة المحمدية عن معارضة القرآن بسورة من مثله . وهذا كاف في الدلالة على أن من بعدهم أعجز ، ذلك أن الأوائل كانوا يفتنون في مصارف القول حتى حازوا قصب السبق ، فلم يبق مجال لمن بعدهم للتفوق عليهم في الفصاحة والبلاغة ، وأحسنُ أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم ، أما التقدمُ عليهم فأمر لم يعهدوه في أنفسهم وهم أدري ببضاعتهم . فإذا وجدناهم يقرّون بأن الأصل والقدوة في البيان وبلاغة الكلم هم العرب الأوائل ، وأنَّ من عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين عن زمان النبي ﷺ من خطباء وبلغاء وشعراء أنهم زادوا على الأولين الذين عاصروا نزول القرآن ، وكانوا أول من قرّعهم بالتحدي . فإن القوم الذين خلفوهم تبرؤوا من ادعاء مداناتهم فضلاً عن الزيادة عليهم !!

وفي هذا يقول خالد بن صفوان : (كيف نُجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟) .

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ثلاث رسائل : ص ٦٠ .

ويرى الجاحظ للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة
والبلاغة . ويناظر في ذلك الشعبية ويُجهلهم ويُسفه أحلامهم لإنكارهم
ذلك ، ويحكم عليهم بالشقوة والتهالك في العصبية العمياء . . ثم يقول :
(ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في
أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ومن المشور والأسجاع ، ومن
المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة
الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت ، الذي لا يستطيع أشعر الناس
اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء
والقليل) (١) .

وهذا أظهر من أن يخفى وفيه غنى للعاقل وكفاية ، فلا ينكره إلا
جاهل أو معاند .

ثانيتها : أن القرآن معجزة باقية على الزمن ، فالتحدي بها باق
على الزمن لذا ورد التحدي عاماً لم يخص أهل العصر الأول دون
غيرهم ، بل تحدى أهل كل عصر كما تحداهم . فالتحدي بالقرآن يلزم
أهل كل زمان ومكان . قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيراً ﴾ (٢) .

وبناء عليه ، فإن التحدي للكلمة على درجة واحدة ، والتنافس قائم
في الطباع على حد سواء . كما رأينا سكوت أهل العصر عن المعارضة
ودلائل أحوالهم وأقوالهم على عجزهم ، فقد علمنا أيضاً سكوت أهل

(١) الرسالة الشافية - للرجزاني « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » : ص ١٠٧ - ١٠٨
و ١٢٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

الأعصر المتعاقبة بعدهم ومزيداً من دلائل الأحوال والأقوال على عجزهم . وبذلك ظهرت المعجزة قاهرة والحجة بينة والنبوة المحمدية ثابتة شامخة^(١) .

أما المقام الذي يلتبس فيه الباحث إعجاز القرآن البياني ، فهو منوط بمدى براعته في الصناعة العربية . فمن كان بليغاً تناهى في معرفة اللسان العربي عالماً بطرق الفصاحة ومذاهب البلاغة فقد عرف بذلك القدر الذي يبلغه وسع المتكلم من الخلائق ، وعرف ما يتجاوز حدود قدرتهم ، ويخرج عن وسعهم ، ويميز بينهما تمييز الصيرفي بين أنواع النقود ؛ والبزاز بين الجيد والرديء من الثياب . فإذا نظر مثل هذا في القرآن علم إعجازه وأدرك قصوره عنه ، وأن حاله وحال غيره من البلغاء في هذا الباب سواء . فصار في ظهور الدليل له كمن رأى اليد تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ؛ والماء ينبجس من بين الأصابع فيروي المئات من الناس^(٢) . وهذا ما حمل أحد فحول الشعر الجاهلي وهو لبيد بن ربيعة على الإيمان وهجران الشعر ، وأن يقول : (أبدلني الله بالشعر سورة « البقرة » و « آل عمران »)^(٣) .

وعندي أن من حصل ثقافة لغوية مناسبة من أهل زماننا أمكنه معرفة إعجاز القرآن بمطالعة الكتب التي عرضت لشرحه ؛ وبدراسة المقارنات البلاغية المعقودة لبيان سعة الشقة بين سمو القرآن وتدني غيره عن رتبته . فبذل الجهد العلمي وإرهاق التذوق وإنعام النظر يعينه على معرفة الإعجاز والطمأنينة إليه .

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني ص ٨ و ٢٥٠ والرسالة الشافية للجرجاني « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » ص ١٠٧ - ١٠٨ و ١٢٥ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٢٥ ، ١١٣ و ٢٥١ - ٢٥٣ .

(٣) انظر ترجمته في : الإصابة لابن حجر ؛ وفي : الاستيعاب لابن عبد البر .

أما الأعجمي أو الذي يُلم بالعربية إماماً بسيطاً من أهلها فإنه يعلم إعجازه بمعرفة عجز فصحاء العرب قديماً وحديثاً عنه . وهذا أمر معروف تتناقله الأجيال . بل مجرد إطلاعه على سكوت القوم كافٍ في توجه الدليل إليه وقيام الحجة عليه . فإذا اطلع على شهادة الخبراء من الأصدقاء والأعداء فقد بلغ الغاية في معرفة الدليل ولزوم الحجة .

وإذا لم تَرَ الهلال فَسَلِّمْ لأناس رأوه بالأبصار

قال العلامة المراكشي : (فعلى إعجازه دليل إجمالي : وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ؛ غيرها أخرى ، ودليل تفصيلي : مقدمته التفكير في خواص تركيبه ، ونتيجته العلم بأنه تنزِيل من المحيط بكل شيء علماً^(١) .

خامساً: دلالة إعجاز القرآن العظيم على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلّم :

إن القرآن دعا الناس إلى الإيمان بالله ورسالته . وتحدى الخلائق أن يأتوا بمثله ، فثبت عجزهم على نحو يفضح قصور القدرة البشرية عن الاتيان بمثله أبداً . فإذا كان الخلق لا يقدرُونَ عليه فقد ثبت أن الذي أتى به غيرهم ، وإنما اختص بالقدرة عليه ربهم الذي اختص بالقدرة عليهم فهو صدق محض لم يتضمن إلا الحق الخالص ، ولم يخص الله محمداً بتنزيله عليه من سائر الناس إلا تدليلاً على أنه رسوله الصادق الذي أرسله إلى خلقه .

فمن كان يعرف وجوه الخطاب ، ويفتن في مصارف الكلام العربي مدركاً أصول فصاحته وبلاغته ، ثم أقيمت عليه الحجة بالقرآن ، فقبل

(١) الاتقان : ج ٢ ص ١١٩ .

له : إن الدليل على رسالة محمد ﷺ وإلهية دين الإسلام هذه الآيات أو تلك من كتاب الله ، كان ذلك غاية في إيجاب الحجة عليه وإلزامه المصير إليه ، يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعا الأحاد إلى الإسلام محتجاً عليهم بالقرآن^(١) ، فلما رآهم يعلمون إعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه ، فآمنوا بالله ورسوله وكتابه ، ولم يشكوا في صدقه ولم يرتابوا في وجه دلالته ، فدخلوا الإسلام على بصيرة من أمرهم . ذلك أن كل عاقل يعلم من نفسه ومن مواقف الفصحاء والبلغاء أن القرآن معجز للبشر . فهو من خالقهم تبارك وتعالى ، وحاشاه - وهو الحكيم العليم - أن يُنزله على من يدعي النبوة أو يتزيد فيها كاذباً ، فهو سبحانه متعال منزه عن الفساد ، قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾^(٢) .

وقد أورد الله التصريح بإعجاز القرآن كدليل على صحة رسالة محمد ﷺ إذ لفت النظر إلى دلائل ربوبيته ووحدانيته أولاً ، فقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾^(٣) . فأضحى المقام يستدعي بالحاح إثبات النبوة فأعقب ذلك تباركت أسماؤه بقوله : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا

(١) قال القاضي عبد الجبار : « كان ﷺ ، ربما اقتصر فيمن يرد عليه من الوفود على أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن وربما كان يحتاج إلى إظهار معجز غيره وربما يكرر قراءة القرآن عليهم وذلك لأنهم أو أكثرهم وإن كانوا بالإدراك والسماع يعرفون بالميزية ، فقد كان فيهم من سبق إلى الشبهة كما أن فيهم من يقصر في المعرفة عن غيره وفيهم المعاند ، فبحسب ذلك قد كان ﷺ يحتاج في كل منهم إلى ما هو أخص به وفيه أوقع » المغني : ١٦ : ٢٠٥ .

(٢) سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٧ .

(٣) سورة البقرة : ٢١ - ٢٢ .

بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١﴾ .
فساق الآية في بيان إعجاز القرآن الكريم من أجل إثبات نبوة محمد ﷺ
وصدقه وصحة الدين الذي جاء به من عند الله (٢) .

وأما الذي لم يسير أغوار اللغة العربية ولم يتقن فنونها فإنه - أياً كان
عصره - إنما تثبت عنده نبوة محمد ﷺ ، ويلزمه الإيمان به بمجرد تيقنه من
عجز أهل الصنعة عن معارضته (٣) ، لأنه يعلم بهذا أن القرآن معجز للبشر
قطعاً . ذلك أنه إذا سمع التحدي بالقرآن يتكرر في أمد متناول مع التقرير
والتبكيك والازعاج والاحراج ، ثم رأى أهل هذا اللسان مخالفين ومتابعين
قد عجزوا عنه بأجمعهم ، فقد صار في معرفة إعجاز القرآن معهم بمنزلة
سواء ، وأيقن كل من الفريقين أن القرآن قد أتاهم بطريقة فذة خارجة عن
العادة ، تفوت قوى البشر وتتجاوز ما تتسع له طاقة المخلوقين . وثبت لهم
بذلك أن دلالة القرآن كدلالة كل معجزة قعد الناس عن مثلها . فكانوا بهذا
كمن رأى اليد تخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا تنقلب أفعى عظيمة
تلقف إفك السحرة ، والبحر ينفلق عن قاعه حتى يجتازه مشياً حشداً من
الناس كبير (٤) .

وقد تواترت أنباء عجز العرب عن معارضة القرآن وقامت دلائله
واتضح وضوح الشمس في رابعة النهار مما يثبت في أرجاء الفؤاد برد
اليقين بعظمة هذا الدين وصدق نبيه الأمين محمد ﷺ .

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

(٢) انظر روح المعاني : ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) قال القاضي عبد الجبار : (الاستدلال بحال من تقدم من أهل المعرفة للغة يقوم مقام
المستمع) المغني ج ١٦ ص ٢٠٤ .

(٤) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٢٥١ - ٢٥٢ والنكت - للرماني « ثلاث رسائل في
الإعجاز : ص ١٠٣ » .

قال الإمام الباقلاني رحمه الله : (والقرآن كتابٌ دلَّ على صدق متحمِّله ، ورسالةٌ دلت على صحة قول المرسل بها . . حيرهم فيه إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب . فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح ، والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف . ثم كانت هذه المعجزة « القرآن » مما يقف عليها الأول والآخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة)^(١) .

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

البَابُ الثَّالِثُ بَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

الفصل الأول : مصدر إعجاز القرآن العظيم ومذهب الصَّرفة .

الفصل الثاني : الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم .

الفصل الثالث : نقض مزاعم المستشرقين .

الفصل الرابع : آثار القرآن المجيد في اللغة والأدب والبلاغة والنقد .

الفصل الأول
مصدر إعجاز القرآن العظيم
ومذهب الصرفة

- القول بالصرفة .
- دلالة القرآن المبين على أن إعجازه قائم فيه .
- دلائل أخرى تنفي القول بالصرفة .
- تحقيق رأي الجاحظ .
- رأي الرماني ونقاشه .

اتضح لك أن القرآن الكريم معجزات كثيرة يعاضد بعضها بعضاً . وقد سلك العلماء في بيان وجوه إعجازه مسالك عديدة واتجهوا في البحث عنها وجهات مختلفة . لذا وجب علينا أن نبحث أولاً عن المصدر الذي ينبعث منه إعجاز القرآن ، لنقرر الوجهة السليمة في البحث عن أوجه إعجازه . يجب أن نقرر ما إذا كان إعجاز القرآن الكريم قائماً بأمر خارج عنه أم هو وصف ينبعث من ذات القرآن نابع مما انفرد به من خصائص ومزايا؟؟

لقد ذهب بعض العلماء إلى اعتبار الاعجاز أمراً خارجاً عن ذات القرآن ، وهم أصحاب القول بالصرفة . وقد أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على أن القرآن معجز بذاته لا بسبب خارج عنه ، وقد اجتهدوا غاية الاجتهاد في تحديد أوجه اعجازه . فلنستعرض كلا المذهبين ، فنورد القول بالصرفة وناقشه في ضوء آيات القرآن المبين ؛ ثم في ظلال صفات المعجزة وسمات الأدب العربي وحقائق تاريخه . . . ومنتقل في الفصل التالي إلى دراسة المذهب الذي أجمعت عليه الأمة الإسلامية سلفاً وخلفاً ، وقامت عليه الدلائل اليقينية الباهرة ، وقد أسميناه : « مذهب الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم » .

القول بالصَّرفة

وأستهلُّ الحديث عن الصَّرفة بتعريفها لغة واصطلاحاً ، إذ لم أجد أحداً من الباحثين فعل ذلك .

الصَّرف : ردُّ الشيء عن وجهه ، صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفًا فَانصَرَفَ ، وصارَفَ نفسه عن الشيء : صَرَفَهَا عنه . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه . وقيل : انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا . « صَرَفَ اللهُ قلوبَهُمْ » أي أضلَّهُم اللهُ مجازاةً على فعلهم . وَصَرَفْتُ الرَّجَلَ عني فَانصَرَفَ^(١) .

أقول : فالصَّرفة « على وزن فَعَلَّة » اسم للمرة الواحدة ، كما هو معلوم لغة .

والصرفة اصطلاحاً : تعني أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن وسلب عقولهم عنها وكانت في مقدورهم ، لكن عاقبهم أمر خارجي ، فصار معجزة كسائر المعجزات^(٢) .

ذهب إلى هذا القول النُّظام من المعتزلة ونُسب إلى المرتضى من الشيعة وأبي إسحاق الاسفراييني من أهل السنة . وعُزي إلى الجاحظ أيضاً ، وأدرجه الرماني في جملة من وجوه إعجاز القرآن وعدّه وجهاً . وسنبحث قول كل منهما بعد على انفراد .

وقصد أصحاب هذا المذهب أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ، وقد كان في قدرتهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله ؛ لولا أن الله حال بينهم وبين هذا الغرض ، فصرف هممهم عن منافسته ومباراته على

(١) انظر لسان العرب : مادة « صرف » .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن : ٢ : ٩٣ والاتقان في علوم القرآن : ٢ : ١١٨ .

الرغم من شدة الدوافع الداعية لذلك ؛ كالتقريع بالعجز وتسفيه العقول ودم الآلهة والآباء . فصار العائق عن معارضتهم للقرآن أمراً خارجاً عن ذات القرآن ، فحصل بهذا المنع معجزة واحدة كسائر المعجزات . أفاد ذلك قول النظم ، وقد أوردناه في معنى الصرفة اصطلاحاً ، وأفاده المرتضى بقوله : « بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم . . التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن »^(١) .

وما كنت لأرتضي الإسهاب في نقاش هذا القول لولا أنني وجدت بعض الدارسين للغة العربية من أهل زماننا يغترون به ويعزونه للجاحظ ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . !!

دلالة القرآن على أن إعجازه قائم فيه :

إذا رجعنا إلى المصدر الأصلي الذي أثبت إعجاز القرآن ، وهو القرآن نفسه ، واحتكمنا إليه في هذا ؛ فإننا نجده يُثبت الإعجاز لذات القرآن ، لا للصرف عنه وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها :

أولاً : أن كتاب الله قد تحداهم أن يأتوا بمثله ، كما في قوله : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(٢) .

فإن الله تعالى نصّ على أن الإنس والجن لو اجتمعوا ليعارضوه لم يأتوا بمثله أبداً . فلو كان الإعجاز بالصفة لقيـل : « لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمة على الاتيان بمثله أو لو اجتمعوا لما اتجهت هممهم ولا همّة واحد منهم إلى هذا الأمر » ولم يرد مثل ذلك بحال . وإنما نص القرآن على أنهم لا يأتون بمثله ولو تضافرت جهودهم وتأزرت مساعيهم ،

(١) إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي - ص ١٦٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

فدل على أن التحدي إنما وقع بنفس القرآن وأن الإعجاز قائم في ذاته .
ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَّمْ
تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فدلّت هذه الآية ونظائرها على أن القرآن معجز بنفسه لمزايا
وخصائص استقرت فيه ، تقصر طاقة البشر وقدرتهم عن مضاهاتها .
لذلك ورد التحدي بالقرآن ذاته .

ولا يخفى - عليك - أن الإنسان إذا كان يقدر على عمل شيء لم
يصح أن يمنع منه ، ثم يقال له ولنظرائه على سبيل التحدي : قد جئتكم
بما لا تقدرون على مثله أبداً . فلو كان إعجاز القرآن بالصرفة - أي بالمنع
من معارضته وقد كانت في مقدورهم - لقليل لهم في تلك الحال : إن دليل
صدقي في دعوتي أنه حيل بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه ومنعتم منه .
فالآية حينئذ هي نفس المنع عن المعارضة وليس نفس القرآن ، بينما تجد
أن الله سبحانه قد أورد آيات التحدي بسياق دال يقيناً على أن القرآن هو
المتحدى به ، وأنه المعجز لصفات في ذاته ، وليس لصفة خارجة عنه .

ثانياً : لو كان العجز بالصرفة لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في
مستوى بلاغي قريب المتناول - لا في الدرجة القصوى من البلاغة
والفصاحة - لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله والصراف عنه . وهذا
يخالف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه ، فهو
الكتاب المبين ؛ والقرآن المجيد ؛ وفيه الآيات البينات ، وهو النور ؛
والنور المبين ؛ والكتاب المنير ؛ وفيه الهدى والنور وشفاء ما في
الصدور . . الخ .

(١) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤ .

ثالثاً : ومن الدلائل التي تُثبت إعجاز أسلوب القرآن ما ورد في القرآن نفسه من الآيات الدالة على قوة تأثيره في النفوس . وقد بلغ من تأثيره في نفوس الكافرين ما حملهم على التواصي على الاعراض عنه ، كما حكى الله عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (١) فقد نفذ صبرهم عن الصمود لاستماعه لمبلغ تأثيره فيهم وخشيتهم منه على أتباعهم وأنفسهم .

ووصف الله تأثيره في نفوس المؤمنين فقال : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعروا منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ (٢) .

ولا أدل على أن الإعجاز في القرآن تابع من نظمه وذاته من اعتراف البلغاء أنفسهم وممن آمنوا وممن استمروا على الجحود والكفران . فقد أقر الوليد بن المغيرة - من زعماء الشرك - بأن القرآن قول لا يُضاهى وأن ما ظهر قبله وما يظهر بعده فإنه محطّم عند سفح عظمته . قال الوليد : (فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته) .

وإلى هذا السبيل ذهب نداء من المشركين عتبة بن ربيعة إذ قال لقومه :

(إني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قط . والله ما هو بالسحر ولا

(١) سورة فصلت : ٢٦ .

(٢) سورة الزمر : ٢٣ .

بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ ...) .

وما قول أنيس شقيق أبي ذر رضي الله عنهما وقول جبير بن مطعم عنك ببيعد^(١) . ولا يغب عنك أنه لو لم يكن الإعجاز نابعاً من ذات القرآن وجهته - وليس من حائل خارجي يُمسكهم عن القول إمساكاً ملزماً - لما استعظموا القرآن هذا الاستظعام ووصفوه بما وصفوه ، غير أنهم أحسوا أن القرآن فوق ما سمعوا وما يستطيعونه من الكلام روعةً وجلالاً وجمالاً في ألفاظه ومعانيه .

دلائل أخرى تنفي القول بالصرفة :

ويؤيد استشهدنا بالآيات القرآنية على إبطال القول بالصرفة أدلة كثيرة منها :

أولاً : يلزم من قولهم أن العرب قد صرفوا عن هذا المستوى فحيل بينهم وبينه بحيث لم يُحاولوه قط ؛ أن حالهم في البلاغة والبيان وجودة النظم وشرف اللفظ قد تراجعت ، فنقصت قرائحهم وأذهانهم ، وعُدموا كثيراً مما كانوا يستطيعونه . وبالتالي فإنه يلزم منه أيضاً أن أشعارهم التي قالوها وخطبهم التي قاموا بها وكل تعابيرهم بعد الوحي جاءت قاصرة عما سمع منهم من قبل ، فضاقة عليهم مجال كان متسعاً ، ونضبت مواردهم التي كانت غزيرة ، وخذلتهم قوى كانوا بها يصلون . وبناء عليه فلا بد أن تخرج أشعار شعراء النبي التي امتدحوه بها ونددوا بالمشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم الجاهلي !؟ وبالتالي فإن التساؤل يدخل على هؤلاء القوم في قول رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت « اهجهم - أوهاجهم -

(١) ذكرنا الحديثين كاملين قبل فارجع إليهما ص ١٤٣ - ١٤٤ .

وجبريل معك»^(١) فكيف يكون مؤيداً بعون الله في حين أن الله يُعده كثيراً من المواهب والقُدر التي كان يتمتع بها قبل ؟! .

وينبغي على قولهم أن الرسول ﷺ قد تقاصرت بلاغته أيضاً والذي يحكم به علماء اللغة والأدب - وهو حقيقة لا مريّة فيها- أن آداب العرب زمن بعثة محمد ﷺ لم تكن قاصرة عن آداب الجاهلية بحال . بل إن الأمر أكثر من هذا فقد أمدّ القرآن العرب بصور من البيان وألوان من البلاغة ، أشرق بها بيانهم وارتقت بها بلاغتهم ، وأثمرت ثماراً طيبة لم يكن للعرب قبل الإسلام بها عهد . فإذا زعم امرؤ بعد هذا أن بلاغة العرب في صدر الإسلام صارت أنزل مما كانت عليه قبله - بسبب الصرفة في زعمه - كان زعمه في غاية السقوطِ والتهافت ، ولا يُعذر العاقل في اعتقاد كهذا .

ثانياً: إن إجماع المسلمين قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن - قبل خلاف المخالفين - فهذا دال على إجماعهم على أن الإعجاز نابع من ذات القرآن لا من أمرٍ خارج عنه .

ثالثاً : انه خابِتُ محاولات بعض الأدعياء لمعارضة القرآن ، كالذي فعله مسيلمة الكذاب وسجاح . وإذا كان كلامهم الذي أتوا به عُرةً في جبينهم أبد الدهر وخزياً لهم ؛ فإنه ينفي الصرفة ، لأنها تعني أنهم صرفت همهم عن معارضة القرآن ! وفي الواقع أن محاولة المعارضة قد

(١) رواه الشيخان صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب هجاء المشركين - ج ٧ ص ١٠٩ .
وصحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه - ج ٤ ص ١٩٣٣ . وعند غيرهما بلفظ (اهجم وروح القدس معك) . وفي الصحيحين أيضاً من طريق سعيد بن المسيب قال : (مر عمر بحسان في المسجد وهو ينشد ، فلحظ إليه ، فقال : كنت أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله أسمعته النبي ﷺ يقول : (أجب عني ؛ اللهم أيده بروح القدس) .
انظر ترجمة حسان في الإصابة والاستيعاب .

حصلت !! فلو كان ثمة صرفة لما أظهر هؤلاء من الكلام ما زعموا أنه معارض للقرآن .

رابعاً : أنهم يوردون علينا استدلالاً على الصرفة : أن العرب بلغاء فصحاء ، وكان بعضهم يُتقن نظم كلمتين بديعتين في جملة كلامية تبلغان طبقة من البلاغة جِدُّ عالية . فلو أن الواحدَ منهم ضم ما جادت به القريحة ثانياً إلى الأول وهكذا . . يتكامل له بعد حين قدرُ سورة من القرآن .

والجواب : أنَّ من قدر على الكلام البليغ العالي ليس لازماً أن يقدر على معارضة أبلغ كلام على الإطلاق . . فإن الأمر يحتاج إلى ملكة في هذا المستوى العالي قادرة على السبك المبدع والتنسيق الفائق بحيث تبلغ المستوى القرآني ، وهذا ما يتجاوز وسع المخلوقات . ثم إن التلفيق بين جمل متناثرة ؛ جادت بها القرائح في موضوعات ودواعي مختلفة ؛ لا يقدم أسلوباً أدبياً متماسكاً محكماً يرضى عنه الأدباء ، فكيف يسوغ الزعم بأنه معارض للقرآن ؟!

خامساً : وإذا كان القول بالصرفة قد عُزي للنظام من المعتزلة ، فليس من شك أن من أبلغ الردود لمذهب الصرفة ما ورد على لسان علم من مشاهير المعتزلة وأئمة الاعتزال . وهو جواب القاضي عبد الجبار لمن زعم : أن الله قد منع العرب من هذا القدر من الفصاحة والبلاغة حين أنزل القرآن . قال رحمه الله :

(فقد كان يجب أن يكون قدر القرآن في الفصاحة قدر ما جرت به العادة من قبل ، وإنما مُنعوا من مثله في المستقبل ، ولو كان كذلك لم يكن المعجز هو القرآن ، لكونه مساوياً لكلامهم ، ولتمكنهم من قبل من فعل مثله في قدر الفصاحة . وإنما كان يكون المعجز ما حدث منهم من المنع . فكان التحدي يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن ، حتى لو لم يُنزل الله تعالى القرآن ، ولم يظهر أصلاً ، وجعل دليل نبوته امتناع الكلام

عليهم على الوجه الذي اعتادوه ، لكان وجه الإعجاز لا يختلف . وهذا مما نعلم بطلانه باضطرار ، لأنه عليه السلام تحدى بالقرآن وجعله العمدة في هذا الباب ، على أن ذلك لو صح لم يقدح في صحة نبوته ، لأنه كان يكون بمنزلة أن يقول ﷺ : دلالة نبوتي أنني أريد المشي في جهة فيتأتى لي على العادة وتريدون المشي فيتعذر عليكم . فإذا وُجد الأمر كذلك دل على نبوته ، لكون هذا المنع على هذا الوجه ناقضاً للعادة (١) .

سادساً : على أنهم لو صرفوا - كما زعم القائلون - فإن من كان قبلهم من أهل الجاهلية لم يخاطبوا بالتحدي ولم يُصرفوا عما يعدل القرآن فصاحةً وبلاغةً وحسنَ نظم وروائع وصف ، فهلا جاؤونا بشيء من أقوالهم يساويه في ذلك ؟ فإذا عجزوا عن استخراج ذلك لعدم وجوده أصلاً ، فقد انكشف أن قولهم بالصرفة فاضح البطلان (٢) .

(١) المغني : ج ١٦ ص ٢١٩ وانظر فيه أيضاً ص ٣٢٢ - ٣٢٨ .

(٢) حكى القرطبي أن بعض أصحاب الصرفة زعموا أن العرب صرفوا عن القدرة على القرآن ولو تعرضوا له لعجزوا عنه . وأن البعض الآخر زعموا أن العرب صرفوا عن التعرض للقرآن مع كونه في مقدورهم ؛ ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه . بمعنى أنهم لم يأتوا بمثله سابقاً ، غير أنه لا يخرج عن حدود قدرتهم لولا أنه حيل بينهم وبين ممارسة ذلك الاقتدار . (انظر الجامع لأحكام القرآن : ١ : ٧٦) .

وهذا - فيما نرى - يجعل المعجزة على نحو مخالف لما عهد من الرسل ، فإنه لم يأت رسول قط إلى قومه فقال : حجتي عليكم وأيتي الدالة على نبوتي أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط ، وليس يظهر بادي الرأي أنكم تستطيعونه ، لكن يتصور ويحتمل وقوعه منكم لاقتداركم عليه إذا وجهتم إليه كامل اهتمامكم وبذلتم جهدكم وجهد أنصاركم .

ألا ترى أن هذا دليل معقد بارد تنبذه الحكمة الإلهية الرامية إلى هداية البشر والتسهيل عليهم ورفع الحرج والشبهات عنهم ؟ فإن من حق المعجزة أن تكون في أظهر الأمور ، حتى يستبين لكل راء وسامع أنه عاجز حقاً . فهل يتوفر هذا في المنع من أمر خفي لا يعرف إلا بعد طول النظر وعميق التفكير . . ؟ فقولهم بالصرفة على هذا النحو يجعل المعجزة أمراً خفياً لا يعرفها أهل فن العربية إلا بعد دقيق النظر وبالتالي فلا يمكن

سابعاً : ومن أهم الأدلة على بطلان القول بالصرقة أن أهل الصنعة البلاغية إذا سمعوا كلاماً يطمعون في مجاراته لم يَخْفَ عليهم ولم يشتبه لديهم ، فلا بد أن يحاولوا مباراته ! كيف وقد تضافت عليهم دوافع عديدة من سبِّ آلهتهم وتسفيه عقولهم وعقول آبائهم ومطالبتهم بالاتباع مما يذهب بزعاماتهم ومصالحهم . .؟! .

وكيف يلزمون الصمتَ مع القدرة على المباراة ؟ وقد تحداهم عشرين سنة بشيء من صناعتهم التي فاقوا بها وافتخروا ، مع تقييدهم بالعجز مراراً وتكراراً . وهم مضرب المثل في الحمية والأنفة وإبء الضيم . .!!

فلو أحسوا - مع هذه الدوافع - بأن ما تحداهم به لا يبعد أن تناله عبقريتهم ، إذاً لحاولوا تبديد حجته والقضاء على خصومته . ولو حاولوا فوجدوا أنفسهم ممنوعة ؛ فإن مصيرهم أن يجأروا بالضجر والشكوى والتعلل - فتلك سجية الإنسان في مدافعة الهزيمة - وأن يقولوا : ما لنا ؟ ومن أين دُهِينا ؟ وكيف أحبطت جهودنا وخارت عزائمنا . .؟ فإن هذا القول - على مزيتته - ليس بعيداً عنا . .! إننا لا ندرى أسحرنا محمد فأخمدنا . .؟ أم ماذا ؟

لو أنهم أحسوا بالحيلولة والحجز لدرؤوا عن أنفسهم وصمة العجز ، فإنه ليس معتاداً في بني الإنسان قاطبة - فضلاً عن ذكرنا أوصافهم من العرب - أن يدعن الواحد لخصمه فيستكين له ويلقي بيديه ويسكت عن التقرير بالعجز أمداً بعيداً . فلما لم يُؤثر عنهم مثل ذلك

= لمن ليس عنده خبرة عميقة أن يعرف المعجزة أبداً . وأيضاً فإن الغرض من إنزال المعجزة - وهو أخذ الناس إلى سبيل الهداية - لم يتحقق ، فصار ضرباً من العبث . وهو تقول لا ينطق به عاقل ولا يقدم عليه إلا مجازف لا يدري ما يقول .

التشكي والتضجر دُلَّ ذلك على أنه لا أصل لما انصرف إليه أصحاب
الصرفة واهمين .

قال الجرجاني رحمه الله تعالى : (ومما يلزمهم على أصل المقالة
أنه كان ينبغي له إن كانت العربُ مُنعتْ منزلة من الفصاحة قد كانوا
عليها ؛ أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت . ولو عرفوه لكانَ يكونُ قد
جاء عنهم ذكر ذلك . وكانوا قد قالوا للنبي ﷺ : إنا كنا نستطيع قبل هذا
الذي جئنا به . ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه . فقد
نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى . وكان أقل ما يجب في
ذلك أن يتذكروه فيما بينهم . ويشكوه البعض إلى البعض ويقولوا ما لنا
قد نقصنا من قرائحنا وقد حدث كلول في أذهاننا . . فبقي أن لم يُرو ولم
يُذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى لا ما قلَّ ولا ما كثرُ ، دليل أنه قول
فاسد ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل)^(١) .

فهذا كله يجعل القول بالصرفة باطلاً داحضاً يستوجب الانصراف
عنه . وما أحسن ما قاله الإمام الجرجاني :

(ولولا أن الشيطانَ قد استحوذ على كثير من الناس في هذا الشأن
بترك النظر وإهمال التدبر وضعف النية وقصر الهمة ، قد طرقت له حتى
جعل يلقي في نفوسهم كل محال وكل باطل ، وجعلوا هم يعطون الذي
يلقيه حظاً من قبولهم ، ويؤوئونه مكاناً من قلوبهم ، - لما بلغ من قدر هذه
الأقوال الفاسدة أن تدخل في تصنيف ، ويعاد ويبدأ في تبين وجه الفساد
فيها وتعريف . ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها تلزم أصحاب
الصرفة أيضاً وذاك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضته القرآن وعن أن يأتوا
بمثله لأنه معجز في نفسه ، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت

(١) الرسالة الشافية : ص ١٣٥ .

هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعمله وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له ، لكان ينبغي أن لا يتعاضمهم ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره ، وتعجبهم منه وعلى أنه قد بهرهم وعظم كل العظم عندهم ، لكان التعجب للذي دخل من العجز عليهم ولما رأوه من تغير حالهم ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً ، وأن سدّ دونه باب كان لهم مفتوحاً ، أرايت لو أن نبياً قال لقومه : « إن آيتي أن أضغّ يدي على رأسي هذه الساعة وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم » وكان الأمر كما قال - مم يكون تعجب القوم ؟ أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ؟ (١) .

وأخيراً فإن الصرفة تصور القرآن معجزة حسية معقدة خفية . فلو كان المراد الإعجاز الحسي لما كان ثمة داع لجعله مصحوباً بتلك الصورة الكلامية مع التحدي بها . فذلك نمطٌ مُربكٌ عسير الإدراك ، يُستغنى عنه بأهون شيء يقطع ما بين النبي وقومه من جدل ومعاناة (٢) .

ونتيجة البحث :

- ١ - إن القول بالصرفة زعم لا دليل عليه من العقل أو النقل .
- ٢ - بل انكشف نقض القول بالصرفة وبطلانه بأدلة من القرآن والحديث والإجماع وبأدلة أخرى قوية حاسمة .
- ٣ - دحضه الواقع وكذبه ، فقد عرف تاريخ الدعوة الإسلامية أناساً كذاابين

(١) دلائل الإعجاز - للإمام عبد القادر الجرجاني ص ٢٩٨ - ٢٩٩ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٣١ هـ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٩ - ٣٠ ، والرسالة الشافية للجرجاني (من ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٣٣ - ١٤١) وبيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠ - ٢١ وانظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٢ وما بعدها .

من العرب لم تنصرف همهم عن محاولة معارضة القرآن بل بذلوا في ذلك كل همتهم وغاية اهتمامهم . فكانت معارضتهم وصمة عار أبدية في جباههم ، وازدادت البصائر إكباراً للقرآن المجيد وخصائص إعجازه الذاتية .

مع الجاحظ :

يتجه المتحدثون عن الصرفة إلى نسبتها للجاحظ بإطلاق . وحقيقة الأمر أنه يعتقد إعجاز القرآن ويقرره ، فلا يعدو أن يكون ما نُسب إليه قولاً آخر يشاكل قول الرماني الذي سنورده بعد حين .

فقد أورده في كتابه (الحيوان) على سبيل الاستطراد - كعادته - فقال : (ومثل ذلك ما وقع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه . ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم فجاء بأمر فيه شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ولألقي ذلك للمسلمين عملاً ولطالبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال .

لقد رأيت أصحاب مسيلمة إنما تعلقوا بما أُلّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله من ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)^(١) .

وهذا ما حدا بأديب العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى إلى القول :

(١) الحيوان للجاحظ : ج ٤ ص ٣١ .

(أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كراي أهل العربية ، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها . وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه . غير أن الرجل كثير الاضطراب . . ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرقة . وإن كان قد أخفاها وأوما إليها عن عرض ، فقد سرد في موضع من كتاب « الحيوان » طائفة من أنواع العجز وردّها في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم ، ثم عد منها : ما وقع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بنظمه (١) .

ويبدو لنا واضحاً أن الجاحظ لم يصل به الشذوذ إلى إنكار إعجاز القرآن الكريم فقد صرح في كتابه « النبوة » قائلاً : (ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أغلب العرب لأظهر عجزه عنها لغاً ولفظاً) (٢) .

بل الجاحظ أول من أفرد تصنيفاً للحديث عن إعجاز القرآن وهو (نظم القرآن) . وقد قال في الإعجاز أقوالاً بليغة لم تزل موطن إكبار واستشهاد علمائنا وكُتّابنا . ولعل هذا كله حمل الرافي على رحمة الله على الاعتذار عما صدر عن الجاحظ في كتاب الحيوان حسبما فهمه . قال الرافي : (وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه « النظام » وهو شيء ينزل على حكم الملابس ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبّه عليه ، أو يكون هو ناقلاً ولا ندرى) (٣) .

(١) إعجاز القرآن للرافي - ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٩٨ . وقوله : لغاً « بفتح اللام » من لغى به « كرضي » ولغا به : إذا لهج به .

(٣) إعجاز القرآن - للرافي : ص ١٦٥ وانظر : ص ١٧٠ وانظر أقوال الجاحظ في الإعجاز : ص ١٩٣ - ١٩٤ ومواطن أخرى .

أقول : فهذان كتابان علميان مختصان من أجل مؤلفات الجاحظ (النبوة ، نظم القرآن) قد أفادا - بصراحة لا تحتمل التأويل - أن إعجاز القرآن وصف ذاتي منبعث من خصائص القرآن ومزاياه . وهذا يدل على أن الجاحظ كان يعتقد مذهب الإعجاز الذاتي للقرآن . ولا يتجاوز ما نسب إليه أن يكون قولاً آخر جمع فيه الجاحظ بين القول بالإعجاز الذاتي وبين الصرفة بأن واحد كوجهه في إعجازه ، كما يوميء النص المنقول عن كتابه « الحيوان » . وعلى هذا المنحى سار الرماني بعده .

رأي الرماني :

اتخذ الرماني منحى عجيباً في الحديث عن إعجاز القرآن فاعتمده وفصله ، وقدم بحثاً يكشف في القرآن الكريم عن أوجه البلاغة التي لا تُضاهى . غير أنه لما عدَّ وجوه الإعجاز - كما يراها - عدَّ منها : الصرفة ، فقال : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؛ والتحدي للكافة ؛ والصرفة ؛ والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة)^(١) . ومضى الرماني يبين رأيه في الصرفة فقال : (وأما الصرفة فهي صرفة الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم ، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)^(٢) .

ونقول في الجواب عما أورده الرماني : إما أن يعني قوله أن القرآن معجز عن ذاته أو لا . .

(١) النكت في إعجاز القرآن : ص ٦٩ و ١٠١ .

(٢) النكت : ص ١٠١ .

فإذا لم يكن - في نظره - معجزاً من ذاته بل من الصرفة وحدها . .
فالجواب ما قلناه في حق النُّظَامِ وأضرابه .

وإذا كان القرآن معجزاً بذاته ، كما صرح الرماني وشرح فأوضح -
وهو الحق الصراح - ، إذن فما الداعي للصرفة عن فعل شيء لا يقدر
الإنسان أصلاً على فعله !؟ فالقول بالصرفة للعباد ؛ بعد وقوعهم في
سحيق وديان العجز ؛ قول برأي لا طائل من ورائه .

وقد قرر الرماني إعجاز القرآن مراراً ، فكان من ذلك قوله أيضاً :
(فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما
هو في أدنى طبقة ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة .
فما كان في أعلاها طبقة فهو معجزة وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون
ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وإنما البلاغة إيصال المعنى
إلى القلب في حسن صورةٍ من اللفظ .

فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة
القرآن خاصة . وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم) (١) .

ولا شك أن هذا القول وأمثاله من الرماني نفسه يبطل قوله
بالصرفة . أضف إلى هذا أن الصرفة قول لا يدل عليه عقل ولا نقل .

ويبدو لنا أن الرماني والجاحظ وغيرهما قد أوردتهم هذا المورد أنهم
لاحظوا أن بلغاء العرب لم يتمحلوا معارضة القرآن ولو على سبيل الممارسة
بالباطل ، وهذا ما ذكره الجاحظ : « ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو
طمع فيه لتكلفه » .

ونجيب على ذلك : إن هؤلاء البلغاء قد بهرهم القرآن ، ولم يخفَ

(١) النكت : ص ٦٩ - ٧٠ .

عليهم أن البون شاسع بين أسلوبهم وأسلوبه ، وقد تيقنوا أنهم لو زعموا معارضته بنص من كلامهم فسيكون زعمهم فاضح الكذب والبطلان ؛ ومشاراً للسخرية والتندر ، حتى تلوك الألسنة سمعتهم ولا يتقبل أحد ادعائهم ، كما حصل لسجاح ومسيلمة الكذاب ، اللهم إلا أن يكون التابع من بعض الدهماء عصبية وعناداً كأتباع مسيلمة وأضرابه . لقد صان البلغاء أنفسهم أن تستطير بها المهانة في أرجاء الجزيرة العربية ، فامتنعوا عن التورط في زعم معارضة القرآن ، وفي ذلك من رجاحة العقل ما لا يخفى .

وإليك مسك الختام ؛ في ردِّ الصرفة ؛ قول العالم اللغوي الأديب المفسر ابن عطية :

(وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : ان الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن محيطاً قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى في الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه .

(والصحيح أن الاتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحدٍ من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ، ثم تُعطى لآخر بعده فيأخذه بقريحة جامعة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله تعالى لو نُزعت منه لفظة ، ثم أُدير

لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد . « ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق ؛ وجودة القريحة ؛ وميز الكلام » .

(ألا ترى مَيَّزَ الجارية نَفَسَ الأعشى ، وميز الفرزدق نَفَسَ جرير ؛ ونفس ذي الرمة ، ونظر الاعرابي في قوله^(١) : « عزَّ فحكَمَ فقطع » إلى كثير من الأمثلة ، اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً) .

(فصورة قيام الحججة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد عليه السلام به ، وقال : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ قال كل فصيح في نفسه : وما بال هذا الكلام حتى لا آتِي بمثله !؟ فلما تأمله وتدبره مَيَّزَ منه ما مَيَّزَ الوليد بن المغيرة حين قال : والله ما هو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ولا بالجنون ؛ وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله ، فصح عنده أنه من عند الله تعالى . فمنهم من آمن وأذعن ، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففر إلى القتال ، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة ، حتى أظهر الله دينه ودخل جميعهم فيه . ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قليل من العرب يعلن كفره . وقامت الحججة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحججة على الناس في معجزة عيسى بالأطباء ، وفي معجزة موسى بالسحرة ، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهيد^(٢) أبرع ما يكون في زمان

(١) لعل في الكلام سقطاً . وتقديره : « ونظر الأعرابي في الآية وقوله . . . وقصة هذا الأعرابي أنه سمع قارئاً يتلو ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾ والله غفور رحيم » فقال : ما هذا ؟ فقيل له : قرآن : فقال : ما هذا بقرآن ! فتنبه القارئ إلى خطئه في ختم الآية فصصح فقرأ : (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي : « عز فحكَمَ فقطع » . انظر الآية في سورة المائدة : ٣٨ .

(٢) « الوجه الشهيد » : القوي الدلالة على صدق الرسول . وفي الانتقان « الشهير » . وعلى كل فإن الله تعالى جعل معجزات كل رسول في الفن الذي اشتهر به قومه ونبغوا فيه .

النبي الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته ،
وكذلك الطب في زمن عيسى ، والفصاحة في مدة محمد عليهم
السلام (١) .

(١) مقدمة ابن عطية « مقدمتان في علوم القرآن : ٢٧٩ - ٢٨٠ » والجامع لأحكام القرآن -
للقرطبي - ١ - ٤ ص ٧٦ والانتقان : ج ٢ ص ١١٩ .

الفصل الثاني الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم

● تحديد أوجه إعجاز القرآن .

● تبيان أوجه إعجاز القرآن :

الوجه الأول : الاسلوب البياني للقرآن .

الوجه الثاني : الاخبار عن الغيب في القرآن .

الوجه الثالث : الوفاء بكل ما وعد الله فيه .

الوجه الرابع : سمو التشريع القرآني وشموله .

الوجه الخامس : إعجاز القرآن الخلفي والاجتماعي .

الوجه السادس : الإعجاز العلمي في القرآن .

الوجه السابع : اتساق نظريات القرآن وأحكامه .

الوجه الثامن : الإعجاز النفسي في القرآن .

أثبت لنا البحث أن ليس لإعجاز القرآن صلة بسبب خارج عنه . فالإعجاز كامنٌ فيه ومنبعث من ذاته . فسبب قصور الفصحاء البلغاء عن معارضته عائد له بالذات والعلة قائمة فيه لا تنفك عنه . فلا بدّ إذا أردت معرفة أوجه إعجازه أن تتقصاها من جهته وتلتمسها فيه . وقد تتابع فحول العلماء قديماً وحديثاً على استقراء أوجه الإعجاز في كتاب الله تعالى فمنهم المكثرون ومنهم المقلون . فعَدَّ القرطبي عشرة أوجه ، والرماني سبعة أوجه وعَدَّها القاضي عياض أربعة ؛ وعَدَّها الباقلاني ثلاثة ، فصَّلَ أحدها في عشرة أمور . وترى الأوجه عند بعض العلماء على جانب من التداخل أو التكرار ، بينما يذكر بعضهم جانباً من الأوجه ويُغفل بعضها الآخر .

والحق أنهم جميعاً لم يحيطوا علماً بأسرار إعجاز القرآن ووجوهه . وأسفرت أبحاثهم عن وقوفهم في درك القصور عن هذا المقام . قال ابن سراقه : (اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة ، كلها حكمة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عُشر معشاره ..)^(١) .

وسأقتصر على عرض نماذج لأصحاب اليد الطولى في هذا الفن ،

(١) الاتقان في علوم القرآن : ج ٢ ص ١٢١-١٢٢ .

فليس غرضي أن أسهب في استقصاء مذاهبهم .

وإنما أهدف إلى بيان المذهب الراجح في نظري ، لذا رأيتُ أن أعرض مذاهبهم مع ما يوفقي إليه من تحليل علمي ومناقشة ، وأنقد كل مذهب وأبدي ملاحظاتي عليه على انفراد . ثم أعين السبب الظاهر الذي أدى إلى اتساع شقة الخلاف بين مذاهب العلماء في تحديد أوجه الإعجاز . وهذا السبب هو عدم تعريفهم الوجه المعجز في القرآن ، فأعرفه ، وأقدم ما وفني الله إليه في تحديد أوجه إعجاز القرآن الكريم وشرحها .

تحديد أوجه إعجاز القرآن الكريم

وها نحن أولاء نعرض أهم مذاهب العلماء حسب الخطة التي ذكرنا :

أ - مذهب الإمام الباقلاني :

انطلق إلى تحديدها في ثلاثة أوجه :

أولاً : الاخبار عن الغيوب ، وضمَّنه غيب المستقبل والوفاء بالوعد .

ثانياً : الاخبار عن غيوب ماضية مع أن الرسول أُمي لم يقرأ كتاباً ولم يخط بيمينه .

ثالثاً : أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عنه عجز الخلق عنه . وفصَّل هذا الوجه في عشرة أمور نوجزها فيما يلي :

الأول : أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم .

الثاني : حفاظه على المستوى البلاغي العالي المعجز على الرغم من طوله .

الثالث : حفاظه على ذلك المستوى المعجز في جميع أغراضه من قصص ومواعظ وحكم وأحكام ووعد ووعيد واحتجاج وتبشير وتخويف .

الرابع : حسن الانتقال والتناسب الدائم .

الخامس : عجز جميع الإنس وجميع الجن أيضاً عن معارضته .

السادس : اجتمعت فيه جميع بلاغات كلام العرب في مرتقى يتجاوز حدود كلامهم المعتاد .

السابع : موافقة ألفاظه للمعاني والأغراض الدينية الفذة التي لم يألّفها العرب قبل .

الثامن : احتواؤه أروع الألفاظ العربية .

التاسع : حروف أوائل السور فيه هي نصف عدد حروف الهجاء ، وفيها النصف من كل صنف منها .

العاشر : أن القرآن سهل السبيل سلس الأسلوب ما فيه وحشي ولا غريب ولا تكلف صنعة^(١) .

وأنت تجد أنه قد أغفل وجوهاً من الإعجاز ، في حين أنه فصل وجهاً واحداً إلى وجهين وهو الاخبار عن الغيب ، فجعل ما يتضمن غيب الماضي وجهاً مستقلاً وما يتضمن غيب المستقبل وجهاً آخر منفرداً .

ثم بالغ في تفصيل الإعجاز البياني وتقسيم معانيه ، وأدخل عليه ما لا يقبل عدّه فيه ، وهو التاسع عن حروف أوائل السور .

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٣٣ - ٤٧ .

ب - مذهب الرماني :

قال رحمه الله : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : تركُّ المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؟ والتحدي للكافة ؛ والصرفة والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ؛ ونقض العادة ؛ وقياسه بكل معجزة)^(١) .

ونرى أن الوجه الأول عنده إنما هو من الدلائل التي تُثبت إعجاز القرآن وليس من أوجه إعجازه ، وقد سبقَ بحثنا فيه على هذا الأساس . فالتحدي بالمعجزة للكافة وتعذر معارضتها بمثلها ؛ شرطان من شروطها^(٢) العامة ، يتوفران في سائر المعجزات وكذا في القرآن العظيم . فلا يعتبران في أوجه إعجازه الخاصة .

وقد بيّن الرماني مراده ههنا من « نقض العادة » فقال : (وأما نقض العادة ؛ فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ؛ ومنها السجع ؛ ومنها الخطب ؛ ومنها الرسائل ؛ ومنها المنشور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة)^(٣) .

لكن هذا المعنى لا يستقل بنفسه في أوجه إعجاز القرآن ، إنما هو وصف هام من أوصاف أسلوبه البياني المعجز . وكان حرياً بالعلامة الرماني - في نظري - أن لا يفصل بينه وبين البلاغة وأن يجملها في صيغة تعبر عن الإعجاز البياني وجهاً واحداً .

وأوضح الرماني مراده من الوجه الأخير فقال : (وأما قياسه بكل

(١) النكت في إعجاز القرآن « ثلاث رسائل في الإعجاز » : ص ٦٩ .

(٢) راجع ص ١٩ و ٢١ .

(٣) النكت ص ١٠٢ .

معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ، إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حيةً وما جرى هذا المجرى ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز ، إذ خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة (١) .

فهذا وصف لإعجاز القرآن يستوي به مع سائر المعجزات في الدلالة على نبوة مبلغه سيدنا محمد ﷺ ، بل يزيد دلالة عليها عند ذوي العقول الواعية المستنيرة . فإن المعجزات العقلية أعظم شأناً من الحسية .

وأما الصرفة فقد بينا أنها ليست من أوجه الإعجاز ، وناقشنا وجهة نظر الرماني خاصة .

والخلاصة أنه لا يسلم له من أوجه الإعجاز سوى وجهين :

أولهما : البلاغة مع نقض العادة « الاسلوب البياني » .

ثانيهما : الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية . وكان الأولى أن لا يقيد العبارة بل يطلقها لتشمل الأخبار عن الغيب في القرآن ؛ ماضيه ؛ وحاضره ؛ ومستقبله .

جـ - مذهب القرطبي :

أن وجوه إعجاز القرآن عشرة ، وهي :

أولاً : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها .

ثانياً : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ثالثاً : الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال .

(١) النكت ص ١٠٣ .

- رابعاً : التصرفُ في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي .
- خامساً : الاخبار عن أمور غيبية من أول الدنيا إلى وقت نزوله على لسان أميِّ لم يقرأ ولم يكتب .
- سادساً : الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان .
- سابعاً : الاخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطلع عليها إلا بالوحي .
- ثامناً : ما تضمنه من علم هو قوام جميع الأنام ؛ في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام .
- تاسعاً : الحكْمُ البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدرَ في كثرتها وشرفها من آدمي .
- عاشراً : التناسبُ في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف^(١) .

ولعلك ترى معنا أن هذه الأوجه يتداخل بعضها في بعض ويغني بعضها عن بعض . فالأوجه الأربعة الأولى هي في الواقع تفاصيل وجه واحد هو الإعجاز البياني .

والإمام القرطبي نفسه قد أقرّ بنحو هذا في نفس الموطن إذ اعتمد قول ابن الحصار فأورده :

(قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة ؛ لازمة كل سورة بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدي والتعجيز)^(٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي : ج ١ ص ٧٣ - ٧٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج ١ ص ٧٣ .

د - مذهب القاضي عياض :

أجمل رحمه الله أوجه الإعجاز في أربعة ، ثم ألحق بها وجهين يستضعفهما ، ثم سرد أوجهاً لم يرتضها هو ، إلا أن جماعة من الأئمة ومقلديهم قد اعتدوا بها ، نذكر ذلك موجزاً :

أولاً : حسنُ تأليفه والثام كلمه ؛ وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب .

ثانياً : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها .

ثالثاً : ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع ، فوجد بعدُ كما ورد على الوجه الذي أخبر .

رابعاً : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة .
أما الوجهان اللذان ألحقهما ؛ فهما :

أولاً : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره .

ثانياً : كونه آيةً باقية ؛ لا تُعدم ما بقيت الدنيا ؛ مع تكفل الله بحفظه .

أما الأوجه التي عدّها بعض القوم ولم يرتضها القاضي عياض ؛ فنذكر طرفاً منها :

- أن قارئه لا يملّه وسامعه لا يمجّه .
- جمعه بين الدليل والمدلول ، ذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته ، فخلل هذه البلاغة بأمره ونهيه ووعده ووعيده . . فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد .

– تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه وتقريبه على متحفظيه ، قال الله تعالى :
﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر ﴾^(١) وكل أمة من الأمم لا
يحفظ كتابها الواحد منهم ، فكيف العامة والأطفال على مرور
السنين ؟

وجعل القاضي رحمه الله عمدة الأمر كله في الأوجه الأربعة
الأولى ، ونَبَّه على أن الباقي مما ذكره أو أغفله إما أن يندرج تحت واحد
منها ؛ وإما أن يكون من خواص القرآن وفضائله . قال رحمة الله عليه :

(وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذُكر في إعجاز القرآن إلى وجوه كثيرة
ذكرها الأئمة ، لم نذكرها ، إذ أكثرها داخل في باب بلاغته ، فلا نحب أن
يُعدَّ فناً منفرداً في إعجازه ، إلا في باب تفصيل فنون البلاغة . وكثير مما
قدمنا ذكره عنهم ، يُعدُّ في خواصه وفضائله ، لا إعجازه . وحقيقة
الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا فليُعمدْ عليها ، وما بعدها من خواص
القرآن وعجائبه التي لا تنقضي . والله ولي التوفيق)^(٢) .

وقد ارتضى الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني هذه الأوجه الأربعة
وميزها عن غيرها فأوجز ما أورده القاضي عياض في أسطر قلائل^(٣) .

رأينا في تحديد أوجه الإعجاز :

١ - قبل أن نلقي عصا التسيار إلى نتيجة راجحة لدينا ، لا بدَّ من
المبادرة إلى تعريف (الوجه المعجز في القرآن الكريم) ليركن التحديدُ
إليه ويتمَّ النقاش بناء عليه . فإن هذا التعريف هو الأساس لتمييز ما يصلح
أن يُعتبر وجهاً وما لا يصلح أبداً . ولا جرم أن فَقَدَ هذا التعريف في

(١) سورة القمر : ١٧ .

(٢) الشفاء - للقاضي عياض : ج ١ ص ٢١٧ - ٢٣٧ .

(٣) فتح الباري : ج ٩ ص ٥ - ٦ .

أبحاث هذا الفن قد ساعد على الاختلاف المتجدد في تحديد أوجه الإعجاز إلى زماننا هذا .

ونُعرِّفُ الوجه المعجز في القرآن فنقول :

(كل مزية في نظم القرآن أو معانيه خارجة عن طاقة المخلوق) .

ونريد بذلك : كل وصف امتاز به القرآن عن غيره حتى أعجز المخلوقات عن معارضته . فيكون كل وجه معجز شاملاً عدداً من المعجزات الكثيرة المنبثة في غضون القرآن والتي تتسم جميعاً بوصف واحد مشترك . أعني أنها تندرج في موضوع واحد .

مثال ذلك : أن كل خبر غيبي في القرآن معجزة ، ولكن جميع أخبار القرآن الغيبية تُعدُّ وجهاً واحداً من أوجه إعجاز القرآن لاتصافها بوصف واحد مشترك معجز ، وهو الاخبار عن الغيب . وعلى هذا فقسُ كافة الوجوه .

٢ - وبناء عليه فإن كثيراً من الأوجه التي اعتدها الأئمة تغدو غير معتبرة في الأوجه . وتلحق خواص القرآن وفضائله . قال الألوسي في ذلك :

(قد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن ، وأتوا بوجوه شتى ، الكثير منها خواصه وفضائله ، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ، وأنه لا يمله تاليه بل يزداد حباً له بالترديد مع أن الكلام يُعادى إذا أُعيد ، وكونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه . والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجزٌ بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى . وقد يظهر كلها في آية وقد يستتر البعض كالأخبار عن الغيب ، ولا ضير ولا عيب فما يبقى كاف في العرض واف .

نجوم سماء كلما انقضَّ كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب (١)

٣ - ونلاحظ أن الألويسي عليه رحمة الله حذا حذو القاضي عياض ، فأدخل في الخواص والفضائل بعض أوجه الإعجاز وبعض ما يندرج تحت أحدها . فأما الذي يُعد وجهاً ؛ وأدرجاه في زمرة الخواص « فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه » . فإن كل مجموعة من آياته إذا تليت على ذي لب يفقه ؛ خلَّفت آثاراً قيمة تعتمل في باطنه على نحو لا يتوفر البتة في غيره من الكلام . وإذا كانت في نظرهما إحدى خواص القرآن فإنها عندنا خصيصة معجزة تعاود القارئ مراراً وتكراراً من أول القرآن إلى آخره . وتتسع وتزداد قوة وعمقاً في النفس مع ترداد التلاوة ، وفي هذا من المناقضة لكلام البشر ما لا يخفى ، ومن الإعجاز ما لا مرء فيه ، فما يمنع إذن من اعتبار ذلك الإعجاز النفسي وجهاً معجزاً ؟!

٤ - وإن بعض العلماء قد عدَّ الإخبار عن الغيب الماضي وجهاً والإخبار عن غيب المستقبل وجهاً آخر . وقد جمعناهما في وجه واحد لوحدة موضوعهما وتساويهما في رتبة الاعجاز . إلا أننا ميزنا الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن ، لأنه يحتوي معنى إضافياً فوق مجرد الخبر ، وهو الوعد بحصول أمر معين ، ولا يكون هذا من الله تعالى إلا تعهداً قطعياً بإنجازه . زد على ذلك الوعود المقيدة بشرط ، فإنها تتحقق بتوافر شروطها على توالي الأيام وتعاقب القرون ، وفيها من المعجزات المتجددة ما يدوم إلى قيام الساعة .

٥ - وأما كونه آية باقية بقاء الدنيا مصونة عن التبديل والتزييف والزيادة والنقصان بكفالة الله تعالى ، فذلك بقوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

(١) روح المعاني : ج ١ ص ٢٩ .

هذه معجزة مجيدة لم يحظَ بها كتاب سماوي في أمة من الأمم .
فإذا حصل هذا الحفظ المتقن في الأمة الأمية فذلك عين الإعجاز . . ثم
إن الله لما أخبر به ووجدناه بعد أربعة عشر قرناً على نحو ما أعلمنا
ووعدنا ، فذلك من الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن ، فيندرج تحت هذا
الوجه ، وقد ذكرناه فيه . فحفظ القرآن معجزة لا مناص لعاقل من التسليم
بها ، أما جعله وجهاً فهو عندنا غير مقبول نظراً لما اعتمدنا في تعريف
الوجه المعجز .

٦ - ومع تقدم الزمن وتعدد الحياة وإخفاق التشريعات الوضعية في
تلبية حاجات البشرية المتجددة يبدو الإعجاز التشريعي لكتاب الله تعالى فذاً
شامخاً يضع الأمور في مواضعها ويدفع بعجلة الإنسانية نحو حياة سعيدة
أساسها العدل والمحبة . لذا فإن إيراد الإعجاز التشريعي في أوجه
الإعجاز أمر حتمي لا مناص منه .

٧ - والناسُ فيما آلوا إليه في زماننا من انحطاط خلقي واهدار للقيم
والفضائل وتفكك اجتماعي وتمزيق لأواصر المودة وشائج الرحم والقربى
يتطلعون إلى المستوى الخلقي الكريم والترابط الاجتماعي الوثيق ، فلا
يجدون رواء ظمأهم وسكينة نفوسهم في غير الكتاب المجيد ، لما يظهر
فيه من معجزات في هذا المضمار تحققت في التاريخ القريب والبعيد ،
ولم تزل في عليائها تدل على نفسها بنفسها . فالإعجاز الخلقي
والاجتماعي بارز للعيان في القرآن .

٨ - وفي عصرنا الدافق بالمخترعات والمكتشفات القائمة على
الحقائق الكونية والعلمية نجد أن كثيراً من الحقائق العلمية - التي كان
الإنسان يرسف في قيود الجهل بها حتى مطلع العصر الحديث - قد
احتواها القرآن الكريم منذ نزل على محمد ﷺ من أربعة عشر قرناً . ثم
جاء العلم الحديث بما فيه من نزوع تجريبي ووسائل وأدوات حديثة ،

فأما اللثام عن صحتها ودقتها ، فهي من أبلغ المعجزات وأروعها وهي التي تشيد بصرح الإعجاز العلمي في القرآن .

وقد رأيتُ أن بعض هذه الأوجه لم ينتبه لفضلها العلماء الأقدمون عليهم رحمة الله ، وإنما نبهت الأذهانَ إليها مجرياتُ العصر الحديث ، فكان لا بد من بيانها وقد فعلناه .

٩ - ثمة مسألة أخرى أثارها القاضي عياض : فإنه رحمه الله قد عدَّ في الأوجه المعتمدة الوجهين التاليين :

١ - حسن تأليفه والتتام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة لعادة العرب .

٢ - صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها .

وأكد رأيه فيما بعد ، ثم نعى على من انصرف إلى أن الإعجاز غير موفور في كل منهما على انفراد فقال : (وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والاسلوب وأتى على ذلك بقوله تمجده الأسماع وتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه . والعلم بهذا كله ضرورة قطعاً . ومن تفنن في علوم البلاغة وأرهفَ خاطرَه ولسانَه أدبُ هذه الصناعة لم يخفَ عليه ما قلناه)^(١) .

والذي نراه :

أولاً : أن في الوجهين المذكورين بعض التداخل فإن حسن تأليف القرآن والتتام كلمه من سمات أسلوبه فلا يجوز أن تفصل عنه .

ثانياً : لا ينبغي اعتبار كل معجز في القرآن وجهاً ، بل المعبر في

(١) الشفاء : ج ١ ص ٢٢٤ .

ذلك مجموعة متماثلة من المعجزات القرآنية ذات موضوع واحد .

ثالثاً : لا جَرَم أن بلاغة القرآن وإيجازه معجز للبشر خارج عن قدرتهم ؛ وكذلك أسلوب القرآن ، ولكن كلاً منهما لا يقوم منفصلاً بل متداخلاً مع الآخر متماسكاً معه . فالبلاغة والإيجاز يعتمدان على حسن اختيار الكلمات ونمط الاسلوب .

ولا يصح عدُّ كل معجز في القرآن وجهاً من وجوه إعجازه ، فذلك شتات للبحث لا طائل تحته . فبلاغة القرآن وأسلوبه معجزان يتكاملان لتكوين أبلغ وجهه معجز فيه . وقد ورد التحدي به خاصة حين تحدى الله القوم أن يأتوا بمثل القرآن في حسن أسلوبه وروعة بلاغته وفصاحته ، وإن كانت المعاني التي يحكونها ممجوجة مختلفة من عند أنفسهم . قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (١) .

وبما أن التحدي وردَ به كله فقد ناسب اعتباره وجهاً مستقلاً ، خاصة وأن البلاغة بفنونها وأقسامها الاصطلاحية شيء متأخر الظهور ليس لأهل العصر الأول به عهد .

١٠ - بعد هذا العرض تسلم لنا هذه الأوجه التي اعتمدها وستفصل القول في تبيانها بعد ، وهي :

أولاً : الأسلوبُ البياني للقرآن .

ثانياً : الاخبار عن الغيب في القرآن .

ثالثاً : الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن .

(١) سورة هود : ١٣ - ١٤ وانظر روح المعاني : ج ١٢ ص ١٩ .

- رابعاً : سمو التشريع القرآني وشموله .
- خامساً : إعجاز القرآن الخلفي والاجتماعي .
- سادساً : الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .
- سابعاً : اتساق نظريات القرآن وأحكامه .
- ثامناً : الإعجاز النفسي في القرآن العظيم .

وهذا الرأي في وجوه الإعجاز وسط بين المقلين والمكثرين ، قائم على إنعام النظر في المعجزات القرآنية الكثيرة المتوافرة الخارجة عن طوق البشر ، إذ اعتبرنا كل صنف متمائل منها وجهاً معجزاً .

هل يحصل الإعجاز بجميع الأوجه أم بأحدها ؟

لقد رأيت قبل أن القاضي عياض نعى على من زعم أن كلام من الأسلوب والبلاغة في القرآن لا يكون معجزاً بمفرده ، وأن الإعجاز إنما يقوم بهما معاً . فالقاضي يرى أن كلاً منهما معجزة بمفرده . ثم تجد على الشاطيء الآخر من بحر إعجاز القرآن قولاً آخر يناهض الأول ويناقضه :

قال الزركشي بعد عدّه أوجه إعجاز القرآن : (الثاني عشر : وهو قول أهل التحقيق أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع . . .)^(١) .

ثم أضاف إلى الأوجه التي سردها قبل خمسة أوجه جديدة .

وفصل القول بين المذهبين المتتائين أن الذين أسهبوا في تعداد الأوجه حتى عدوا فضائل القرآن وخواصه ومزايا أسلوبه قد وجدوا بين أيديهم أوجه لا يقوم الإعجاز ببعضها أبداً . فتحتم عليهم عندها أن ينهوا

(١) البرهان في علوم القرآن : ج ٢ ص ١٠٦ .

إلى أن الإعجاز إنما يحصل بجميع ما ذكروا . أما الذين التزموا الاقتصاد في التعداد ، ولحظوا الإعجاز في كل وجه احتسبوه ، فقد أعلنوا أنه لا مناص من الاقرار بالإعجاز فيما ذكروه وجهاً وجهاً .

وهنا يتبين أيضاً لك أثر تعريف الوجه المعجز وتبيين المراد منه عند التحقيق في تحديد أوجه إعجاز الكتاب الكريم ، وكنا - بفضل الله - أول سالكيه ، وإليك فيما يلي تبيان أوجه إعجاز القرآن ، والله ولي التوفيق .

الوجه الأول الأسلوب البياني للقرآن

ونقصد بأسلوب القرآن : الطريقة الخاصة التي انفرد بها في انتقاء ألفاظه وإحكام تراكيبه وتأليف كلامه .

وإذا كانت أساليب كلام الناس تختلف باختلافهم سواء أكانوا ناثرين أم ناظمين ؛ فإن المفردات والتراكيب - في الجملة - وقواعد صياغة الكلام ؛ التي يُعول عليها الجميع ؛ واحدة . وهذا هو السر في عظمة القرآن وإعجازه البياني . فمع أنه لم يبرح معهود العرب في لغتهم ؛ من ناحية المفردات والجمل والقواعد العامة في صياغة التراكيب ونسج الكلام ، وأنه جرى على مألوفهم في ذلك كله ، فقد جاء على الوجه المدهش في مذهبه الكلامي ، يُعجز بأسلوبه الفذ ويستثير في أعماق النفوس أعجب العجب . . !!

وسرُّ القوة في إعجازه البياني أنه دخل عليهم من باب يعرفونه ، ولو أتاهم من غيره لتشبثوا بالأعدار ﴿ ولو جعلناه قرآن أعجمياً لقالوا : لولا فُصِّلَت آياته ؟ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ! ﴾^(١) .

وإذا ابتغيت التماسَ عوامل إعجاز أسلوبه فإن لها جوانب عديدة ، ندرس أهمها فيما يلي :

(١) سورة فصلت : ٤٤ . وقارن مع مناهل العرفان : ١٩٩/١ - ٢٠٠ .

« إذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في

القرآن الكريم غُصنا منه في بحر عميق لا قرار له »

ابن الأثير

نتحدث أولاً عن الفصاحة في الألفاظ العربية ، فالفصاحة في أصل
الوضع اللغوي : الظهور والبيان . وتقع الفصاحة وصفاً للكلمة وللكلام .
أما الكلمة الواحدة للعلماء المتقدمين تعريف مجمل ، إذ قالوا : « اللفظ
الفصيح : هو الظاهر البين » . وقد كان المتقدمون أهل فطرة سليمة تذوق
الفصاحة تذوقاً جبلياً فاكتفوا بمثل هذه الومضة في تعريف الفصاحة .

ثم وجد المتأخرون هذا التعريف بحاجة إلى بيان يحدد المراد من
الفصاحة ، فقالوا : (فصاحة الألفاظ : كونها ظاهرة متبادرة إلى الفهم ،
مأنوسة الاستعمال لحسنها) . فأهل البراعة في النظم والثر قد بذلوا غاية
الجهد الفني لاختيار الحسن من الألفاظ ، فاستعملوه ، وتأفّفوا من القبيح
فاجتنبوه ، فالألفاظ المألوفة الاستعمال في دائرة كلامهم لمكان حسنها هي
الألفاظ الفصيحة .

أما الحكم باستحسان لفظ واستهجان آخر فذاك أمر عائد إلى
الحسّ الفني . فالألفاظ من زمرة الأصوات ، فما استلذه السمع منها ومال
إليه فهو الحسن ، وما كرهه السمع ونفر عنه فهو القبيح . ألا ترى أن
السمع يستلذ صوت البلبل ويميل إليه ؛ ويكره صوت الغراب وينفر عنه !!
فالألفاظ جارية هذا المجرى ، فلا ريب أن لفظة « المُرْنة » أو « الدِّيمة »
حسنة يستلذها السمع ، ومألوفة الاستعمال فهي فصيحة ، وأن لفظة

« البُعاق » يكرهها السمع فهي نادرة الاستعمال قبيحة غير فصيحة ، مع أن اللفظات الثلاثة من صفة المطر^(١) .

وهكذا فإن حاسة السمع المرهفة في أهل هذا الفن هي الحَكَمُ العدل بين الألفاظ بحُسن الحَسَن وقُبْح القبيح . هذا ما ارتضاه ابن الأثير .

ثم حددوا شروط الفصاحة تحديداً يُسهل للدارس الفصل بين الفصيح من اللفظ وغير الفصيح ، فقرروا أن فصاحة الكلمة تتوقف على أربع صفات :

١ - سلامتها من تنافر الحروف : فتكون رقيقة عذبة تخف على اللسان ولا تثقل على السمع . فلفظ « أسد » أخف من لفظ « فَدَوْكس » ، وإنما يُدرك تنافر الحروف بالذوق والحس .

٢ - سلامتها من الغرابة : بأن تكون مأنوسة مألوفة الاستعمال .

٣ - سلامتها من الشذوذ : وهو مخالفة القياس الصرفي ، كأن تصف الله بـ « الأجلل » بدل « الأجل » .

٤ - سلامتها من الكراهة في السمع : لكونها وحشية تأنفها الطباع وتمجُّها الأسماع وتنبو عنها نبوها عن كل صوت منكر ، كقولك « الجرشي » بدل « النفس » .

لا تغرنك أصوات ناشزة تزعم أن ألفاظ العربية متساوية في

(١) « المزن » : السحاب ؛ واحده : مزنة : سحابة ، والمزنة : المطرة « الديمة » : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق ، والجمع : ديم « بكسر ففتح » « البعاق » : شدة الصوت . و « البعاق » بكسر الباء أو ضمها : المطر المنطفع بالماء ، يفاجيء بوابل . (انظر لسان العرب) .

الفصاحة ؛ بالنظر إلى أن العرب قد استعملتها جميعاً . فإن هذه النظرة سقيمة لا تفرق بين الغث والسمين ، وقد قطع علماء اللغة والنقد الأدبي نتيجة لدراساتهم ؛ بأن مجرد استعمال الكلمة ليس دليلاً على فصاحتها ، فخفت تلك الأصوات وتلاشت أدراج الرياح . أصغ إلى العلامة اللغوي الأديب الناقد نصر الله ضياء الدين بن الأثير ؛ إذ قال :

(وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكروا ذلك ، وقال : كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلاً حسناً . ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة « الغصن » ولفظة « العُسلوج » ؛ وبين لفظة « المُدامة » ولفظة « الإسْفِنط » ؛ وبين لفظة « السيف » ولفظة « الخَنْشَلِيل » ؛ وبين لفظة « الأسد » ولفظة « الفَدَوَكْس » ، فلا ينبغي أن يُخاطب بخطاب ، ولا يجاوبَ بجواب ، بل يُترك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجَعْرَ في رحله^(١) . . .

ومن له أدنى بصيرة يعلم أن لألفاظ نغمة لذيدة كنغمة أوتار ؛ وصوتاً منكرأً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ؛ ومرارة كمرارة الحَنْظَل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم^(٢) .

نقول بعد هذا التمهيد : إنك إذا تأملت القرآن وجدت الإبداع ظاهراً في احتوائه أفصح الألفاظ الرائعة المعبرة التي يتلقاها السمع أحسن قبول . فأني مفردة منه تناولتها بالفحص وجدت حروفها متلاقية متآلفة . وتجد في مفرداته البليغ الرصين الجزل في موطنه ، والفصيح القريب

(١) « الجعر » : قذر .

(٢) راجع في الموضوع : جواهر البلاغة : ص ٧ وما بعدها وفصول من علوم البلاغة : ص ٨ والمثل السائر في عدة مواضع .

اللين في موطنه أيضاً . ولو استعرضته كله مراراً وتكراراً ما رأيت فيه البتة لفظاً حوشياً موحشاً ؛ ولا هجيناً مذموماً أو ثقيلاً كريهاً ، مما تنفر منه الطباع المهذبة أو تمجج الأسماع المرهفة .

وقد شهد أجلّ علماء العربية أن ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وأن ما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطياب الثمر ؛ وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة^(١) .

فالله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء علماً . وقد أحاط جل شأنه باللسان العربي علماً ، فمخضه وألقى زبدته في كتابه الكريم . ويبين لك رتبة الكلم القرآني أن الواحدة منه تورد في تضاعيف كلام من الكلام شعراً كان أم نثراً ؛ فتتلفحها الأسماع وتتشوف إليها النفوس . فهي واسطة العُقد ودُرته تُضفي عليه من رونقها وجمالها .

وضع اللفظ في المعنى الأخص به :

وإن من أسس البلاغة وعمادها وضع اللفظ في المعنى الذي هو به أخص وأولى ، فإنه إذا أبدل غيره مكانه نجم عنه تبدل في المعنى يُفسد الكلام أو يذهب بالرونق فتتدنى البلاغة . فإن في الكلام العربي ألفاظاً يحسبها أكثر الناس متساوية في بيان مراد المتكلم ؛ كالحمد والشكر وغيرهما كثير . غير أن لكل لفظاً خاصة تميزها عن اللفظة التي تقاربها في بعض المعنى ، وإن كانت تشترك معها في بعض الدلالة .

فالحمد والشكر يفترقان في أن الحمد يكون ابتداءً بمعنى الشاء ، أما الشكر فلا يكون إلا في المكافأة والجزاء . تقول « حمدت هذا » إذا أثنت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يسبق إليك منه معروف ، و « شكرت زيداً » إذا أردتَ جزاءه على معروف ابتداءً به .

(١) انظر مقدمة مفردات الراغب الأصفهاني .

وان الحمد يكون بالقول ، أما الشكر فإنه يكون بالقول - كالحمد -
ويكون بالفعل أيضاً ، قال تعالى : ﴿ اعملوا آلَ داودَ شكراً ﴾ (١) . وإذا
أردتَ أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ،
فالحمد ضده الذم ، والشكر ضده الكفران . فالحمد يكون على النازل
المحبوب والمكروه ، بينما لا يرد الشكر بحال إلا على المحبوب .

ويتفقان في أن الحمد يأتي أيضاً في المكافأة والجزاء فيكون بمعنى
الشكر (٢) .

روعة تَخْيِيرُ الألفاظ للمعاني المبتكرة :

هذا وإن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من
تخير الألفاظ للمعاني الجديدة المستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى
البارع كان أطف وأملك للب من ورود اللفظ البارع في المعنى المعروف
المتداول . وإذا توافقت الألفاظ مع المعاني والمعاني مع الألفاظ من غير
زيادة في أحدهما على الآخر كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم . فالمعاني
الجديدة التي تضمنها القرآن الكريم - في تبيان العقيدة والشريعة من
حُجج في أصل الدين ورد على الملحدين إلى أحكام حاسمة في الحلال
والحرام - قد وردت بتلك الألفاظ البديعة ، وقد وافق بعضها بعضاً في
اللفظ والبراعة . وهذا مما يتعذر على البشر نظيره ويمتنع (٣) .

(١) سورة سبأ : ١٣ .

(٢) للاستزادة من هذا النوع انظر : بيان إعجاز القرآن - للخطابي : ص ٢٦ - ٣١ .

(٣) ومع ذلك فإن البليغ كثيراً ما يتعثر ويخفق في اختيار الألفاظ المثلى للمعاني المألوفة التي
يطرقها . ومن أقرب ما يدل على ذلك نقد الخنساء لحسان بن ثابت في سوق عكاظ في
قوله :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقلت الخنساء : ضعفت افتخارك في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : =

وقد استرعت فصاحة ألفاظ القرآن أنظار العلماء ذوي الضلالة في العربية ، وقد سبق ابن أبي الأصبع المصري إلى تخصيص باب عرض فيه لألفاظ من القرآن شاردة غريبة ، أوردها القرآن مورداً لم يقع مثله لمخلوق قط . وأشار إلى أن هذا في القرآن من الكثرة بحيث يعسر حصره . فقال رحمه الله :

(باب الفرائد : وهو مختصّ بالفصاحة دون البلاغة ، لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظةٍ تنزل منزلة الفريدة من حب العِقد ، وهي الجوهرة التي لا نظير لها ، تدل على عِظم فصاحته ؛ وقوة عارضته ؛ وجزالة منطقته ؛ وأصالة عربيته ؛ بحيث تكون هذه اللفظة إذا سقطت من الكلام عزّت على الفصحاء غرابتها . فقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز غرائب لا يقع مثلها لمخلوق ، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يعسر حصرها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾^(١) ، وقوله

= قلت : « لنا الجففات » والجففات : ما دون العشرة ، فقللت العدد ، ولو قلت (الجفان) لكان أكثر . وقلت : « الغر » والغرة : البياض في الجبهة ، ولو قلت (البيض) لكان أكثر اتساعاً . وقلت : « يلمعن » واللمع : شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر ، لأن الإشراق أديم من اللمعان . وقلت : « بالضحى » ولو قلت (بالعشية) لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت : « أسيفنا » والأسياف دون العشر ، ولو قلت (سيوفنا) كان أكثر . وقلت : « يقطرن » فدلت على قلة القتل ، ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت : « دمأ » و (الدماء) أكثر من الدم . وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك . وأمثال هذا النقد في أخبار العرب كثير لا داعي للإفاضة في نقله . وهكذا يبدو خطأ الحس الأدبي الفطري في اختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة ، حيث انتقدت الخنساء بيتين من الشعر في ثمانية مواضع . (انظر إعجاز القرآن للرافعي : ص ٢٥٥) .
وانظر بيان إعجاز القرآن للخطابي : ص ٢٣ - ٣٦ والرسالة الشافية للجرجاني : ص ١٠٧ (ثلاث رسائل في الإعجاز) وإعجاز القرآن للباقلاني : ٤٢ - ٤٣ ومناهل العرفان : ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها .
(١) سورة يوسف : ٥١ « حصحص » : ثبت واستقر .

سبحانه : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ﴾^(١) فألفاظ هذه الجملة كلها من هذا الباب ، وأجزلها قوله : ﴿ استيأسوا ﴾ وأفصحها قوله سبحانه : ﴿ خلصوا نجياً ﴾ ، وقل أن تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة من هذا الباب إلا في هذه الجملة ، فإن هاتين اللفظتين تضمنتا مع الفصاحة الإيجاز ، وهو أعلى ضروب البلاغة .

ولقد رأيت بعض شعراء المحدثين ضمّنها شعراً له ، فأتى له من الوقع في النفوس ما لا تطيق الألسن الفصيحة أن تعبر عنه ، وإن كان كل شعر ضمن شيئاً من لفظ القرآن فهو كذلك ، ولا مثل للشعر الذي يتضمن أفصح ألفاظه ، فقال هذا الشاعر « الطويل » :

أجبرتنا بالغور كيف خلصتم
لقد سمعت أذناي نجوى فراقكم
نجياً وأخفيتم حديثكم عني
فلا أبصرت عيناي ما سمعت أذني

فتأمل هذا الشعر الذي يجد اللبيب لسماعه نشوة كنشوة الخمر ، وما ذاك إلا أنه ألقى على شبيه ألفاظه اكسيراً^(٢) من لفظة القرآن ، فصار ذلك الشبه تبرأ^(٣) خالصاً ، ومزج باطله بحقه ، فتجلى عن الصدق ، وللصدق رونق .

ومن هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾^(٤) فانظر إلى لفظة ﴿ فزع ﴾ وتأمل غرابة فصاحتها لتعلم أن الفكر لا يكاد يقع عليها ، وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المُنذرين ﴾^(٥) فالمح هذه الألفاظ تجدها كلها في الطبقة

(١) سورة يوسف: ٨٠ « خلصوا نجياً »: انفردوا واعتزلوا متناجين. والمناجاة: التحادث سراً .

(٢) « الشبه » بالتحريك : النحاس الأصفر . « الاكسير » : مادة مركبة زعم الأقدمون انها

تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ، أو هي شراب يطيل الحياة في زعمهم :

(٣) التبر : الذهب .

(٤) سورة سبأ : ٢٣ .

(٥) سورة الصافات : ١٧٧ .

العليا من الفصاحة ، وكقوله تعالى : ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور ﴾^(١) وهذه الفريدة أعجب من كل ما تقدم ، فإن لفظة ﴿ خائنة ﴾ بمفردها سهلة مستعملة ؛ كثيرة الجريان على الألسن ، فلما أُضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع ، بحيث لا يُستطاع الاتيان بمثلها ، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها . وأشبه ذلك في الكتاب العزيز لا تدخل تحت الحصر^(٢) .

٢ - فصاحة جُمل القرآن وتراكيبه :

وفصاحة الكلام : تتوقف على توفر أمرين فيه ، أولهما : فصاحة مفرداته . والثاني : سلامة الكلام من أمور تؤدي إلى إبهام معناه ، وذلك بخلوه من ستة عيوب : تنافر الكلمات مجتمعة ، وضعف التأليف ، والتعقيد اللفظي ، والتعقيد المعنوي ، وكثرة التكرار ، وتتابع الإضافات .

فالكلام الفصيح يتركب من كلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتألفها ، ويسهل على العقل فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعاني^(٣) .

ألم ترَ كيف تواردت ألفاظ القرآن منسجمة متناسبة في الإبداع؟! تنتظم تارة في تراكيب رصينة جزلة متينة ؛ آخذاً بعضها برقاب بعض ، وتتوارد تارة أخرى متماثلة في السلاسة في عبارات فصيحة بليغة ، وقد تفردت في الحالين بأسلوبها ، واختصت بحسن ترتيبها وخلت من الحشو والزيادة ، فما لفظة في القرآن إلا لها دلالة خاصة وموقع سديد . فلو

(١) سورة غافر : ١٩ .

(٢) بديع القرآن : ص ٢٨٧ - ٢٨٨ : ابن أبي الأصبغ المصري (٥٨٥ - ٦٥٤ هـ) .

(٣) انظر للتوسع : جواهر البلاغة : ص ٢١ - ٢٢ وفصول من علوم البلاغة : ص ٧ - ٨ .

نَزَعَتْ كَلِمَةً مِنْهُ ثُمَّ نَظَرَتْ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ كُلِّهِ إِلَى أَحْسَنِ مِنْهَا فِي مَوْجِعِهَا وَاتْتَلَفَهَا مَعَ مَا حَوْلَهَا ؛ لِأَنَّكَ إِذْ لَمْ تَرَكَ خَاسِئًا حَسِيرًا وَعَقْلًا مَبْهُوتًا مُتَحِيرًا مِنْ عَظَمَةِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ !! فَتَدْرِكُ يَقِينًا أَنَّهَا تُعْجِزُ قَوَى الْبَشَرِ جَمِيعًا ، وَلَا تَبْلُغُهَا قُدْرَاتُهُمْ ، وَلَا تَدَانِيهَا مَوَاهِبُهُمْ أَبَدَ الْأَبْدِينَ .

وذهب الخطابي إلى أن مراتب الكلام في البيان والبلاغة متفاوتة : فأرفعها البليغ الرصين الجزل ، وأوسطها الفصيح القريب السهل ، وأدناها الطلق الرسل . وهذه أقسام الكلام الفاضل الم محمود . أما النوع الهجين المذموم فلا يوجد في القرآن شيء منه ألبتة .

وقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم حصة . فانظّم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذابة ، وهما على الأفراد في نعوتهما كالمضادين ، فالعذوبة نتاج السهولة ، أما الجزالة والتمتانة فتعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين في نظمه - مع نبوّ كل منهما عن صاحبه - فضيلةً خص الله بها القرآن بلطيف قدرته وعميق علمه ، ليكون آية بينة لرسوله محمد ﷺ ؛ ودلالةً مفحمة على صحة الإسلام الذي دعا إليه^(١) .

ويوازن الإمام الباقلاني بين أسلوب القرآن وغيره من الكلام ، فيذكر أن كلام البشر يضطرب في مجاريه ويختل تصرفه في معانيه ويتفاوت كثيراً في طرقه ، ويرد التصنع ظاهراً في تنقله وتخلصه ، فيدوم التغير في رتبة بلاغته وفصاحته حتى يقف بك على البديع المستحسن فيعقبه بقبيح مستهجن ، ويطلع عليك بوجه الحسنة ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين اللاليء الزهر من الكلمات .

ثم يقول رحمه الله : (ونظم القرآن في مؤلفه ومختلفه وفي فصله

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - بتصرف - ص ٢٣ - ٢٤ .

ووصله وافتتاحه واختتامه ؛ وفي كل نهج يسلكه وطريق يأخذ فيه ؛ وباب يتهجم عليه ووجه يؤمه ؛ على ما وصفه الله تعالى به لا يتفاوت ، كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ولا يخرج عن تشابهه وتمائله ، كما قال : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ وكما قال : ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ ولا يخرج عن إبانته ، كما قال : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ (١) .

وكلما ازداد المرء بصيرة بأسرار العربية وامتلاكاً لخاصية البيان ازداد للقرآن اذعاناً وبعجازه إيماناً . ومن لم يكن له إلمام كاف بأساليب العرب وتذوق لأدبهم ؛ فهذه شهادة الخبراء الصادقين من الأعداء والأصدقاء ، وقد جاءت على مرّ العصور يقينية قاطعة ، تشيد بعظمة القرآن المبين وإعجازه ، فتكفي من استهدى وأراد معرفة الحق بيقين (٢) .

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٥ - ٢٠٦ والآيات على الترتيب من سورة النساء : ٨٢ والزمر : ٢٨ و٢٣ والشعراء : ١٩٥ .
(٢) راجع ص ١٢٥ - ١٥٠ .

دراسة في ألفاظ القرآن وتراكيبه

وبعد التطواف في ربوع الدارسين لإعجاز القرآن العظيم نجد أن دراساتهم للألفاظ والتراكيب القرآنية تتركز حول أمور ، أهمها :

١ - تلحظ وأنت تتلو القرآن المبين حسن انتقاء ألفاظه ودقة اختيارها ، فهي ألفاظ تختال جمالاً وتألّقاً . وتنساب عذبة في الفم ؛ خفيفة على اللسان ، تستلذ بها الأسماع وتستطيبها الأنفوس وتهوي إليها الأفتدة . وقدم الإمام البارزي لهذا بياناً شافياً ، إذ قال :

(اعلم أن المعنى الواحد قد يُخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ؛ وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر . ولا بد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله . فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح والمليح والأملح . ولذلك أمثلة ، منها قوله تعالى : ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ لو قال مكانه : وثمر الجنتين قريب ، لم يقيم مقامه من جهة الجنس بين الجنى والجنتين ؛ ومن جهة أن « الثمر » لا

يُشعر بمصيره إلى حالٍ يُجنى فيها^(١) ؛ ومن جهة مؤاخاة الفواصل .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ﴾ أحسن من
التعبير بـ : تقرأ ، لثقله بالهمزة . ومنها : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أحسن من :
لا شك فيه ، لثقل الادغام . ولهذا كثر ذكر الريب . ومنها : ﴿ ولا
تهنوا ﴾ أحسن من : ولا تضعفوا ، لخفته .

و ﴿ وهن العظم مني ﴾ أحسن من : ضعف ، لأن الفتحة أخف من
الضمة .

ومنها : ﴿ آمن ﴾ أخف من : صدق ، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر
التصديق .

و ﴿ أترك الله ﴾ أخف من : فضلك . و ﴿ آتى ﴾ أخف من :
أعطى . و ﴿ أندر ﴾ أخف من : خوَّف . و ﴿ خير لكم ﴾ أخف من :
أفضل لكم . . . (٢) .

٢ - امتازت العربية بوفرة كلماتها في المعنى الواحد . وعلى الرغم
من ذلك فإن بين ألفاظها فروقاً دقيقة في دلالاتها . فإذا أنعمتَ النظر في
كتاب الله المجيد وجدته يورد كل لفظ ببراعة فائقة حتى يؤدي معناه بدقة
بليغة ، وقد مرَّ بك إيراد القرآن كلاً من « الحمد » و « الشكر » في موضعه

(١) يقصد أن إيراد لفظة « الثمر » مكان « جنى » في الآية يؤدي إلى قصور عن المعنى
المراد ، ذلك أن قول : « وثمر الجنتين قريب » لا ينبىء عن بلوغه مرحلة النضج
ليصير يانعاً تشتهيهِ الأنفس وتلذ به الأعين ، بينما يتبادر هذا المعنى إلى النفس والفكر
سراعاً من لفظة « جنى » .

(٢) الاتقان : ج ٢ ص ١٢٥ نقلاً عن مقدمة كتاب البارزي « أنوار التحصيل في أسرار
التنزيل » .

اللائق به . وأمثلة هذا كثيرة وفيرة ما تكاد تحصى ، وهي جميعاً تُنبئك أن كل لفظة قد استقرت في موضعها ، وعبرت عن المعنى المراد باستيفاء تام لا تقدر عليه كلمة أخرى غيرها إذا أُدرجت في مكانها ، والتزام الدقة في مراعاة دلالات الألفاظ وإيرادها بمواردها بالبراعة الفائقة على النحو الذي حصل في القرآن المبين أمر تعجز عنه الخلائق ، بل لقد اشتغل الناس في كلامهم بما يتجافى مع هذا الغرض اللغوي الرفيع . وقد نبّه إمام البلاغة في عصره أبو عثمان عمرو الجاحظ إلى ذلك بقوله :

(وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن « الجوع » إلا في موضع العقاب ؛ أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر « المطر » لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر « المطر » وبين ذكر « الغيث » . ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر « الأبصار » لم يقل : الأسماع ، وإذا ذكر « سبع سموات » لم يقل الأرضين ، ! ألا تراه لا يجمع الأرض : أرضين ؛ ولا السمعَ أسماً ؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ؛ وأولى بالاستعمال . . . والعامّة ربما استخفت أقلّ اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر^(١) .

٣ - يورد الكتاب المبين الألفاظ في موارد حساسة ، فلا تراها قاصرة على المعنى المتبادر منها للبال عادة ، بل تتسع دلالتها حتى توحى

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٤٠ .

لك بمعنى أهم وأجل وأدق . خذ كلمة (حياة) فقد وردت بصيغة النكرة في سياق الحديث عن اليهود الذين عرفوا دلائل نبوة محمد ﷺ وكفروا بها . قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهْم أحرصَّ الناسِ على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودُّ أحدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بِمُزحزحِه من العذابِ أن يُعَمَّرَ والله بصيرٌ بما يعملون ﴾ (١) .

أنت تشعر بأن كلمة (حياة) قد عبرت بدقة مرهفة عن حرص أولئك اليهود على أدنى قدر ممكن من الحياة مهما كان يسيراً قصيراً خاوياً من أي قيمة كريمة . فأثار ورودها بالتنكير معنى التحقير . وأفادت بالتالي أن اليهود أشد حرصاً على الحياة المتطاوله من باب أولى . فعبرت كلمة (حياة) في هذا المورد بأن واحد عن ضالة قيمة الحياة الدنيا وشدة تكالب أولئك اليهود عليها .

وتجد في مقابل هذا تعبيراً عن الحياة الآخرة بالمبالغة والتعريف ، لتفيد الصيغة تعظيمها واكبار شأنها ، وأنها هي الحياة الحقيقية ، فتحثك على التطلع إليها والاهتمام بها . قال الله تعالى : ﴿ وما هذه الحياةُ الدنيا إلاَّ لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لَهيَ الحيوانُ لو كانوا يعلمون ﴾ (٢) .

قدمت لنا هذه الآية تعبيراً حاسماً عميقاً عن تفاهة هذه الحياة الدنيا وسرعة زوالها واضمحلالها ، إذ حصرتها في اللهو واللعب من باب التشبيه البليغ ، فعكست لها في النفس صورة عبث الأولاد في لهوهم ولعبهم يتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه دون جدوى . وقابلت الآية ذلك التحقير

(١) سورة البقرة : ٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٤ .

للدنيا بمبالغة تُعظم فيها الحياة الأخرى أيما تعظيم ﴿ وإن الدار الآخرة
لهي الحيوان ﴾ فهي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا فناء .
و ﴿ الحيوان ﴾ في اللغة مصدر : حيّ ، وقد سُمي به كل ذي حياة . وهو
أبلغ من الحياة لأن في صيغة « فعلان » معنى الحركة والنشاط الملازم
للحياة . وهذا سر اختيار هذا اللفظ رعاية لما يقتضيه المقام ، فتأمل !

وأورد القرآن لفظ (حياة) على نحو يُشعر بعظيم أهمية الحياة
الآخرة وأنها هي الحياة الحقيقية الخالدة ، كما يشعرك بتفاهة أمر الدنيا ،
وكأنها سراب خادع ووهم باطل . فقد وصف تعالى الكافر يوم القيامة في
موقف التحسر والندم ، فقال جل شأنه : ﴿ وحيء يومئذ بجهنم ، يومئذ
يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول يا ليتني قدمتُ لحياتي ﴾ (١) .

فكأنه قال : يا ليتني قدمت في الدنيا أعمالاً صالحة لحياتي
الحقيقية الخالدة لتنفعني فيها . فأوجب ذلك التعبير على العاقل أن لا
يهتم بالحياة لذاتها وأن يتخذها وسيلة للفلاح والسعادة الأبدية في
الآخرة (٢) .

٤ - فواصل القرآن المبين :

يستصغي سمعك ويسترعي انتباهك في أواخر الآيات القرآنية طابع
خاص مميز . يسميه علماء القرآن : الفاصلة ، وأقول في تعريفها :
(الفاصلة كلمة تُختَمُ بها الآية فتُتم معناها ، وتتجاوب مع وقعها الصوتي
في الأذن) (٣) .

(١) سورة الفجر : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) روح المعاني : ج ١ ص ٢٩٧ وج ٢١ ص ١١ - ١٢ وج ٣٠ ص ١٢٩ .

(٣) قلنا « كلمة » ولم نقل « لفظة » فإن الفاصلة ، ربما تزيد على لفظة واحدة كقوله تعالى =

لكنك لا تجد في فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ أو أوزان ، إنما ترى بجلاء أن لها ارتباطاً وثيقاً بالمعاني . وقد أبرز ذلك العلماء لدى تعريفهم الفاصلة قال الإمام الباقلاني : « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني » وقال الإمام الرماني : « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب حسن إفهام المعاني » (١) .

وتحس عندما تستمع القرآن أو تتلوه أن لهذه الفواصل نغمات نفسية معنوية ؛ وإيقاعاً صوتياً يعطيك مُتعةً فنيةً مؤثرة ، تبتّ في فؤادك الطمأنينة والارتياح . وقد تناولتُ أبحاث العلماء في دراسة الفاصلة عدة نواح ، سنقتصر منها على ناحيتين ، هما : حرف الروي ؛ وارتباط الفاصلة بالنص القرآني .

رَوِيَّ الفاصلة القرآنية :

ليست فواصل القرآن على نسق واحد كما ترى قوافي الشعر أو قرائن السجع . فهي متماثلة أحياناً في حروفها الأخيرة . وأكثر ما تكون الفواصل تماثلاً في حروف الروي في الآيات والصور المكية كما في سورة الحاقة :

﴿ الحاقّة . ما الحاقّة ؟ وما أدراك ما الحاقّة ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ... ﴾ .

= في ختام الآية الأولى من سورة تبارك ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ وفي ختام الآية الثانية ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ .

(١) وقد عرف الزركشي الفاصلة بأنها : (كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر وقربنة السجع) البرهان : ١ : ٥٣ وانظر إعجاز القرآن : ص ٢٧٠ والنكت « ثلاث رسائل في الإعجاز » : ص ٨٩ .

وتكون الفواصل متقاربة في حروف الروي كما في سورة الدخان :

﴿ حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمةً من ربك إنه هو السميع العليم . رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيت رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ .

فالميم والنون حرفان متقاربان في المخرج اللفظي . وأكثر ما تكون الفواصل تقارباً في الآيات المدنية . وقلما يلحظ القارئ فاصلة منفردة عما سواها .

وقد جاء القرآن بأسهل موقف وأعذب مقطع ، فكثُر فيه ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون فمكَّن القارئ الذواق من التطريب بذلك أمتع تطريب ، وهذا منسجم مع سجية اللغة العربية ، وقد جنح العرب إليه من قبل . قال علامة العربية سيويه رحمه الله : (أما إذا ترنَّموا فإنهم يُلحِقون الألفَ والواو والياء ما يُنَوِّن وما لا يُنَوِّن ، لأنهم أرادوا مد الصوت)^(١) .

ارتباط الفاصلة بالنص القرآني :

وللفاصلة علاقة وثيقة بما قبلها من نص الآية ، وربما أشارت الآية إلى فاصلتها إشارة لفظية جلية ، وهذا ما أسماه العلماء : التصدير ، أو أشعرتك بها إشعاراً معنوياً لطيفاً ، وذلك هو : التوشيح .

فالتصدير : هو أن تتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو في أثنائه أو آخره . كقوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

(١) البرهان : ج ١ ص ٦٨ .

الوَهَابِ ﴿^(١)﴾ وقوله : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ ﴿^(٢)﴾ وقوله : ﴿ أنزله بعلمه والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ ﴿^(٣)﴾ .

وقد سُمى البلاغيون المتقدمون في هذا الصنف « رد الأعجاز على الصدور » .

والتوشيح^(٤) : وهو أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها . كقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمون ﴾ ﴿^(٥)﴾ فإن تالي هذه السورة إذا كان متيقظاً فطناً ملاحظاً أن فاصلتها النون المردفة ؛ هده صدر الآية ﴿ انسلاخ النهار من الليل ﴾ إلى أن الفاصلة ستكون (مظلمون) . فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، وظل في الظلمات ما دامت تلك الحال .

والفارق بين النوعين أن دلالة التصدير لفظية ودلالة التوشيح معنوية . وربما يرد في الآية تمهيد للفاصلة فتأتي متممة لمعنى الآية ، وهذا هو التمكين . وقد تأتي الفاصلة على غير تمهيد سابق فتفيد زيادة في معنى الآية ، وهذا هو الإيغال .

فالتمكين : أن تُمهَّد الآيةُ بمعنى يناسب الفاصلة حتى تغدو الفاصلة

(١) سورة آل عمران : ٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٢١ .

(٣) سورة النساء : ١٦٦ .

(٤) سمي توشيحاً لأن معنى أول الآية يدل على فاصلتها . فيتنزل المعنى منزلة الوشاح ، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح . « تحرير التحرير : ٢٢٨ » .

(٥) سورة يس : ٣٧ .

مكينة في مكانها راسخة في قرارها مطمئنة من موقعها من غير قلق ولا نشوز . يتعلق معناها بمعنى الآية تعلقاً تاماً وينسجم معه دونما نفور . تأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ قالوا ربُّنا يعلمُ إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلاّ البلاغُ المبين ﴾ (١) فإنه لما ذكر الرسالة أثار ذلك في الذهن وظيفتها ومهمتها ، فكان ذلك توطئة لورود الفاصلة بـ ﴿ البلاغُ المبين ﴾ .

وأنعم النظر في قوله تعالى : ﴿ قيل ادخلِ الجنةَ قال يا ليتَ قومي يعلمونَ بما غفرَ لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ (٢) فإنه تعالى لما ذكر ادخال عبده الجنة أفاد أنه قد كساه بحلة الرضوان ، ومن نال رضوان الله تعالى فقد فاز بإكرامه ، فصارت الفاصلة مناسبة و متممة للسياق .

وهذا باب يوقفك على سر عظيم من أسرار القرآن المبين ، فاشدد به كلتا يديك .

والإيغال (٣) : أن تردّ الآية بمعنى تام وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحد الذي بلغته الآية ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تُسمعُ الصمّ الدعاءَ إذا ولّوا . . ﴾ فإن المعنى قد تم بهذا القدر من الكلام . غير أنه يبقى محتملاً معنى التولي مجانبة يلحظ معها المتولي مخاطبه بعض اللحظ ، فجاءت الفاصلة ﴿ مُدبرين ﴾ (٤) فزادت على معنى الآية ، إذ أوغلت في التعبير عن توليهم ، وبالغت في تصوير إعراضهم ، حتى جعلته متجافياً عن استيعاب أقل إشارة وأيسر ملاحظة . فإن الادبار إعراض كلي من جميع الجهات عن صاحب الخطاب .

(٢١) سورة يس : ١٦ - ١٧ و ٢٦ - ٢٧ .

(٣) الإيغال : يقال : أوغل في الأرض الفلانية : إذا بلغ منهاها . وكذا المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه بزيادة فيه ، فقد أوغل (البرهان : ١ : ٩٦) .

(٤) سورة النمل : ٨٠ .

إن الصلة وطيدة بين فواصل القرآن العظيم وبين معاني الآيات ، غير أنها تظهر جلية أحياناً ويستخرجها اللبيب أحياناً أخرى . وهي منحصرة في الأحوال الأربعة السابقة : التصدير والتوشيح والتمكين والإيغال^(١) .

فالفاصلة القرآنية قامت بأداء حظ من معنى الآية ، ولم ترد البتة بشيء من فضول القول وإلا لخرج بعض الكلام عن بعض . فأنت تجد للتراكيب القرآنية من التلاحم والائتلاف وقوة التماسك ما لا تجده في كلام سائر البشر . فإذا وقفتَ على تماثل أنغام الفواصل أحياناً وتقاربها أحياناً أخرى ؛ وعلى انسجام كل فاصلة مع جرس الكلمات وإيقاع المقاطع في آيتها ؛ أدركتَ أن ههنا سرّاً عظيماً من أسرار الإعجاز البياني يأسر قلوب البشر ويستعصي على عبقرياتهم .

إن فصاحة القرآن المبين أمر عظيم لا يُدرَكُ شأوه ، والله درُّ العلامة اللغوي الأديب الناقد ؛ نصر الله ضياء الدين بن الأثير ؛ ما أحكمَ رأيه وأصدقَ قوله : (وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له) .

٣ - بلاغة القرآن المعجزة^(٢) :

لا بد أن نأخذ بناصية المعنى العام للبلاغة ، لتأنس به في تضاعيف

(١) انظر تفصيل بحث الفاصلة في الاتقان : ٢ : ٩٦ والبرهان : ١ : ٧٨ - ٩٨ وبدائع القرآن : ٣٦ - ٣٧ و ٨٩ - ٩٣ وتحرير التحيير : ١١٦ - ١١٧ و ٢٢٤ - ٢٤١ ومن بلاغة القرآن : ٧٥ - ٩٨ .

(٢) ظهر في فيض الطباعة الحديثة كتاب عن التصوير الفني لطالب باحث ، وإنك لتأسف لتلك الجهود الكبيرة التي ضاعت فيه بافتقارها الأساس العلمي الموضوعي وهو الدراسة الواعية للبلاغة العربية وقواعدها ، ومن ثم إدراك بلاغة القرآن العظيم المعجز وتصويره في ظلالها . وهذا ما تسبب في الخطب والخلط بين منهج سيد قطب رحمه الله وبين مناهج الآخرين ، التي وهم الكاتب - بحماسة وتعصبه - أنها مأخوذة عنه . والواقع أن كلاً منها في واد . ولعل سقوط عزو أو إسقاطه في موضع واحد قد حملة =

الحديث عن بلاغة كتاب الله المجيد .

(فبلاغة الكلام : هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)
فالبلاغة تختص بالكلام المؤلف ، فلا تكون وصفاً للكلمة المنفردة .
وفصاحة الكلام شرط لا مندوحة عنه في بلاغته ، فكل كلام بليغ فصيح
وليس كل فصيح بليغاً ، فالبلاغة أخص من الفصاحة وبينهما خصوص
وعموم مطلق^(١) .

وإنك لتجد كلامَ الخطيب المصقع والكاتب الكامل والشاعر
المفلق يختلف في مراتب البلاغة حسب الأغراض التي يعرض لها . وإن
أحدهم ليأتي بغاية البراعة في معنى ، فإذا ورد إلى غيره قصر عنه ووقف
دونه ، وبأن التفاوت في كلامه فمن الشعراء من يُجود في المدح دون
الهجاء ومنهم من يُبرز في الهجاء دون المدح ومنهم من يتفوق في التقرّظ
دون التأيين أو على العكس من ذلك ، حتى إن الفرزدق ؛ الشاعر الكبير
المشهور ؛ لما توفيت زوجته رثاها بقول جرير :

= على تعميم أوامه ، وأغراه بذلك تعصبه وفساد ظنه وغفلته عن الظروف الاجتماعية
للعلماء المعاصرين ؛ وتقاعسه عن الاستفسار والتثبت منهم .

هذا وإنه لم يكلف نفسه القيام بأي مقارنة بين نص لأي من تلك الكتب الكثيرة
التي تهجم على أصحابها وبين نص مقابل من كتاب سيد قطب رحمه الله ، فظلت
دعواه عارية عن أي دليل مقنع !!؟؟ . وما أكثر الطاقات التي تُبدد فيما لا طائل
وراءه ، بل في اتجاه التمزيق والتخريب !!

كان حرياً بالكاتب أن يبحث في التصوير القرآني عامة عند سيد رحمه الله وعند
الآخرين ، بل كان حرياً به أن يتقدم بجديد في الميدان إن كانت له أدنى قدرة عليه !!؟ .
أما وأنه لم يفعل ذلك فقد كان يشرفه أن يظهر ثراء المكتبة الإسلامية المعاصرة بهذا
الموضوع الجليل مميّزاً ودارساً لمناهج المؤلفين فيه ، وفي هذا مندوحة له عن العكوف
في محراب تمجيد السادة والكبراء !!؟؟ . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) للتوسع في هذا راجع مصادر فن البلاغة ، وانظر جواهر البلاغة : ص ٣٢ - ٤٠
وفصول من علوم البلاغة ص ٣ - ٦ .

لولا الحياء لعادني استعبارٌ ولزرتُ قبرك والحبيب يُزارُ
ومن الشعراء مَنْ يجيد في وصفِ الإبل أو الخيل ؛ أو في وصف
الحرب أو الروض أو الخمر ، أو يبدع في الغزل ؛ أو غير ذلك من
الأغراض ، ولذلك ضرب المثل بامريء القيس إذا ركب ؛ والنابغة إذا
رهب ؛ والبحثري إذا رغب . وهؤلاء هم المُبرِّزون في النظم المشهود
لهم بالتقدم فيه . ومثلُ هذا التفاوت سارٍ في الخطب والرسائل وسائر
أجناس الكلام . بل إن من البلغاء مَنْ تجوّد قريحته في الكلام المرسل
دون الموزون ومنهم من كانت إجادته في المنظوم دون المرسل .

فإذا تأملتَ نظم القرآن في جميع ما يتصرف فيه من أوجه المعاني
وجدته على حدٍ واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصيف ، لا
يتفاوت ولا يتباين ولا ينحط عن المنزلة العليا في كل غرض من أغراضه ؛
في عرض العقائد والحجج ؛ في القصص والمواعظ ؛ في الحكم
والأحكام ، وفي الوعد والوعيد والانذار والاعذار ؛ وفي التبشير
والتخويف ؛ وفي تلقين الشيم الرفيعة والخصال الكاملة .

وإنك لتلاحظ أن الآيات جميعاً طويلها وقصيرها قد بلغت رتبة
الإعجاز على حدٍ واحد لا يتفاوت . وإن الواحد من الناس ليختلف بيانه
في تكرار القصة الواحدة اختلافاً بيّناً . فترى القرآن يكرر قصصه لحكم
جليلة ، وهو فيها جميعاً على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، وذلك أيضاً
برهان على أنه مما لا يقدر عليه البشر ، وأي برهان !!

وتجد كلام الفصحاء وقد علاه التفاوتُ البينُ في الفصل والوصل
والعلو والنزول . فأهل الصنعة قد اتفقوا على أن البحثري مع جودته نظمه
وحسن وصفه يُقصر في الخروج من النسب إلى المديح . بينما يستبين
لك أن القرآن الكريم - على اختلاف فنونه - يجعلُ المختلف كالمؤتلف ؛
والمتباين كالمتناسب ؛ والمتعدد المتنوع في أفرادهِ مُتسقاً مؤتلفاً في بناء

واحد . وهذا شأن عجيب تتسامى به الفصاحة والبلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز الممكن المألوف .

ثم انظر إلى آثار بلغاء القوم تجد حكيمهم أو خطيئهم ؛ لم يصدر عنه إلا كلمات معدودة ، وأن شاعرهم إنما نظم قصائد محدودة ، ويقع عند هذا وذاك التباين الواضح والاختلال الفاضح ، وقد يصدر في مواطن عن تعمل وتكلف ؛ أو عن تجويز وتعسف . ثم أنعم النظر في كتاب الله تبارك وتعالى ، يبدُ لك على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة متوازيماً في البلاغة ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ اللهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ، مِثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ (١) .

فليس للعرب كلام مطوّل على هذا القدر ، بمثل ذاك التناسب في البلاغة والتشابه في البراعة ؛ والتصرف في بديع القول بمعانٍ لطيفةٍ وحِكمٍ وافرة . قال الإمام حازم القرطاجني في منهاج البلغاء : (وجه الإعجاز في القرآن : من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر . وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحاءها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه) (٢) .

وإن مما اعتر العرب به من ضروب الشعر وشهدوا له بالتفوق فصاحة وبلاغة ؛ شعر امرئ القيس ، وأجود قصائده قصيدته التي مطلعها :

(١) سورة الزمر : ٢٣ راجع تفسير الآية : ص ١٣٢ .

(٢) « الفترة » : الضعف والانكسار . انظر الاتقان : ٢ : ١١٩ .

فما نَبِكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل
بِسِقْطِ اللوى بين الدُحُولِ فَحَوْمَلِ

وقد قدم الإمام الباقلاني دراسة مفصلة عن هذه القصيدة ، بلغ فيها مأربه بفضح الشاعر في إظهار عيوب شعره وكشف عواره ، وأنه ليس متناسباً في جودة البلاغة ولا متشابهاً في صحة المعاني والألفاظ . فهو يتصرف بين وحشيٍّ غريبٍ مستنكرٍ وعربية كالمُهمل مستكرهة ، وبين كلامٍ متوسطٍ سليمٍ وعاميٍّ سوقيٍّ في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنةٍ وسخفٍ شنيعٍ .

وهذا يثبت أن نظم القرآن أسلوب خاص وجنس متميز متخلص عن النظر ، لا ينحط عن معارج البلاغة الكاملة الخارقة للعادة المتجاوزة وسع المخلوقين في كافة نواحي كتابه المديد المترامي الأطراف ، صاغه الله على ذلك بحكمته ، ليدل على أنه كلامه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويثبت به رسالة نبيه محمد ﷺ ، فإن كلام الأدمي إذا امتد وقع فيه التفاوت ويأن عليه الاختلال ، كما أخبر سبحانه وتعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾^(١) .

أما النماذج القرآنية فقد تفوقت في استجماع أزهى ألوان البلاغة في تناسق مدهش وتداخل متماسك ، وجاءت أكثر من أن يفرغ المرء لتقصيه وعده . وعلى الرغم من توافر فنون البلاغة وتزاحمها ، فإن كلاً منها قد ورد في موطنه على أكمل صورة وأتم مناسبة . لا يتطرق إليه خلل ولا يحتمل فيه انتقاص . فمما لا جدال فيه - بعد هذا - أن الإتيان بمثل القرآن ليس في قدرة أحد من الخلائق قط . ذلك أن الفصيح منهم يضع خطبة أو

(١) سورة النساء : ٨٢ . وانظر إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٣٦ - ٣٨ . وانظر فيه تحليله ونقد قصيدة امرئ القيس : ص ١٥٩ - ١٧١ .

ينظم قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال يُنقحها حولاً كاملاً ، ثم يأخذها بعده أناس فيتناولونها بقرائحهم تبديلاً وتنقيحاً ، ويظل فيها بعد ذلك مواضع للنظر والنقد . ألا تذكر في هذا كلام ابن عطية ؟ تذكر قوله : (وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ؛ وتوالي فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن محيطاً قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . . .)^(١) .

نماذج من البلاغة القرآنية :

إن كمال البلاغة القرآنية قد تجاوز وسع بلغاء البشر وحمل علماء الفن على أفراد هذا الباب بمصنفات خاصة ، منها بديع القرآن لابن أبي الأصعب المصري وقد عرض فيه كثيراً من ألوان بلاغة الذكر الحكيم ليظهر سموها على بلاغة البشر وارتقاؤها معارج لا تراودهم أنفسهم على صعودها لافتضاح عجزهم عنها . وإليك باباً سبق المؤلف إلى إفراده ؛ أسماء : باب الإبداع :

(وهو أن تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمنة بديعاً أو بديعين بحسب قوة الكلام ، وما يعطيه معناه ، بحيث يأتي في البيت الواحد والجملة الواحدة عدة ضروب من البديع ، ولا تخلو لفظة منه من بديع ، فما زاد عليه) .

(وما رأيت ولا رويت في الكلام المنشور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع ، وعددها

(١) راجع النص كاملاً ؛ للأهمية البالغة : ص ١٨٠ - ١٨٢ .

سبع عشرة لفظة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) وتفصيل ما جاء فيها من البديع : المناسبة التامة في : ابلعي وأقلمي ، والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض ، والاستعارة في قوله : ابلعي واقلمي للأرض والسماء ، والمجاز في قوله : (يا سماء) فإن الحقيقة : ويا مطر السماء أقلمي ، والإشارة في قوله : (وغيض الماء) فإنه سبحانه وتعالى عبّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة؛ لأنَّ الماء لا يغيض حتى يُقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقصُ الحاصل على وجه الأرض من الماء ، والإرداف في قوله : ﴿ واستوت على الجودي ﴾ فإنه عبّر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة ، والتمثيل في قوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ فإنه عبّر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بُعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف ، والتعليل لأنَّ غيُض الماء علة الاستواء ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض ، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض ، والاحتراس في قوله : ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ محترساً من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عمَّ من لا يستحق الهلاك فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليُعلم أنهم مستحقوا الهلاك ، فإن عدله منع أن يدعوا على غير مستحق للدعاء عليه ، والانفصال فإن لقائل أن يقول : إن لفظة القوم مستغنى عنها ، فإنه لو قيل : « وقيل بعداً للظالمين » لثم الكلام ، والانفصال عن

(١) سورة هود : ٤٤ و « أقلمي » أمسكي عن إرسال المطر . أقلع عن عمله كف عنه .
« غيُض الماء » : نقص « الجودي » : اسم جبل « بعداً للقوم الظالمين » : هلاكاً لهم .

ذلك أن يقال : لَمَّا سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَا مَرًّا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾^(١) وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام : ﴿ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾^(١) فاقتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَا مَرًّا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله : ﴿ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ فحصل الانفصال عن الإشكال ، وعُلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام . والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد عن معناه ولا ينقص عنه ، وحسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً ، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ثم عطف غِيضَ الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود ، وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها ، والإيجاز لأنه سبحانه اقتصر القصة بلفظها مستوعبة ، بحيث لم يُخل منها بشيء في أخصر عبارة ؛ بألفاظ غير مطولة ، والتسهيم : لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : ﴿ أَقْلَعِي ﴾ يقتضي آخرها ، والتهديب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه . وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا

(١) سورة هود : ٣٨ و ٣٧ .

مستدعاة . والإنسجام : وهو تحدر الكلام بسهولة وعدوية سبك مع جزالة لفظ ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء ، وما في مجموع ألفاظ الآية من الإبداع ، وهو الذي سُمي به هذا الباب ، إذ في كل لفظة بديع وبديعان ، لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت أحداً وعشرين ضرباً من البلاغة سوى ما يتعدد من ضرورها ، فإن الاستعارة وقعت في موضعين : وهما الابتلاع والاقلاع . فانظر : رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقديره قدره . وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني . والله أعلم (١) .

وقد بذل البلغاء المهرة المتقنون غاية الجهد في استجلاء معالم البلاغة في هذه الآية ففصلوا بعض مزاياها وتركوا منها ما لا يكاد يصفه الواصفون .

فقد مضى العلامة السكاكي إلى النظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ؛ وجهة علم المعاني ؛ وجهة الفصاحة المعنوية ؛ وجهة الفصاحة اللفظية .

أما من جهة علم البيان : فإن الله عزَّ سلطانه لما بيَّن إرادته في أن يعيد ما انفجر من الأرض من الماء إلى باطنها فعاد ، وفي قطع طوفان السماء فانقطع ، وفي غيظه فغاض ، وإرادته تعالى إنجاز وعده لنوح بإغراق قومه فانقضى ذلك الأمر ، وتسوية السفينة على الجودي فاستوت وإبقائه الظالمين غرقى - لما أراد بيان ذلك كله - بنى جل شأنه الكلام على تشبيهين اثنين :

أولهما : أنه تعالى شبه الشيء المراد بالشخص المأمور الذي لا يتأتى منه العصيان لكمال هيئته من أمره .

(١) بديع القرآن - ابن أبي الأصبع المصري : ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .

ثانيهما : شبه تعالى تكوين الشيء المراد بالأمر النافذ الحاصل ،
تصويراً لاقتداره العظيم . وإن هذه الأجرام العظيمة من السماوات
والأرض تابعة لإرادته تعالى إيجاباً وإعداداً ؛ ولمشيئته فيها تغييراً
وتبديلاً ، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه جل جلاله حق معرفته ،
وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه ، وتحتم عليهم بذل
المجهود في تحصيل مراده ، وتصوروا مزيد اقتداره فعظمت مهابته في
نفوسهم ، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم ، فصاروا لا يتلقون إشارته
بغير الإمضاء والانقياد ؛ ولا أمره بغير الإذعان والامتثال .

لقد بنى جل جلاله نظم الكلام في الآية على مجموع التشبيهين ،
فقال تعالى :

(قيل) : على سبيل المجاز عن الإرادة ؛ من باب ذكر المسبب
وإرادة السبب ، لأن الإرادة تكون سبباً لوقوع القول في الجملة . وجعل
قرينة هذا المجاز خطاب الجماد ، وهو « يا أرض . . . ويا سماء » إذ
يصح أن يراد حصول شيء متعلق بالجماد ، ولا يصح القول له حقيقة .

(يا أرض . . . ويا سماء) : مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة
للشبه المذكور والاستعارة هنا مكنية ، إذ ذكر المشبه وحذف المشبه به ،
وهو مأمور يعقل الخطاب ؛ موصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان
« كالملائكة » . والقرينة هنا : نسبة الخطاب إلى المشبه « الأرض
والسماء » ودخول حرف النداء عليه ، وهما من خواص المأمور المطيع ،
ويكون هذا تخيلاً .

﴿ ابلعي ماءك ﴾ : استعار « البلع » لغور الماء في الأرض ، فإن
البلع هو عمل الجذب في المطعوم ، والشبه بينهما هو الذهاب إلى مقر
خفي . وفي الكشف أن البلع مستعار لنشف الأرض الماء . ثم استعار
الماء للغذاء استعارة مكنية ؛ تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في

إنبات الزروع والأشجار كما يتقوى الأكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة « ابلعي » لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء .
والحاصل أن في لفظ « ابلعي » :

١ - استعارة لغور الماء باعتبار جوهر البلع « حقيقته » .

٢ - استعارة لتكوين المراد باعتبار صورة الأمر .

٣ - باعتبار كونه أمر خطاب : فإن فيه ترشيحاً للاستعارة الممكنة التي في المنادى ، فإن قرينتها النداء . وما زاد على القرينة فهو ترشيح للاستعارة .

﴿ ماءك ﴾ : إضافة الماء إلى الأرض مجاز لغوي ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض بآتصال الملك بالملك . وفي اختيار ضمير الخطاب : ترشيح لهذه الاستعارة الممكنة ، من حيث أن الخطاب يدل على صلوح الأرض للمالكية .

﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ : فيه من الاستعارة والترشيح ما أوردناه في قوله تعالى : ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ﴾ .

﴿ وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً ﴾
فلم يصرح تعالى بمن غاض الماء ولا بمن قضي الأمر وسويت السفينة ؛ ولا بمن قال بعداً ، كما أنه لم يصرح سبحانه بالقائل : « يا أرض . . . ويا سماء » في صدر الآية ، إذ سلك في كل واحد منها سبيل الكناية لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلا من ذي قدرة قهار لا يُغالب جلت عظمته . فلم يترك مجالاً للتوهم باحتمال أن يكون غيره تعالى قائلاً : يا أرض . . . ويا سماء ، ولا غائض ما غاض ، ولا قاضي ذلك الأمر الهائل الجلل .

﴿ بعداً . . . ﴾ : ذكر بعضهم أن البعد في الأصل ضد القرب ، وهو باعتبار المكان ، ويكون في المحسوس ، وقد يقال في المعقول نحو

« ضلوا ضلالاً بعيداً » واستعماله في الهلاك مجاز .

﴿ للقوم الظالمين ﴾ : ختم تعالى الكلام بالتعريض لينبه سالكي مسلك أولئك القوم في تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنهم ظلموا أنفسهم لا غير . فختم بإظهار محل تنزل سخطه تعالى وجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم ، كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم ووصفهم بالظلم مع تعليق الحكم بمصيرهم به .

أما النظر في الآية من جهة علم المعاني ، فذلك أنه تعالى قال :

﴿ يا أرض ﴾ : فاختار أداة النداء « يا » على غيرها من أدواته . فهي أكثر استعمالاً وتدل على بعد المنادى ، وهو تبعيد يؤذن بالتهاون به . وهذا مما يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت . ولم يقل « يا أرض » بالكسر ، لأن الاضافة إليه جل شأنه تشریف للأرض وتكريم ، فتركها إمداداً للتهاون . ولم يقل « يا أيتها » : اختصاراً واحترازاً عن تكلف تنبيه الأرض الذي يُشعر بغفلتها ، مما لا يناسب المقام القاضي بسرعة استجابتها لأمره تعالى .

﴿ ابلعي ﴾ اختير هذا اللفظ على « ابتلي » لكونه أخصر وأوفر تجانساً مع ﴿ أقلعي ﴾ . وأورد « الماء والأرض والسماء » بالإفراد دون الجمع لأن في الجمع صورة الاستكثار التي يتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت .

﴿ ابلعي ماءك ﴾ : ذكر المفعول احترازاً من تعميم الابتلاع للجبال والتلال . . . نظراً إلى عظمة الأمر المهيب وكمال انقياد المأمور له . ولم يذكر متعلق ﴿ أقلعي ﴾ اختصاراً واحترازاً عن الحشو ؛ لأنه صار معلوماً . وهذا هو السبب في ترك ذكر حصول المأمور به ، فلم يقل : يا أرض ابلعي فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت .

وقال : ﴿ واستوت ﴾ ولم يراع الأفعال المبنية للمجهول قبلها إذ لم يقل : « سُويت » ، لأن « استوت » أخصر ولأن الفعل المقابل وهو « الجريان » جاء من قبلُ منسوباً إلى السفينة (وهي تجري بهم) .

﴿ بُعداً للقوم الظالمين ﴾ : اختار لفظ « بعداً » على : ليعبد القوم ، ليؤكد معنى الفعل بالمصدر ، وليختصر العبارة فيستغني عن قول : ليعبد القوم بعداً ، وليدل على استحقاتهم الهلاك بذكر اللام (للقوم) . وأطلق « الظلم » عن أي قيد للمبالغة ، فأفاد تناول كل ظلم ؛ حتى ظلمهم لأنفسهم أيضاً ؛ لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم لتكذيب الرسل ، فإنه ظلم لأنفسهم إذ يعود ضرره عليهم .

أما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل في الآية فإنه قدم النداء على الأمر فقال :

﴿ يا أرض ابلعي . . . ويا سماء أقلعي ﴾ دون أن يقول : « ابلعي يا أرض . . . » إذ قدم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى ، وذاك مقتضى خطاب من كان مأموراً حقيقة ، وقصد بذلك الترشيح للاستعارة المكنية في الأرض والسماء ، وقدم أمر الأرض على أمر السماء ، لابتداء الطوفان منها ، كما أفادت آية سابقة .

وإذا تمليت الآية من ناحية الفصاحة المعنوية أدركت أنها نظم لطيف للمعاني وأداء ملخص منير مبين ، لا ترى فيه أثراً لمعاظلة أو لتعقيد يتعثر الفكر في طلب المراد منه ، ولا تجد التواء يشيك الطريق على المرتاد ، بل لاحظ نفسك عند استماع الآية تجد ألفاظها تسابق معانيها ؛ ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما لفظة منها تردُّ إلى أذنك إلا كان معناها أسبق إلى قلبك .

وتأمل جانب الفصاحة اللفظية تتجلى لك ألفاظها عربية فصيحة

مأنوسة ؛ جارية على قوانين اللغة ؛ سليمة من التنافر ؛ نائية عن الشذوذ ؛ بريئة من البشاعة . وتستشعر لها عذويةً في الفم ؛ وسلاسةً على اللسان ؛ وجمال جرس في الأذن ، فهي كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة^(١) .

ارتقت هذه الآية أقصى مراتب الاعجاز ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان البشري ، فاستذلت مصاقع العرب ، وسفعت بنواصيهم ؛ فاضحةً عجزهم وكاشفةً قصورهم وبعُد الشقة بينها وبين بيانهم ، إذ بلغت أقصى الطرف الأغر من الفصاحة ، واستوت على الذرى العظمى للبلاغة ؛ والله در القرآن العظيم ماذا جمعت آياته البيّنات؟! .

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وما ذكر في تبيان مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها قطرة من حياض وزهرة من رياض ، فقد ألف الشيخ علاء الدين أحد شيوخ شهاب الدين الألوسي رسالة في هذه الآية الكريمة ، جمع فيها ما ظهر له وما وقف عليه من لطائفها ومزاياها البلاغية ، فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية^(٢) .

بين بلاغة القرآن ومذهب البديع :

لا بد لي ههنا أن أنبه إلى أمر هام . لا يساورنك الظن ، ولا يخالجن فؤادك الوهم ؛ بأن التفوق في البلاغة العربية إنما يحصل بمجرد الإكثار من النكات البلاغية ، فإن حقيقة البلاغة تقع في استعمال فنون الكلام استعمالاً يؤدي غرضاً مناسباً لهدف المتكلم ، ويلائم مقتضى

(١) بتصرف وإيجاز من : مفتاح العلوم - يوسف السكاكي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ . ص ٢٢١ -

٢٢٤ المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

(٢) انظر روح المعاني : ج ١٢ ص ٥٥ - ٦١ .

الحال ، وكلما كانت أسهمها أبعد في ذلك كانت أعلى وأرقى . أما إذا كان استعمال فنون الكلام لمجرد التفنن اللفظي فليس له حظ البلاغة مهما أكثر البليغ من إيراد الأنواع الفنية في كلامه . فالأمر متوقف على مستوى الألوان البلاغية ؛ وتفوقها ؛ ومطابقتها مقتضى الحال ؛ لا على كثرتها .

وان التاريخ الأدبي قد أعطانا صورة عن الاكثار من فنون البلاغة في الأجناس الأدبية ، وذلك هو أدب الصنعة « مذهب البديع » . لقد تعمد أصحابه أن يحشدوا فيه أكبر قدر يستطيعونه من هذه الفنون ويحشرونها بمناسبة مفتعلة أو بغير مناسبة ، حتى خلا أدب الصنعة من العاطفة والروح بقدر إيغاله في التأنق والتصنع والزخارف اللفظية والمعنوية ، إذ العاطفة والروح متناسبة عكساً مع التعمل والتكلف . فقد خسر مذهب البديع أعز عنصر فني ؛ وهو الطبع والذاتية^(١) . وغلب على أصحابه التقليد في المعاني ، إذ اعتبروها كلاً مباحاً للجميع ، كما غلب عليهم التقليد في الصور والعبائر ، حتى كثرت فيهم العالة وقلّت الأصالة . وأوشك أن ينضب معين الروح الفنية الدافق .

وهذا مفترق الطريق بين مذهب البديع وبين طريقة العرب الأوائل ، تلك الطريقة الفطرية الحصيفة المرهفة ، التي ابنتى القرآن على نهجها أروع أسلوب وأعذب بيان وتحداهم أن يأتوا بمثله فبهتهم وحيرهم وأعلن عجزهم . فالقرآن المجيد لم يلتزم الإكثار من الفنون البلاغية في معظم مناحيه ، وإنما ضرب المثل الأعلى المعجز في كافة مواضعه وفنونه ، وتفوق أسلوبه البياني برسم الألوان البلاغية في ذرى الإبداع والروعة

(١) بإمكانك أن تستطلع أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى في كتاب : الموازنة للآمدي : ص ١٢٦ - ٢٦٩ طبعة الثالثة - م . السعادة بمصر . وتجد بغيتك أيضاً في كثير من نصوص مقامات الحريري . وقد توسع الدكتور شوقي ضيف في دراسة موضوع الصنعة والتصنيع ، وصنّفه تصنيفاً فنياً ، وأشبعه بحثاً في كتابه : الفن ومذاهبه في الشعر .

والجاذبية ، فتجلى للأبصار والأفئدة شيقاً عظيماً صافياً نقياً من أي تكلف أو تأنق مفتعل .

فالروعة الفريدة في القرآن أنه حين يسوق الفنون البلاغية خصبة وفيرة ، يُزجها بعيدة غاية البعد عن جمود التكلف وجفاء التصنع ، ويتجلى فيه صفاء فوق صفاء السجية العربية وأصالتها ؛ حتى عند إكثاره من الفنون البلاغية ، فلا تشعر فيه بشيء مما تعاناه في أدب الصنعة ؛ من ضيق نفسي وعنت عاطفي ومكابدة ذهنية . فالبلاغة القرآنية ريانة مخصبة ، حفظت أسلوب القرآن من جفاف أدب الصنعة ، فجاءت سلسبيلاً تروي الغليل وتلامس شغاف القلوب وتمتزج بعواطف النفوس وأحاسيسها ووجداناتها ، فتُفجّر فيها ينابيع الخير وتُسدد اندفاعها لتحقيق أهداف الإيمان بالله جل جلاله .

إن الطاقة البشرية الأدبية عندما عولت على الإكثار من فنون البلاغة انحدرت إلى التكلف والجفاف الذي وجدناه في أدب الصنعة . أما غزارة الفنون البلاغية وملائمتها مقتضى الحال بأن واحد فإنه إبداع الإبداع الذي أخفقت مواهب البشر عند محاولة سلوك سبيله وارتياق قممه ، ولم يتوفر إلا في القرآن المجيد ؛ كلام الله العزيز العليم .

التشبيه في القرآن

التشبيه من أزهى ألوان البلاغة الأخاذة في القرآن ، وقد استحوذ على اهتمام علماء القرآن وعناية البلاغيين فاتخذ مكانة مرموقة في أبحاثهم ، حتى صنف بعضهم فيه كتاباً خاصاً .

وذهب العلامة المراكشي إلى الإشادة بعلم البيان . والواقع أن أهم ما في علم البيان وأكثر ما يُوشى الأجناس الأدبية منه هو التشبيه والاستعارة . لكن عماد الاستعارة التشبيه . فالإشادة بعلم البيان إعلاء

لشأن التشبيه . قال العلامة المراكشي^(١) في « شرح المصباح » : (الجهة المعجزة في القرآن تُعرف بالتفكير في علم البيان) .

أكثر الأقدمون من الاعتماد في دراسة عقد التشبيه على العقل ، وأغفلوا كثيراً وقعه النفسي وأثره الوجداني . والواقع أن التشبيه يقوم على الربط بين أمرين متباعدين ربطاً فكرياً وشعورياً يوضح الخفي ويجلي الغامض ، ويحدث وقعه في النفس الاحساس المبتغى من التشبيه من سرور أو ألم ؛ ورغبة أو رهبة ؛ واستحسان أو استهجان ؛ وتحبيب أو تنفير . . . وقد يبين التشبيه وصف المشبه من لون أو طعم . . .

ولربما يستدل به عقلياً على إمكان المشبه ، فقد جاء البرهان في القرآن على بعث الأموات من قبورهم بإحياء الأرض بعد موتها كل سنة . ويقع التشبيه بأمر حسي لا يوضح أمر معنوي خفي ، حتى يشتد ظهوره وتتجه نحوه الأحاسيس والأفكار ، فيترك آثاره في أغوار النفس والوجدان . .

لقد شبه الله تعالى الكافرين في إعراضهم عن النظر والتفكير في السموات والأرض ؛ وتنصلهم من تحمل المسؤولية الملقاة على كواهل البشرية في الشرع الإلهي ؛ وتفاهة أهدافهم الدنيوية ؛ شبههم بالبهايم التي تأكل وتشرب وتتمتع دونما تعقل وإحساس بمسؤولية ؛ ودونما هدف فاضل أو تبصر بالعواقب ، فقال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعامُ ، والنارُ مثوى لهم ﴾^(٢) .

واتجهت همة العلامة عبد الله بن نايقا البغدادي إلى أفراد تشبيهات القرآن في مصنف خاص ، والظاهر أنه تفرد بذلك . وراح يقرنها بما ورد

(١) هو محمد بن أبي زيد بن عبد الرحمن المراكشي المعروف بالضرير ، ولد سنة ٧٣٩ بمراكش وتوفي سنة ٨٠٧ هـ . وانظر الاتقان : ٢ : ١١٩ .

(٢) سورة محمد : ١٢ .

في بابها من أشعار الجاهليين وأشعار غيرهم ليتجلى للدارس التفوق البارع في تشبيهات القرآن على ما سواها ويتبدى أثر القرآن في الشعر . وإليك بعض النماذج من كتابه « الجمعان في تشبيهات القرآن » :

(قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، صُمُّ بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ (١) .

وإنما يقال لصحيح البصر الذي لا يعمل بصره : أعمى ، لأنه قد حلَّ محلَّ من لا يبصر . وكذلك يقال للسمع الذي لا يقبل : أصم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصمَّ الدعاء ﴾ (٢) كما قال جل اسمه : ﴿ أم على قلوب أقبالها ﴾ (٣) .

وأضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبه بالداعي ولم يقل كالغنم لأن المعنى : ومثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الداعي أكثر من الصوت . فالتقدير : مثل واعظ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع (٤) .

(وتأويل قوله « ينعق » : يُصَوِّتُ بالغنم ، وهو النعيق والنعاق ، ومنه قول الأخطل :

فانعق بضأنك يا جريرُ فإنما مَتَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا
وتقول العرب : أبلدُ من راعي الضأن ، ويقال في المثل : أحقق

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

(٢) سورة النمل : ٨٠ .

(٣) سورة محمد : ٢٤ .

(٤) الجمعان في تشبيهات القرآن - عبدالله بن نايقا البغدادي « ٤١٠ - ٤٨٥ هـ » ص ٥٤ -

من راعي ضأنٍ ثمانين) (١) . فها أنت تحكّم على الأخطل ، بأنه على الرغم من اقتباسه التشبيه من القرآن فإنه قد أخفق في منحه روعة التصوير وقوة التعبير وحيوية المعنى وسموه ، كما ورد ذلك في الآية الشريفة .

وإليك نموذجاً آخر : (قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت ﴾ (٢) يعني قوماً من المنافقين كان النبي ﷺ إذا أمرهم بالقتال وأن يستعدوا له نظروا إليه شاخصةً أبصارهم متغيرة ألوانهم ، فشبهم في خوفهم من الحرب بالخائف من الموت . أي ينظرون إليك يا محمد إذا أمرتهم بأخذ الأهبة للحرب كما ينظر المغشي عليه من الموت . وهذا التشبيه البليغ في وصف الخائف : من جميع الأوصاف (٣) وأوقع التشبيهات لمثل هذه الحال . وقال النابغة في نحو ذلك من تشبيه حال الخائف ، وذكر امرأة :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ الْمَرِيضِ إِلَى وَجْهِهِ الْعُودِ
أَي : نظرت نظراً خائفاً وأرادت كلامك فلم تقدر على ذلك (٤) .

وينكشف لبصيرتك قصور تشبيه شاعر الجاهلية النابغة الذبياني عن تشبيه القرآن المجيد . فإن نظر المريض إلى وجوه زائريه وإن كان ينسكب وهناً ويأساً ، فإنه لا يداني تشبيه القرآن بنظر المحتضر تدور عيناه إذ تتابه وتتغشاه من الموت سكرات بعد سكرات ! هذه الأمثلة وغيرها كثير وفير ؛ تدلك يقيناً أن لبلاغة القرآن شأواً عظيماً ومقاماً جليلاً لا تدركه أرفع المواهب البشرية وأسمائها (٥) .

(١) الجمال في تشبيهات القرآن - عبد الله بن نايقا البغدادي : ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ١٩ .

(٣) جميع الأوصاف : مجتمعها ومكتملها : يقال : خلق جميع أي تام مكتمل .

(٤) الجمال : ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٥) اهتمت بتجلية موضوع الإعجاز البياني . واكتفيت بهذا القدر من النماذج تبياناً =

خصائص التشبيه القرآني وأهدافه :

امتاز التشبيه في القرآن الكريم بخصائص قيّمة ؛ وهي من أسرار تفوقه وخلوده .

أولاً : أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عالميته وعمومه للناس جميعاً يدركون عناصره فيؤثر فيهم ، إذ يرونها ماثلة لأبصارهم قريبة منهم وبين أيديهم . فلا تجد في القرآن تشبيهاً متكلفاً لحالة خاصة أو بيئة متفردة . لذلك لم يكن إدراك جماله خاصاً بفرد دون آخر ، بل هو عام ميسور لجميع أصحاب الذوق المرفه من الناس ، مهما توالى الزمان وتبدل المكان .

فالسراب ظاهرة طبيعة يراها الناس جميعاً ، فيغرم مرآها ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، يسعون إليه يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم ، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون ، إن القرآن يُبرز في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، يحسبونها مجدية نافعة وما هي بشيء ، يقول الله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بَقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدهُ شيئاً ﴾ (١) .

ويجعل القرآن في الحجارة المثل الملموس لقسوة قلوب اليهود ، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق وقوة الصدق ، فيقول : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ (٢) . ألا ترى أن

= للموضوع ، فإن القرآن كله نماذج بلاغية شاهدة على أن بلاغة الإنسان لا تداني بلاغة القرآن . وعلى المستزيد أن ينظر في كتب الدراسات القرآنية وفي أهميات كتب التفسير ، يجد بغيته وغاية مأموله .

(١) سورة النور : ٣٩ .

(٢) سورة البقرة : ٧٤ .

القسوة عندما تخطر بالذهن ؛ تخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية !؟

ثانياً : أن التشبيه القرآني ليس عنصراً إضافياً في الجملة ، فلم يرد لمجرد تزيينها بعد تمام معناها ، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه ، فعمله في الجملة أنه يعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة ، فهو لا يمضي إلى التشبيه كأنه عمل مقصود لذاته . ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة ، يتطلبه المعنى ليصبح واضحاً قوياً . تأمل قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾^(١) ، تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به ، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه ، قد نقلها إليك التشبيه في صورة قوية مؤثرة ، كما تدرك شدة الفزع والرهبة التي ألمت بهؤلاء الذين دُعوا إلى الجهاد ، فلم يدفعهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم ، بل ملاً الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم ، تدرك ذلك من قوله تعالى : ﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾^(٢) .

ثالثاً : ومن خصائص التشبيه القرآني دقته ، فهو يصف ويمعن حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة . خذ مثلاً لذلك قوله تعالى : ﴿ مثل الذين حُمِلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . بسئ مثل القوم الذين كذبوا بآياتِ الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾^(٣) فقد يتراءى أنه يكفي في التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل ؛ ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً ، حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم

(١) سورة البقرة : ١٨ .

(٢) سورة الأنفال : ٦ .

(٣) سورة الجمعة : ٥٠ « الأسفار » : الكتب .

ولا يدري مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

رابعاً : ومن خصائص التشبيه القرآني المقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية ؛ تجد ذلك في كل تشبيه قرآني .

فقد شبه القرآن الموج في موضعين ، فقال : ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾^(١) وقال : ﴿ وإذا غشيهم موج كظلّ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٢) وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً ، فتستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس ، مع أن السفينة محوطة بالعناية الإلهية فليست في خطر الغرق . أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة وينسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج . ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويماً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس ، هنالك يملأ الخوف القلوب ، وتذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين ، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف ، كان وصف الموج بأنه كالظل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق .

ويهدف التشبيه في القرآن إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه : من التأثير في العاطفة فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض .

يصور لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعي فلم تنشأ فيهم رغبة

(٢) سورة لقمان : ٣٢ .

(١) سورة هود : ٤٢ .

في التفكير فيها ، لمعرفة ما تنطوي عليه من صدق ، وما يكون فيها من صواب . بل يحول بينهم وبين ذلك الكبرُ والأنفة ، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ولم يطرُق أذنه عنها نبأ ، بل كان أشبه بمن في أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو لا ينطق بشيء من الحق الواصل إليه ، وبمن أصيب بالعمى فهو لا يرى الحق ، وبذلك شبههم القرآن فقال : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بِكُمْ غَمِيٌّ فَهَمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة ، لجأ إليها القرآن للتصوير والتأثير معاً ، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله على أن يأتي بذلك اليوم ؛ بأسرع مما يتصور المتصورون ؛ لجأ إلى أسرع ما يراه الرائي فاتخذة مثلاً يؤدي إلى الهدف المراد ، فيقول : ﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنْ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريباً دانياً (٤) .

(١) سورة البجائية : ٧ - ٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٧١ .

(٣) سورة النحل : ٧٧ .

(٤) من بلاغة القرآن - بإيجاز وتصرف - ص : ١٩٨ - ٢٠٨ .

التصوير الحي في القرآن

إن الكلام البشري يتجه أكثر ما يتجه إلى العقل لاقناعه بما يحمله من أفكار وآراء ، غير أن الكلم القرآني يتجه إلى العقل والفكر والنفس والوجدان ، فيبعث في الخيال الانساني صوراً حية تخاطب الحواس بكل ما يلائمها من عناصر الطبيعة والحياة ، فتترك في الأفكار والضمائر تأثيرات وانفعالات قوية فريدة تحشد نوازع الخير في الفكر والنفس والوجدان والإرادة، لتبني المضمون القرآني عقيدة وعبادة وخلقاً وتشريعاً، وتجاهد في سبيل حمايته ونشره وإعلاء رايته .

فلو استعرضت القرآن من بدايته إلى ختامه فستجد طريقة خاصة في التعبير الفني ، تكسو أسلوب القرآن حتى يصطبغ بألوانها البراقة الزاهية ، فإنك لن تجد فيه بياناً مجرداً لمعنى ذهني أو حالة نفسية أو حادث مادي أو مشهد منظور أو طبيعة آدمية أو موقف من مواقف يوم الحساب ، بل تجده عبر عن كل منها بصورة محسوسة متخيَّلة ، حاضرة شاخصة ، صورها بالألوان أو الحركات أو الايقاع ، ومزج بها جرس الكلمات ونغم العبارات ، حتى تسري في أوصالها الحياة وتدب في جنباتها الحركة ، فإذا خلع عليها الحوار فقد نفخ فيها الروح فاكتملت فيها كل عناصر التخييل الحسي والتشخيص الحي ، حتى تريك ساحة الحوادث على بساط الطبيعة والواقع ، وتنسى أن هذا كلاماً يتلى ، لأن القرآن قد أحالك من قارئ أو مستمع إلى مشاهد يتابع المناظر وتجدد الحركات وفيض الانفعالات الدافقة والوجدانات المتجاوبة مع الحوادث الجارية . . . فتبدي لك صورة حية بارعة خلابة ، تُهيمن على مشاعرك وأحاسيسك حتى تجعلك أمام قبس من الحياة الحقيقية .

لا تستطيع بعد هذا أن تحكم بأن التصوير الحي في القرآن مجرد

حلية يزدان بها أسلوبه هنا أو هناك . فالتصوير طريقة متبعة وخصيصة شاملة ذات ألوان شتى منبثة في جنبات القرآن الكريم ، فلا تقدر على تحديد أمثلة له في القرآن ، لأن القرآن كله يتجلى بهذه المزية^(١) .

وما قيمة هذه المزية ؟

لكي تدرك حقيقة قيمة التصوير الحي في القرآن عليك أن تتأمل منه المعاني والمضامين في عبارات تجريدية تصوغها لنفسك ثم تقارن بينها وبين الصور التي تعرضها آيات القرآن المبين ، فستجد أن الطريقة التجريدية قد خاطبت العقل وأوصلت إليه المعاني مجردة من هالتها الرائعة وظلالها الجميلة ، حتى غدت المعاني بالتجريد جامدة لا روح لها فاقدة سر الحياة ومظاهرها . بينما تجد للصورة القرآنية حيوية تخاطب العقل كما تخاطب النفس والحس والوجدان وتنفذ إلى أغوار القلوب وأعماق الضمائر^(١) .

إنك تجد بعض الدعوات قد انصبَّ اهتمامها على إثارة العاطفة والوجدان فلم تثبت وانهمزت أمام البحث الفكري الموضوعي ، وتجد دعوات أخرى أغرقت في العقلانية حتى بدت جافة جامدة فانصرفت عنها القلوب . لقد قرر علماء الاجتماع والدراسات الإنسانية في عصرنا ؛ أن الإنسان يحتاج لقبول أي عقيدة إلى اقناع عقله ورواء وجدانه وعواطفه ؛ وإرضاء نزوعه الفطري وتوجيه إرادته . ولقد تمثل هذا في الدعوة القرآنية الإلهية في أكمل الصور وأروعها على الإطلاق . فبلغت في ذلك من التناسق مستوى عظيماً تعجز عنه الخلائق إلى الأبد . وذلك آية أنه دعوة الحق الإلهية وتنزيل من الحكيم العليم . فها هي دعوة القرآن العظيم بعد أربعة عشر قرناً حينما تُؤدَّى بشكل يمثلها فعلاً تلامس شغاف القلوب وتهوي إليها الأفئدة وينساق أناس غرباء عنها إلى الدخول في دين الله أفواجاً أفواجاً ، ودليل ذلك ما يحصل في العالم المتمدن اليوم على الرغم

(١) قارن مع التصوير الفني للقرآن : ص ٣٤ وما بعدها .

من الضعف المرير للدعوة والدعاة فيه^(١) .

نماذج من التصوير القرآني وأدواته :

ليس للفنون الأدبية الرفيعة قوالب قانونية جامدة تخضع لها . وإخضاع الأدب للقوالب هو قضاء على حيويته . والقرآن الكريم من باب أولى لا يمكن أن يُحكم عليه بقوالب مصطنعة . أضف إلى ذلك أن قواعد البلاغة إنما اقتبست منه ، وصارت تُدرس لتفهم بها الفنون السامية للكتاب العزيز . فهي من علوم الآلة^(٢) ، والقرآن هو الحاكم عليها المتصرف فيها ، ولا سبيل لها عليه إلا الأخذ بيد دارسه ومتأمله ليقف على مواطن الجمال والإبداع فيه ؛ بقدر ما تتسع له الطاقة والاجتهاد ؛ وما تبلغه الفطنة والحصافة في طالب العلم . لكن هذه الفنون البلاغية الجمالية ليست شاذة ولا غريبة على مألوف فصحاء العرب وبلغائهم ، فأجناسها معروفة لديهم ، فجاءهم القرآن بجنس ما عندهم ؛ لكنه أتاهم في ذلك بصور ونماذج عجيبة الألوان ؛ فائقة الحسن ؛ بارعة الجمال ؛ قوية التأثير ؛ شديدة الجاذبية ؛ تفوق إبداع البشر وتعجزه ، فلا يحاذيها ولا يدانيها شيء مما تفيض به قرائحهم أو تتمخض عنه عبقرياتهم .

والبحث عن الفنون البلاغية التي اتخذها القرآن وسائل وأدوات للتصوير الفني بحث عميق الأغوار ، يطول استقصاؤه ويضيق المجال عن استيعابه ، لكنني رأيت أن أقدم محاولة جدية جديدة ، اكتفي فيها بعرض نماذج هامة من أدوات التصوير الفني ، تقفك على ألوان من التعبير القرآني ، وتزود القارئ بأصول تقوي ملكته في فهم أسلوب القرآن المبين ، ومن هذه الوسائل :

(١) سيأتك قريباً بحثنا في : خطاب القرآن للعقل والقلب بأن واحد ص ٢٦٤ .

(٢) سنعود إلى هذا عند البحث في : آثار القرآن في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ص ٣٧١ وما بعدها .

١ - تعميم الخطاب : وذلك بأن يتوجه الخطاب إلى مخاطب غير معين ؛ بقصد استجلاب الصورة إلى ذهن السامع مهما كان حاله وعلمه ، سواء أكان على اطلاع على الأمر من قبل أم على غير علم سابق به . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مُلْكًا نَقَاتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ! قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (١) افتتحت الآية بهذا الاستفهام ﴿ أَلَمْ تَرَ . . ﴾ (٢) فجعلتك أمام حدث يجري وواقع مشاهد منظور . . . أشرف بني إسرائيل ووجههم ؛ ذوو الرأي والهيئة والكلمة المسموعة فيهم ؛ يجتمعون إلى نبي من أنبيائهم ، ويطلبون منه أن يعين ملكاً لدولتهم ، يقاتلون تحت رايته ، ويتصدون بقيادته لحرب أعدائهم في سبيل الله تعالى .

مطلب كريم وقصد عزيز شريف نبيل يرفعهم في أعين الناظرين . لكن الحوار يشف عن صورة بواطنهم ، فيوجه إليهم نبيهم سؤالاً يقرر فيه حالتهم المرتقبة ؛ بعد أن يفرض عليهم الجهاد في سبيل الله فيقول : ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟! ﴾ وفي غليان مضطرم وحماسة دافقة واندفاع عنيف يستنكرون أن يتخلفوا عن الجهاد أدنى تخلف ! كيف وقد شردهم عدوهم وسلبهم أوطانهم وسبى أبناءهم !! كيف يحتمل منهم نكوص عن الجهاد في سبيل الله ﴿ وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟! ﴾ .

ها أنت قد حضرت اجتماعهم وتحسست آلامهم وآمالهم ، وتبينت

(١) سورة البقرة : ٢٤٦ .

(٢) شبه حال من لم ير الحادث بحال من رآه ، فلا يصح أن يخفي عليه ، وينبغي له إذن أن يتعجب منه . وأجرى الكلام معه كما يجريه مع من رآه ؛ للمبالغة في شهرته وعراقته في إثارة التعجب .

بالحوار مشاعرهم وعواطفهم وما تجيش به نفوسهم ، فاكتملت لديك صورتهم النفسية وعزيمتهم الباسلة ، وهم في حالة الرخاء وبسط العيش . فارتقب منهم ما شئت أن ترتقب من الجهاد المستميت ، وتوقع لهم ما يصور خيالك من النصر المؤزر . . . فترد عليك صورتهم وقد فرض عليهم القتال وشمرت الحرب عن ساقها ، وانقضى الرخاء وجد الجد وخرجوا للقاء العدو ، كيف استبسلوا؟! ﴿ فلما كُتِبَ عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

طلعت عليك سمة خاصة من طبائع اليهود ، وما درجوا عليه من التفلت من طاعة الله والنكوص عن أمره ونقض العهود والمواثيق ؛ والاعراض عن الحق المبين . وجاءت فاصلة الآية تشي صورة موقفهم بالقبح والاشمئزاز ، وتحمل على استنكاره واستهجانه ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وأي ظلم أعظم من خيانة عهد الله وميثاقه ؛ وخذلان نبيه ؛ وعصيان شرعه بالتولي عن الجهاد في سبيل الله والفرار يوم الزحف !!؟؟ (١) .

وقد كثر ورود مادة (رأى) ومشتقاتها في التصوير الفني القرآني ، حتى بلغ نحو مائتي مرة في القرآن . ولا يخفى ما فيها من جعل الحوادث ماثلة الصورة في الذهن والخيال وكأنها رأي العين (٢) .

وتأمل هذا التصوير البارِع بمطلع يثير الخيال ويستجمع شتات الذهن ؛ إذ توجه إليه بخطاب مباشر عام ، يعم كل امرئ من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ،

(١) انظر روح المعاني : ج ٢ ص ١٣٨ و ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) وتقصي أمثال هذا في القرآن العظيم أمر جليل الشأن يحتاج إلى دراسة خاصة ، أرجو الله أن يجعل لي فيها سهماً وافرأ .

ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴿١﴾ .

٢ - استعمال ظرف الزمان (إذ) في سياق القصص والحوادث الماضية والمستقبلية : في حنايا قصة بني إسرائيل ، صور لنا القرآن حصول المعجزة التي أكرم الله بها موسى وقومه . قال الله تعالى : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (٢) .

ها هم بنو إسرائيل في صحراء قاحلة مجدبة ؛ رمال وسماء ؛ لا ماء ولا زرع ؛ وقد بلغ بهم الضنك غايته وأخذهم الظمأ من مجامع أفئدتهم ، إذ أجرى الله لرسولهم موسى معجزةً خارقةً لقوانين الطبيعة وخواص المادة ، فأكرمهم بالمياه الدافقة . فقد أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب الصخر الأصم بعصاه . وماذا تفعل العصا في جلمود الصخر؟! ما لها إلا أن تتهشم عليه!! لكن قدرة الله الواسعة وعنايته ورحمته ورأفته بعباده المؤمنين ، هيأت من وراء هذا السبب اليسير الخير الكثير ، فانفجرت من الصخر اثنتا عشرة عيناً ؛ على عدد أسباط بني إسرائيل ، لكل منهم عين خاصة بهم ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ صورهم القرآن وهم في لوعة إلى الماء ، فألجأهم الظمأ إلى رسولهم ، فلجأ موسى إلى ربه يستعطفه ويسترحمه أن يمنّ عليهم فيسقيهم . رسم القرآن صورتهم في زمانها وظروفها صورة خية شاخصة متفجرة العيون دافقة المياه ، قد اجتمع شمل كل من قبائلهم على عين ينهلون من مائها رياً وطمأنينة وبهجة .

لقد أمرهم الله أن يقابلوا انعامه العظيم وإحسانه الجزيل بالتقوى

(١) سورة السجدة : ١٢ .

(٢) سورة البقرة : ٦٠ .

والاحتراز عما تؤديه السعة في غير أهل الإيمان من كفران النعم وبطر وأشر وعصيان وتمادٍ في الفساد ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

فالآية استقبلتك بقوله تعالى : ﴿ وإذ استسقى . . . ﴾ فصار إيراد الظرف (إذ) للتذكير بالحدث وتصويره في زمانه وأحواله . ولا يحصل نظير هذا لو استعملت بدلاً عنه مثل لفظ « لقد » .

و (إذ) ظرف لماضي الزمان ، فهي ظرف متعلق بمحذوف تقديره : ﴿ اذكر ﴾ وهو الراجح عند المفسرين ، وعليه فإن تقدير الكلام في الآية : « واذكر حين استسقى موسى لقومه . . . » و (إذ) قيدت التذكر والتصور في ظرف محدد وحال معينة ، وهي حال استسقاء موسى لقومه العطاش^(١) . وفي التذكر تصور لأمر مضى من قبل .

وبنفس التحليل يمكنك أن تدرس صورة بناء إبراهيم وولده إسماعيل للكعبة ، وأن تلاحظ طيب النفس والاخلاص وحسن الطوية وسلامة القصد ومجافاتهما للغرور وحظوظ النفس ؛ في ضراعتهما أثناء تشييد البناء . قال الله تعالى في تصوير حالهما : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾^(٢) .

وأنت ترى في هذه الآية أن (إذ) وإن كانت ظرفاً لماضي الزمان فإنها تدخل على المضارع وتقلبه إلى الماضي : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت . . . ﴾ وقد تم رفع قواعد الكعبة من قبل إبراهيم

(١) روح المعاني : ج ١ ص ٢٠٠ و ٢٤٦ وج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٧ - ١٢٨ .

وإسماعيل عليهما السلام .

وتساهم (إذ) بحظٍ وافر في بعث الصورة حين تدخل على الجملة الاسمية ، كما دخلت على الجملة الفعلية . تأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموتِ والملائكةُ باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليومَ تُجزون عذابَ الهونِ بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحقِّ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (١) .

وتكسو (إذ) الصورة بطابع الغرابة ، وتلفت النظر إلى ما فيها من عجيب التدبير ؛ الجدير بالتأمل والاهتمام ؛ حين تقع بعد ﴿ واذكر ﴾ التمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريمَ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . . . ﴾ (٢) وفي قوله : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يُغني عنك شيئاً ﴾ (٣) .

وقد كثر في القرآن المبين ورود (إذ) الظرفية كأداة من أدوات التصوير ، لاستدعاء ذلك الزمان إلى الذاكرة ومثول أحواله في الذهن ، فتعين على رسم الصورة بظروفها الواقعية ، وعلى هذا فإن « إذ » : ظرف يقيد الفعل المسند إليه بوقت معين ، وهو عائد إلى فعل ﴿ ألم تر ﴾ في قوله : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم . . . ﴾ فقيدت « إذ » الرؤية بهذا الوقت ، وهو وقت قول الملأ من بني إسرائيل لنبيهم (٤) .

(١) سورة الأنعام : ٩٣ وانظر تفسيرها في روح المعاني : ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) سورة مريم : ١٦ .

(٣) سورة مريم : ٤١ - ٤٢ . وانظر تفسيرها في الكشاف للزمخشري . وانظر البرهان : ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٤) انظر روح المعاني : ج ٧ ص ١٩٤ .

وقيدت (إذ) التذكر والتصور - وهو المتعلق المحذوف - بوقت استسقاء موسى لقومه ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه . . . ﴾ لتشكل في الخيال صورة الحادث بظروفها الزمنية المناسبة .

٣ - تعريف المسند إليه ^(١) بأسم الموصول : يقصد القرآن أن يرسم في الذهن صورة من يتحدث عنه ، ويثير الخيال بإيحاءاتها . ومن ذلك : أن الله لما وبَّخ المشركين على عبادة الأصنام واعتقادهم ألوهيتها أشعر المشركين بفادح خطئهم ، إذ عبر عن الأصنام بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْمَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٢) . أسقط الله عن معبوداتهم صفة الألوهية وأثبت عدم استحقاقها للعبادة ، إذ عرفها بالاسم الموصول بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فرسم في الذهن صورتها فاستوعب معناها ، فهي من جملة مخلوقات الله المفتقرة إليه ، فأثار في النفس استصغار شأنها واستنكار عبادتها ، مع أنه لم يذكر اسمها صراحة ، فلم يقل « إن أصنامكم » وعول على هذه الطريقة في التصوير في آيات كثيرة ، فجاءت الصورة في الذهن تعاضد الاستدلال على صحة ما صححه القرآن وبطلان ما أبطله ، وحملت النفوس على قبوله والتسليم به ، لذلك ناسب أن يعقب هنا عليها بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْمَالُكُمْ ﴾ هي مملوكة لله خاضعة لعظمته مسخرة لسلطانه ؛ عاجزة لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

هذه التي زعمتم ألوهيتها هي مثلكم . لكن كيف شبهها بهم مع أن

(١) وهو المحكوم عليه أو المخبر عنه ، وله ستة مواضع : الفاعل ، ونائب الفاعل ؛ والمبتدأ الذي له خير ؛ وأسماء النواسخ كان وإن وأخواتهما والمفعول الأول لظن وأخواتها ، والمفعول الثاني لأرى وأخواتها .

(٢) سورة الأعراف : ١٩٤ ﴿ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ : تعبدونهم أو تسمونهم آلهة . والدعاء : إما بمعنى العبادة ؛ تسمية لها بجزئها ؛ أو بمعنى التسمية .

عجزها أظهر وأقوى من عجزهم؟؟ تلك نكتة لطيفة ، فإنهم يعترفون بعجز أنفسهم ، والذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها توهمهم قدرتها على الخلق والهداية والتأييد والنصر . ولكن غاية المبالغة في شأنها بعد أن بين انحطاطها عن رتبة الألوهية ؛ أن يقال لهم عنها : إنها مثلكم ، فصار في ذلك من الاستدلال المفحم على بطلان عبادتها والعياذ بها ما لا قبل لهم برده ، خاصة وأنه تعالى قرن عبودية الأصنام بتحدي المشركين وتبكيتهم بقوله : ﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ (١) .

٤ - وضع الاسم الظاهر موضع الضمير : وهو أسلوب قوي في استحضار الصورة جليةً إلى الذهن ، وهو كثير في القرآن المجيد ، كقوله تعالى : ﴿ قد نعلمُ إنه ليحزنكُ الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (٢) .

صورت الآية تجدد حزن الرسول لاستمرار عناد المشركين وتكذيبهم بدلائل النبوة وآيات الله الباهرات . وواستُ الآية رسول الله مفيدة بلوغ الرسول من جلالة القدر ورفعته الشأن ما قضى بنفي التكذيب له ، وأنهم إنما كانوا يكذبون آيات الله . لكن الآية وضعت الاسم الظاهر « الظالمين » موضع الضمير ، إذ قال تعالى : ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ولم يقل « لكنهم » وهذا فن من فنون القرآن ، أحضر إلى ذهنك صورة المشركين ورسوخهم في الظلم بالتكبر والتجبر وجحود الحق المبين . فاستقر في النفس أن القوم عتاة مردوا على الضلال ومجافاة أمر الله (٣) .

ومن هذا القبيل أيضاً وضع اسم الإشارة موضع الضمير كما في قوله

(١) انظر روح المعاني : ج ٧ ص ١٤٦ وج ٩ ص ١٢٧ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٣) راجع روح المعاني : ج ٧ ص ١١٦ - ١١٧ .

تعالى في مطلع سورة البقرة : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

فقد صورت لنا الآيات صورة المتقين المستمسكين بالكتاب المبين . ثم أثارت الصورة مرة ثانية واستحضرتها في الذهن باسم الإشارة ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ فصاروا مائلين في الخيال بصفاتهم المذكورة إيماناً بالغيب وإقامة للصلاة وإنفاقاً من أموالهم وبقيناً بشرائع الله المنزلة على المرسلين ، فأشعرت القارئ بكمال تميزهم عن الناس بهذه الأوصاف التي نقلها اسم الإشارة إلى الذهن من حيز المعقول إلى نطاق المحسوس المشاهد ، إذ أعانك اسم الإشارة على أن تتملأها بناظريك ثانية ، ونبهك إلى علو منزلتهم ورفعة مقامهم بالإشارة للبعيد ﴿ أولئك ﴾ .

وأراكمهم في رحلة الحياة الدنيا لا يمتطون راحلة تتعثر ولا جواداً يكبو ولا سفينة تعصف بها الرياح وتتقاذفها الأمواج في لجج البحار ، ولكنهم امتطوا خيراً من ذلك ، إذ تمسكوا بالهدى وتمكنوا منه واستقروا عليه . فصورتهم الآية كمن اعتلى شيئاً وامتطاه وحذفت المشبه به على طريق الاستعارة المكنية ، فأفادت رسوخهم في الهدى . وجاء اسم الإشارة ثانية يستحضر في الذهن صورتهم بأوصافهم ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ ليدل على استحقاقهم الفوز والظفر بنعيم الآخرة وجدارتهم به . فأثارت الآية في قلبك كوامن الحب والاكبار لهم ، وبعثت عزيمتك على سلوك سبيلهم والتحلي بخصالهم^(١) .

(١) انظر تفسير الآية في روح المعاني : ج ١ ص ١١٥ وما بعدها .

٥ - التصوير بالاستعارة : وقد سبر الأقدمون أغوار هذا اليم الخضم ، وفيه جوانب لم تزل بحاجة إلى التأمل والدراسة والاستنتاج ، فالبحث جليل ممتع متعدد الألوان ، نقتصر منه على هذا النموذج الموحى :

قال الله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (١) .
والصدعُ : الشقُّ في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط وغيرهما .
وتأويل الصدع في الزجاج أن يبين بعضه من بعض . وقوله تعالى :
﴿ يومئذ يصدعون ﴾ (٢) قال الزجاج : معناه : يتفرقون فيصرون فريقين :
فريق في الجنة وفريق في السعير . وعليه فإن الصدع يعني : الإبانة
والتمييز . ومنه : صدع بالأمر ؛ أصاب به موضعه وجاهر به ، وصدع
بالحجة : تكلم بها جهاراً .

فالله تعالى يأمر محمداً ﷺ في هذه الآية : اجهر يا رسول الله بما
أمرك الله به من الشرائع المنزلة عليك في كتابه العظيم ، أو فرق برسالة
الله بين الهدى والضلال ، وميز بها الحق من الباطل ، واعتمد على الله
وحده ، ولا تُبال بالمشركين ، ولا تأبه لأقوالهم وتصرفاتهم . وقد ظل
رسول الله ﷺ مستخفياً بالدعوة ، حتى أنزل الله هذه الآية ، فخرج هو
وأصحابه وأعلنوا الدعوة غير عابئين بالمشركين .

وقال ابن الاعرابي : (فاصدع بما تؤمر) شق جماعتهم
بالتوحيد (٣) .

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

(٢) سورة الروم : ٤٣ .

(٣) انظر روح المعاني : ١٤ : ٧٨ وإرشاد العقل السليم : ٣ : ١٥٩ . وانظر لسان
العرب ؛ والمفردات للأصفهاني ؛ في مادة : صدع .

وذهب ابن أبي الأصبع المصري إلى بيان الاستعارة على النحو التالي :

(فاصدع بما تؤمر) فالمستعار منه الزجاجاة ، والمستعار الصدع ، وهو : الشَّق ، والمستعار له عقوق المكلفين ، والمعنى صرَّح بجميع ما أوحى إليك ، وبين كل ما أمرت ببيانه ، وإن شَقَّ ذلك على بعض القلوب فانصدعت ، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب ، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط ، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار ، كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجاة المصدوعة من المطروقة في باطنها^(١) .

وهذا اللون هو من نوع استعارة المحسوس للمعقول ، ويمكنك أن تقول : إن المستعار منه : كسر الزجاجاة ، وهو حسي ، والمستعار له : تبليغ الرسالة ونشرها ، وهو أمر عقلي . والجامع بينهما : التأثير الذي لا يمكن معه ردُّ الشيء إلى ما كان عليه سابقاً . فكسر الزجاجاة وتفرق أجزائها لا يُجبر ولا يلتئم ، وتبليغ رسالة الله للناس وإعلانها عليهم وما ينجم عن ذلك أمر لا عودة بعده إلى الخفاء ، كما لا عودة لأجزاء الزجاجاة المصدوعة إلى الالتئام . ويقال في إجراء الاستعارة : شبه نشر رسالة الله وتبليغها تبليغاً قوياً جلياً بالصدع ؛ بجامع التأثير في كل منهما^(٢) .

ولا ريب أن عماد الاستعارة « فاصدع » تلك الكلمة الموحية المعبرة ، التي ترف بالمعاني الغزيرة ، حتى اتسعت لهذه الأقوال في فهمها وتأويلها . والحق أنها تحتمل جميع الذي قالوه ، فإن كلاً من الأئمة قد أعطى المعنى من زاوية معينة .

فمقصود الآية : إنهاء عهد الدعوة السرية والجهر بالدعوة إلى الله ،

(٢) انظر علم البيان : ص ١٤٠ .

(١) بديع القرآن : ص ٢٢ .

غير أن الجهر بالدعوة سيفرق بين الحق والباطل فتهتدي قلوب بعد ضلالها ، وآثار ذلك أن يتفرق جميع المشركين بدعوة الرسول إلى توحيد الله والاعتصام برسالته ، وتمزق جماعتهم تمزق الزجاج بالصدع ، وهذا ما حصل بالفعل حتى تميز القريب عن قريبه والأخ عن أخيه والوالد عن ولده ، ثم دارت بينهم في سبيل هذه الدعوة رحى المعارك الضارية . فالتعبير عن ذلك كله بهذه الاستعارة في ثلاث كلمات ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ لهو أبلغ تعبير تصويري ممكن ، وهو في رتبته من الجمال والجلال يشير الدهشة ويودي بنوع الإنسان الأدبي في غياهب العجز والقصور .

قال ابن أبي الأصبغ المصري معقّباً على هذه الاستعارة :

(فانظر إلى جليل هذه الاستعارة وإلى عظيم إيجازها ، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة ؛ التي ذكرنا ملخصها ؛ في ثلاث لفظات ، وكذلك أن بعض الأعراب لما سمع هذه اللفظات الثلاث سجد ، فقيل له : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام ، لأنه أدرك منه بديهاً من غير تأمل كل ما أدركناه بعد النظر والروية ؛ وتقدّم تحصيل مواد النظر في المدة الطويلة ، ومن هذا الموضع تبين لك أن العرب تيقنت من أول ما سمعت القرآن أنه غير مقدور للبشر ، فلم تشتغل بالمعارضة ولا حدثت نفوسها بها)^(١) .

٦ - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وبالعكس :

حين يحدثنا القرآن عن أمور مستقبلية ؛ فما أكثر ما ينبه على تحقق حدوثها قطعاً ؛ بتصوير وقوعها وانقضائه سابقاً ، إذ يعبر عنها بصيغة الماضي بدل المستقبل . وربما يحدثنا عن أمر ماض فيصوره لنا حاضراً يجري أمامنا لتأمل ما فيه من عجب مدهش .

(١) بديع القرآن : ص ٢٢ - ٢٣ .

صَوَّرَ اللهُ حالةَ المشركين وموقفهم من دعوة رسول الله وتجايفهم عن رسالة الله إليهم ، فقال جلَّ جلاله : ﴿ ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ . وهم يَنهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) . هذه صورة كاملة لموقف المشركين من رسالة الله ودلائلها ومن رسوله الكريم . صورة بارعة لقبس من الحياة البشرية الكاملة بحواسها وحوارها وحركتها ؛ وركوب الإنسان متن الهوى إصراراً وعناداً ؛ على الرغم من انبلاج الصبح ووضوح الطريق . هذه الصورة لواقع المشركين في الدنيا قابلها الله بذكر صورة لواقع المشركين في الآخرة . ولئلا ينأى بك مستقبل الزمان عما سيحقيق بهم ؛ عدل القرآن العظيم عن التعبير بصيغة المضارع الى الماضي ، فالعقاب واقع بهم لا محالة ، ها هو أمام ناظريك ، فتأمله ملياً : ﴿ ولو ترى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

خاطبك النص القرآني إِذْ وَجَّهَ الخطاب إلى غير معين ، فوجهه إليك وإلى كل عاقلٍ أهلٍ لتلقي الخطاب ، فإن سوء حال المشركين قد بلغت من الشناعة مبلغاً مريعاً فاضحاً ، حتى صارت مكشوفة أمام الجميع لا يختص بمشاهدتها راءٍ دون آخر .

هلا نظرت إليهم ! ها هم بخيالاتهم وكبرهم ، بجبروتهم وتكذيبهم ؛ قد انقلبوا تماماً ، انظر إليهم وقد حبسوا على النار لا يستطيعون إفلتاً ولا تحولاً ، وانكشفت لهم حقائق الأمور ، رأوا شذائذ وأهوال العذاب ، فتملكهم فزع رهيب ، وبدأ عليهم الخزي

(٢١) سورة الأنعام : ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ .

والاستخذاء ، ونطقت أفواههم بالحسرات والندم ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار . . ﴾ هذا سر التعبير ومدلوله . وقد كان متوقفاً أن يقول : « ولو ترى حين يقفون على النار حتى يعاينوها . . » شتان شتان بين ما ينصرف إليه نبوغ البشر وما أنزله خالق البشر في قرآنه المجيد !!

لقد أورد القرآن التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي إشعاراً بتحقق وقوع الحدث حتماً ؛ وتصويره للذهن بصورته الواقعية وظروفها المادية والمعنوية . وأورد البيان الرباني « لو » شرطية وأغفل ذكر جوابها لتذهب نفسك عن قراءتها كل مذهب في ارتقاب أمر الأحوال ، فصار حذف جوابها أبلغ في ادخال الهول على النفس البشرية ، وتقديره : (ولو ترى إذ وقفوا على النار . . . ﴾ « لرأيت هولاً رعبياً لا يحيط به نطاق التعبير » (١) . وقد استعار القرآن المبين لفظ الماضي للمضارع ؛ بناء على تشبيه المستقبل المحقق قطعاً بالحدث الماضي الواقع فعلاً ؛ بجامع تحقق الوقوع في كل منهما .

ويعبر القرآن أحياناً عن الماضي بلفظ المضارع ، فقد أرى الله إبراهيم الخليل في المنام أنه قد ذبح ولده إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء وحي ، فقابل إبراهيم ولده بأمر الله في اليقظة . صاغ الله خطاب إبراهيم لولده إسماعيل بقوله : ﴿ يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك !! فانظر ماذا ترى ؟! ﴾ (٢) .

فجاء التعبير بالمضارع - في كلا الفعلين بدلاً عن الماضي - بمزيد تنبيه للحدث المذكور ، حتى يجعل الصورة العجيبة الغريبة تجري أمامك

(١) انظر روح المعاني : ج ٧ ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) سورة الصافات : ١٠١ .

في ساحة الحادثة ، فُتريك والداً يذبح ولده . . براعة فائقة في التصوير ؛
أثارت الخيال واستحوذت عليه بغرابة الصورة المعروضة ، حتى يكاد
المرء يحسب أنه يراها رأي العين .

وهكذا استعير لفظ المضارع للماضي ؛ بناءً على تشبيه غير
الحاضر بالحاضر ؛ لاستحضار صورته الماضية ؛ لما فيها من غرابة
وعجب! (١) .

(١) والتعبير عن المضارع بالماضي وعكسه هو من: استعارة الفعل ، ولم يذكره البلاغيون
القدماء في بحوث الاستعارة، غير ان قواعدها تقبل ذلك ولا تأباه. واعتبره بعضهم
من: إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ بقصد التنبيه على تحقق الوقوع في
الأول واستحضار الصورة الغريبة في الثاني ، ويكون عندئذ من علم المعاني لا من
علم البيان . واعتبره آخرون : مجازاً مرسلأ ؛ علاقته الإطلاق والتقييد ؛ أو علاقته
المجاورة . ومهما كان أمر تصنيفه فإنه من وسائل التصوير البارعة في القرآن العظيم .
وهذا ما يهمنا هنا .

خصائص أسلوب القرآن البياني

امتاز أسلوب القرآن بخصائص عظيمة باهرة ، أزهدت طابعة المعجز لغةً وبلاغةً ، وتعددت تعدداً كبيراً . لكن استقصاء مزاياه شأن بعيد المنال دونه خرط القتاد ، فإنه علم استأثر به مُنزلُه الذي عنده علم أسرار الكتاب ، لكننا لن نحجم عن الادلاء بدلو يروي ظمأ المتطلع ويشفي غلته ، فما لا يدرك جُله لا يترك أقله . وها أنا ذا أذكر نبذاً يسيرة منها على وجه التمثيل والتقريب ؛ فيما يلي :

١ - تمييز النظم القرآني :

اشتمل القرآن على أفصح ألفاظ العربية وأعذبها . وإن هذه الألفاظ وإن كانت معهودة استعملها العرب قبل الإسلام وبعده ؛ فإن القرآن قد فاق جميع كلامهم وعلا عليه علواً شامخاً ، وما ذاك إلا لحسن السبك وروعة التأليف . فقد تحسُن الكلمة في مورد ويتألق فيه جمالها ، لتعانقها مع ما حولها ، بينما تبرز شوهاء شنيعة في موقع آخر ، ذلك أن تناسب الكلام عائد إلى دلالات الألفاظ ومزاياها ؛ وخفتها ورقتها أو فخامتها وجزالتها . إن مراعاة هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ على الوجه الأكمل الذي درج عليه القرآن من أوله إلى آخره أمرٌ متفوق تعجز عنه المَلَكات الأدبية والقدرات البشرية . وقد ضرب ابن الأثير لذلك مثلاً ، فقال :

(قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر ؛ فجاءت في القرآن جزلةً متينةً ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة ، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين ؛ أما الآية فهي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لَحْدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ

والله لا يستحيي من الحق ﴿١﴾ .

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبّي :

تَلَدُّ لَهُ المَرُوَّةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعشُقُ يَلَدُّ لَهُ الغَرَامُ ﴿٢﴾

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ، إلا أن لفظة « تؤذي » جاءت فيه وفي الآية من القرآن ، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية .

(فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، واعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ؛ وإمعان نظر ، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي ، وهذه اللفظة التي هي « تؤذي » إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى : ﴿ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ وقد جاءت في قول المتنبّي منقطعة ، ألا ترى أنه قال : « تَلَدُّ لَهُ المَرُوَّةُ وَهِيَ تُؤْذِي » ثم قال : « وَمَنْ يَعشُقُ يَلَدُّ لَهُ الغَرَامُ » فجاء بكلام مستأنف (٣) .

إن الكلام إذا جاء شعراً منظوماً ؛ ورد زاخراً بالعواطف قوي الإيقاع ، مما يعوقه في معظم الأحيان عن إبانة المعاني المقصودة تفصيلاً وسرد الحوادث إسهاباً ، وإذا كان الكلام نثراً فقد ؛ على الأغلب ؛ كثيراً من الحرارة ، فأبان عن المعاني بفتور ظاهر ، يحتاج معه الكاتب إلى الاستشهاد بآية من كتاب الله المجيد أو بيت من الشعر . أما القرآن العظيم فقد امتاز بنظمه الفريد المتسق مع المعاني والأغراض ببيان ساطع شافٍ

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) والغرام في هذا البيت : العذاب ، وتقول : لَدُّ لِي كَذَا يَلَدُّ ، من باب طرب يطرب ؛ مثل ظل يظل .

(٣) المثل السائر : ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

كافٍ . ولم يمنعه الاسهابُ وحسنُ البيان من الاشتغال على الإيقاع الملائم والقدرة على إثارة المشاعر الحارة وقوة التأثير في القلوب ، حتى راح الكتّاب والأدباء يفضلون الاستشهاد بآية من القرآن المبين ، لتزدان بها آثارهم الأدبية^(١) .

لقد نفّض النظم القرآني عادة العرب فيما ائتلفوا عليه من ضروب الكلام من شعر ونثر ورسائل وحكم وأمثال ، فإنه كما قال الإمام الرماني : (فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة)^(٢) .

٢ - إحكام سبك القرآن :

فالألفاظ القرآنية متعانقة متماسكة آخذ بعضها بأعناق بعض ، حتى تراها سلسلة رقيقة عذبة متجانسة أو فخمة جزلة متألّفة . فالكلمات متاخية متجاوبة جرساً وإيقاعاً ونغماتاً ؛ متلاقية منسجمة معنى ودلالة وتأثيراً نفسياً ووجدانياً ؛ على أروع مستوى يطيق البشر تصوره . وإنما قُصدت كل كلمة فيه بذاتها لما تشع به من مغزى ؛ وتحققه من تجانس وائتلاف . فلو استبعدتها لم تقدر أن ترصف مكانها كلمةً أخرى تقوم مقامها . ويستحيل أن تستغني عن كلمة منه دون إخلال بالمعنى المقصود من الآية ، فكل كلمة تنبض في شرايين الكلام مغزياً جديداً لا تبثه غيرها . فمهما كررت تلاوة القرآن المجيد فلن تقف فيه على تزيّد أو نقص أو ترادف في الكلمات ، فلا مترادف في القرآن . لقد اختيرت كل كلمة فيه لمغزاها ومدلولها ولصفاتها الذاتية من رقة وسلاسة أو فخامة وجزالة ، وقُصدت بصيغتها وحروفها لجرسها وإيقاعها ، فلا يتأدى معناها وإيقاعها وجرسها

(١) سيأتي بيان ذلك في : آثار القرآن العظيم في اللغة والأدب ص ٣٧١ .

(٢) راجع ص ١٨٧ .

إِلَّا بِهَا وَحدها . وهذا سر من الأسرار الدقيقة التي تتجلى بها عظمة القرآن
وأمجاده المعجزة .

إذا استطلعت كتب التفسير وجدتها ثرية ببيان المناسبات بين الآيات
والسور القرآنية . فإذا لاحظت أن كلمات الآية الواحدة رائعة التجانس
والتجاذب ؛ وأن آيات السورة الواحدة متينة التشابك والترابط ؛ وأن سور
القرآن متناسقة متناسبة ؛ أدركت يقيناً أن الذكر الحكيم كتاب إلهي كامل
بديع السميت ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾^(١) وتجلي لك
سبيكة واحدة ؛ تأخذ بالأبصار وتستحوذ على العقول والأفكار .

٣ - أسلوب القرآن مؤتلف مع معانيه :

اقرأ المعلقات الشعرية وغيرها من آثار الأدب الجاهلي تجد ألفاظها
لا تنفك من غريب مستنكر أو وحشي مستكره ومن معان قاصية ، وكما
تجد فيها الكلام البليغ والمتوسط تجد أيضاً الكلام الوضع المبتذل ،
الذي بلغ الغاية في تدني الرتبة . وقد قدم الإمام الباقلاني عليه رحمة الله
تحليلاً لقصيدة امرئ القيس انتقده فيها نقداً مرأً^(٢) ، يكشف عن
الهفوات الشنيعة ، ويدل بالتالي على قصور القدرة البشرية عن مجازاة
بلاغة القرآن ، فقد سهّل الله سبيله ، وبرّاه عن حوشي الكلام ومنكر
غريبه ، ونزّهه عن التكلف في الصنعة ، فجاء سلساً ، ينساب كالماء
الزلال ؛ قريباً إلى الأفهام ، يسبق معناه اللفظ إلى القلب فيستقر ، ويغزو
النفس فيتمكن . احتوى المعاني الجمّة العظيمة مع سهولته ويسره
وعذوبته . فعزّ مطلبٌ مثيله على البشر وامتنع ، فلم يطمع أحد بالظفر

(١) سورة الزمر : ٢٨ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني : ص ١٥٩ - ١٧١ .

بمداناته أو القدرة على مثله^(١) .

وإنما يُنبئُ الكلام عن مقام صاحبه ويدل على مكانة متكلمه . وأنت تتعرف على صدقه أو ريائه في كل غرض من أغراض كلامه . ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن محب مؤلّه ؛ كان أرقّ وأصفى وأروى للنفس من السلسبيل ، وإذا صدر عن متعمل متصنع كان كافياً في الدلالة على مداجاته وكذب عاطفته . فهذا جرير عَفُ النفس يجيء شعره في الغزل رقيقاً عذباً مطرباً . فيدل على سمو عواطفه وإنسانية مشاعره . وذاك الفرزدق يكاد يُخبر عن نفسه أنه زير نساء ، ونظمه في الغزل فح لا يُستعذب ، فيدل على وضاعة مشاعره وبلاغة أحاسيسه وتحجر فؤاده . فالفرزدق مع كل ما أبداه قد فضحه شعره وأثبت أنه لم يعرف للحب معنى ولم يذق له طعماً . وأنت تحس لقول المتنبي :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ

من الوقع في القلب ما تعلم به أنه أهل الفروسية والشجاعة . ولا تحس بمثله لقول البحري :

وأنا الشجاعُ وقد بدا لك موقفي بعقر قسٍ والمشرفيةُ شهدي

والقرآنُ أعلى منازل البيان ، وقد جمع وجوه الحُسن وأسبابه : من روعة النظم وحسنه وبهجته ؛ وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ؛ ووقوع ألفاظه ومعانيه في النفس موقعَ القبول والإجلال ؛ وتصوره تصور المشاهد حتى يحل محل البرهان والدليل ، إلى غير ذلك من المزايا ؛ مما لا ينحصر حُسنًا وبهجة وسناء ورفعة . فسما بيان

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٤٦ - ٤٧ .

القرآن فوق كل بيان ، وسرى إلى النفوس في مسالك لطيفة ؛ وإلى القلوب في مداخل دقيقة . فصار له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يُدهش ويبهج ؛ ويقلق ويؤنس ؛ ويُطمع ويؤيس ؛ ويُحزن ويفرح ؛ ويُشجي ويطرب ؛ ويهز الأعطاف ويستميل الأسماع ؛ ويورث الجود والأريحية والعزة ؛ ويبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً . وهكذا ؛ فإنه ينفذ من كافة أقطار النفس الإنسانية ، ويتغلغل في أعماق الأفتدة ، فيحملها على الخشوع والاختبات ؛ لما في طياته من قوة وهيمنة تدل على تنزله من علو ؛ وصدوره عن عظمة الألوهية وشرف الربوبية ؛ وقدرة الإله الحق ذي الجبروت . فالقرآن بنفسه يدل على قدر متكلمه ، ويخبر عن مقام منزله ، كما ينبه على عظيم شأنه وقوة إعجازه ، فيثبت لكل عاقل صحة رسالة محمد ﷺ وصدق نبوته .

٤ - خطاب العقل والقلب بآن واحد :

لكل أسلوب طريقته الخاصة ؛ فالأسلوب العلمي أو الفلسفي يُعنى بخطاب العقل وحده ، والأسلوب الأدبي نثراً ونظماً يغلب عليه الاعتناء بخطاب القلب وإثارة العاطفة ، أو يخاطب القلب تارة والعقل تارة أخرى .

لكن أسلوب القرآن العظيم يتميز بأنه يخاطب الإنسان كله عقلاً وقلباً ووجداناً ؛ بآن واحد . يعرض القرآن حقائق الوجود الكوني والإنساني واضحة جلية يفهمها العلماء والعامّة كل حسب مستواه ، يعرضها جميلة مستطابة هادفة ، تعتمل في العقل وتثير الخيال بصورها الجذابة الرائعة ، وتستحوذ على القلوب والأفتدة . ترى القضية معروضة عليك سببكية واحدة لا انفصام فيها بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية والهداية الربانية . فلا ترى الفكرة في عزلة أو انفصال عن التأثيرات الوجدانية والعاطفية ؛ كما تلاحظ في الأبحاث الفلسفية والمواضيع

العلمية^(١) . فها هي الآيات العلمية تعرض حقائق الكون وروعته ودقة قوانينه ونظمه وانضباط أجهامه واتساق أجزائه ومجراته ، لا لتعظيمه وتوأمه ، بل لتسموكم إلى تملي عظيم قدرة الله وسعة علمه وباهر إبداعه في ملكوته الشاسع . تأمل هذا النص القرآني يعرض عليك حقائق كونية كثيرة متباعدة ، فينظمها في سلك واحد ، فإذا هي عقد واحد جميل جليل مدهش ، فإنها قد وردت في سياق واحد مؤتلف متشابك متعاقد متساند لتؤدي دورها في الفكر والوجدان والضمير والإرادة ، فترسي دعائم اليقين برب العالمين وعباده المرسلين والمثول بين يديه يوم الدين .

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ !؟ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ! أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ !؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ !؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ! أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ !؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ! أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ !؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ! أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ !؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ !! قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢﴾ .

تحدث النص عن السموات والأرض ليلفت النظر إلى القدرة

(١) راجع ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) النمل : ٥٩ - ٦٥ يعدلون : ينحرفون عن الحق .

الإلهية العظمى التي قامت بها ، وحدثنا تعالى عن محكم تدبيره وجمال خلقه في إنزال المطر وإنبات الزرع والشجر لتتملى الأعين بهجة الحدائق ونضارتها . وانتقل بنا إلى تذليل الأرض وشق الأنهار . . . الخ .

حقائق كثيرة متعددة عرّضتُ بالبرهان العقلي الدامغ قضية الإيمان بالله وضعف البشر وعبوديتهم ؛ وخضوع الكائنات وتسخيرها رحمة بالبشرية ؛ وما فيها من جمال وإبداع وإحكام . وعرضت لعالم الشهادة وعالم الغيب . ويشير ذلك كله إلى القدرة الإلهية الخلاقة العظيمة العادلة الحكيمة ، التي قضت ببعث الموتى يوم الحساب . كل ذلك في نص واحد متصل متسق عذب كالسلسال .

وبهذا الامتياز المعجز حقق القرآن غاية عظمى من غايات الدعوة وأهدافها ، هي أن مخاطب عقول العامة وامتلك نواصي أفتدتهم ، ومخاطب الخاصة بإشراق ديباجته وحسن منطقه وقوة استدلاله الملزم المفحم ، واجتذبتهم بإشارته إلى بعيد مرماه وعميق محتواه ؛ ليجدوا فيه سمو الإعجاز في المستوى الفكري الرفيع الذي تتشوف إليه نفوسهم ، فجاء أثر القرآن ؛ بخطاب واحد ؛ عميقاً عاماً في ضمائر جميع العقلاء المنصفين من علماء وعامة ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم سبل السلام .

٥ - سمو الأسلوب القرآني في الأغراض العلمية :

إن البليغ المفصح والشاعر المفلق والخطيب المصقع ليختلف أسلوبه باختلاف الأغراض ، فبعضهم يجيد في الوصف دون الغزل ، وغيره يبرع في الحماسة والفخر ، وغيره عند الرغبة أو الرهبة^(١) .

(١) راجع ص ٢٢٠ وما بعدها .

لكن القرآن الكريم قد تصرف في موضوعات عديدة متفاوتة ؛ من قصص ووعظ ووجاج وحكم ووعد ووعيد ووصف وتعليم وأخلاق كريمة وتشريعات أبدية ، وتحدث عن الألوهية والعبودية والكون والإنسان ، ومع كل هذا فإن أسلوبه ظل في المنزلة العليا فصاحة وبلاغة . ولا يخفى عليك أن اختيار الألفاظ البارعة للمعاني الجديدة أعجب وألطف من إيراد اللفظ البارع في المعاني المتداولة^(١) .

وحين يعرض نبغاء الكتاب إلى بيان فكرة علمية تجد أسلوبهم اتجه إلى العقل يغذيه بالمعرفة ، وتمتاز عبائهم عندئذ بالتحديد والاستقصاء ، وتعمل على المصطلحات العلمية وتعمد إلى السهولة والايضاح ، لأن الأسلوب العلمي لغة العقل المدقق . لذا يخسر هذا الأسلوب الجزالة والفضامة والقوة والإثارة العاطفية والأنغام المؤثرة الموحية . وقلما تجد فيه جمالاً فنياً أو استخلاصاً للعظات والعبر .

يشير إعجابك ويأسر لبك الجمال والبهاء والروعة حين تقرأ نصاً تشريعياً من القرآن ، فتجده خالياً من جفاف الأسلوب العلمي أو جموده ، إذ تبدى لك في القرآن براعة الصياغة التشريعية المرهفة الهادفة ، حتى تعجز عن استبدال كلمة بأخرى أو تقديم فقرة على أختها ، فهو يربط الحكم التشريعي بالوجدان الديني ربطاً وثيقاً عميق الإيحاء قوي التأثير ، ويبثك من خلاله نفحة روحية سامية ، تحفز همتك عن التزام حكم الله والسعي لمرضاته . وتجد النص متصلاً مترابط الأحكام لا ينتقل من مسألة إلى أخرى إلا بعد استيفاء حكمها التشريعي ، فلا يعود إلى الإشارة إليها إلا لاتصال جديد وثيق معها . ومع أن الغرض التشريعي غرض مرهف حساس دقيق يحرفه لفظ واحد

(١) راجع ص ٢٠٤ وما حولها .

عن مجراه المقصود ، فإن القرآن العظيم يبهرك بالجمع البارع بين الدقة التشريعية والجمال الأدبي الفذ على نحو فريد .

هذا نص تشريعي تحدث في شأن ماليّ هو الدّين والرهن ، فتأمله ملياً ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربّه ولا يخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ﴾ (١) .

تلحظ دقة الصياغة وتساوق النغم مع الفكرة التشريعية وتسلسلها إلى الخاطر . لاحظ مثلاً قوله : ﴿ تدايتم بدين ﴾ فإنك لا تستطيع أن تستغني عن كلمة ﴿ بدين ﴾ لأن الضمير سيعود عليها بعد قليل ﴿ فاكتبوه ﴾ فوجودها في مكانها في النص ضرورة حساسة .

ويتجلى التأثير الوجداني قوياً محرّضاً ، فقد أمر الله الكاتب أن يكتب دون إباء أو تلكؤ ؛ طالما أن الله منّ عليه ووفقه لتعلم الكتابة وأصول تدوين الحقوق ، فليكن وفيّاً لفضل الله عليه وليلبّ من طلب إليه أن يكتب له . ثم تأمل كيف أخذ الله بناصر الضعيف وهو المدين وجعله سيد الموقف فلا يُستضعف ولا يُهضم حقه : ﴿ وليملل الذي عليه الحق ﴾ وحفظ بذلك حق الدائن ، لأن الإملاء من المدين إقرار صريح بالحق المترتب عليه دون لبس أو احتمال ، وفي ذلك حكمة تشريعية إلهية ظاهرة . وبعد أن جعل سلطة الإملاء للمدين حمّله المسؤولية مثيراً في قلبه هيبة الله ليستشعر جلاله وعظمته ويستذكر حسابه ، فيكون ذلك

(١) سورة الصافات : ١٠١ .

حافظاً قوياً يحفظه على الصدق والأمانة ؛ وذلك بقوله : ﴿ وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً . . . ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن تَرْضُونَ مِنَ الشهداءِ أَنْ تَضَلَّ إحداهما فتذكرَ إحداهما الأخرى ، ولا يَأْبُ الشهداءِ إِذَا مَا دُعُوا ، ولا تسأموا أَنْ تكتبوه صغيراً أو كبيراً إِلَى أَجله ، ذلكم أَقسَطُ عند الله وَأَقْسَمُ للشهادةِ وَأدنى أَلَا تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَا تَكْتُبُوهَا ، وَأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أمر الله بإشهاد شهيدين ، وبين الحكمة من اشهاد اثنتين من النساء بما يتناسب مع الغريزة والاهتمامات المختلفة بين الجنسين ، حتى إذا وقعت إحداهما في النسيان ذكَّرتها الأخرى . وحذَّر الله تعالى من الامتناع عن الشهادة بعبارة موجزة غزيرة المعنى ، ﴿ ولا يَأْبُ الشهداءِ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ فإنها تشمل المدعويين لتحمل الشهادة واستحفاظها عند كتابة الحق ، كما تشمل المدعويين لأداء الشهادة حين يقع الخلاف بين المتعاقدين . وهذه العبارة في الواقع نموذج من إعجاز الإيجاز في القرآن .

ويحثُّ المولى جَلَّ جلاله على كتابة الدَيْنِ صغيراً كان أم كبيراً بتحريض وجداني إيماني ﴿ ذلكم أَقسَطُ عند الله ﴾ فإنه أعدل طريق يرضي الله في هذا الموضوع . وأثار أيضاً نوازع نفسية دينية فاضلة فعالة بقوله : ﴿ وَأَقْسَمُ للشهادةِ وَأدنى أَنْ لَا تَرْتَابُوا ﴾ فهذه دعوة إِلَى التزام طريق الصواب والثقة والطمأنينة ؛ وإلى البعد عن الشك والوهم والاضطراب ؛ وتفادي ما ينتج عن ذلك من خلاف وتشاحن بين الناس .

وحذر تعالى من التسبب في ضرر الكاتب أو الشاهد ، فإن فعلتم ذلك فإنه خروج منكم عن طاعة الله ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ وختم هذه الآية الطولى بإثارة نوازع الإيمان وتربية القلوب على مهابة الله والتوجه إليه وكبح جماح النفس وخواطرها عن كل سوء وذنب ، لأن الله مطلع على العبد يعلم السر وأخفى ، فقال : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم ﴾ .

وعلى هذا النحو تأمل تنمة النص في الحديث الرباني الشيق عن الرهن ؛ تجده حديثاً يلامس شغاف القلوب ، ويثير نوازع الإيمان ، ويقوي مراقبة العبد لله تعالى في تصرفاته ، ويذكره أن الكون كله والإنسان في الجملة في قبضة هيمنته وأنه آيل لا محالة إلى حسابه عن كل صغيرة وكبيرة وخفية وظاهرة . قال الله تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهاناً مقبوضاً ، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذي أؤتمن أمانته ، وليتق الله ربّه ، ولا تكتموا الشهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم . لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

٦ - جاذبية النغم القرآني :

تتجلى أنغام القرآن خلاصة عجيبة في نظامه الصوتي الجميل . تأمل ائتلاف القرآن في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته ؛ تجد ائتلاًفاً رائعاً واتساقاً محبوباً ، يستصغي الأسماع ويسترعي الاهتمام ، ويوقظ المشاعر على نحو لا يتأتى لكلام آخر نظماً كان أو نثراً .

(١) راجع النص متصلاً في سورة البقرة : ٢٨٢ - ٢٨٤ .

لقد جمع أسلوب القرآن البياني بين مزايا الشعر والنثر جميعاً ،
وحين تخلص من قيود القافية الواحدة والتفعيلات المحددة ترفع عما
يؤول إليه أمرها من التكلف والملل ؛ وخاصة عند الإطالة . فامتاز بذلك
بحرية التعبير عن جميع أغراضه حرية كاملة مطلقة ؛ مع تمتعة في نفس
الوقت بأحلى خصائص الشعر ، وهي الأنغام الداخلية ، والألحان العامة
التي تتملأها في الفواصل المتماثلة والمتقاربة وزناً وقافية ؛ وما تؤديه من
تلاحم بالجرس والايقاع والنغم .

ومن هنا كانت جاذبية النغم القرآني خصيصة عظيمة من خصائص
القرآن ، تبرز آثارها للعيان حين ترى تعلق الأعاجم في عصرنا بالقرآن
وحفظهم له وكثرة تلاوتهم دون أن يفقهوا بيانه ، ولهذه الخصيصة دور
كبير في زماننا في استمالة أسماع المتعقلين من أصحاب الديانات
الأخرى وأفكارهم . ومن قبل كان لها أثرها العظيم في اجتذاب شبان
مكة حول أبي بكر رضي الله عنه يستمعون بشوق إلى ألحان القرآن
ومعانيه ، كما دفعت كبار رجال الشرك أن يتسللوا ليلاً خفيةً ليصيحخوا
بأسماعهم إلى تلاوة سيدنا رسول الله ﷺ ، كما هو مسطور في كتب
السيرة .

وما من لحن موسيقي أو نغم شعري إذا طال أو تكرر إلا أورث
سامعه السأم والملل ، وُضعف تأثيره فيه . لكن قارئ القرآن أو
المصغي إليه في نعيم منه وابتهاج بأنغامه المتنوعة المتجددة ، تهتز لها
أوتار قلبه . فالقرآن لا تنقضي عجائبه ولا يُخلق على كثرة الرد ، كما
أخبر الرسول الأعظم ﷺ . وهو أمر شهير عند أصحاب الحسّ السليم
والذوق الرفيع .

ولدى تلاوتك آيات من الكتاب المبين تلحظ بوضوح شديد
انسياب ألفاظه على لسانك بيسر وسهولة ، ويتمتع سمعك بعدوبة وقعه

عليه لاتساق كلمه وانسجام نغمه ، بل إن كلاً من ألفاظه يدخل الأذن بغير إذن لحلاوة جرسه ونغمه ، وتلحظ أن نغمة اللفظة الواحدة متآخية متلاحمة مع أنغام السياق . ففي كل آية تناغم داخلي بين كلماتها ، وفي كل نص قرآني تناغم بين آياته وفواصلها .

وتنوع الألحان القرآنية يتعلق بقصر الفواصل وطولها وجرس الألفاظ وإيقاعها ، فالنغم القرآني هو فيض النظم البياني الخاص في كل نص من نصوصه . وإن بين النغم والنظم في القرآن من التآلف والإتساق ما جعل النغم يؤدي وظيفة بيانية هامة في أسلوب القرآن .

فليست النغمة القرآنية مجرد صوت منسجم ، بل إن لها صلة بالمعاني ، وتشارك النغمة في جلاء المعنى حساً وفكراً ، حيث يأتي جرس ألفاظ القرآن ونغم سياقه مؤتلفاً مع معانيه متعاضداً معها في أداء الإيحاءات والآثار النفسية والوجدانية تآلفاً دقيقاً ، ستظل المواهب الإنسانية تعجز عن بلوغه .

● هاك نصاً قرآنياً يريك بجلاء تفاوت النغم فيه حسب المعاني المعروضة . فإن سيدنا موسى ولّى أخاه هارون على بني إسرائيل ومضى لمناجاة الله ، فلما عاد وجدهم ضلوا عن الله وعبدوا عجل الذهب الذي صنعه لهم السامري ، حكى الله قصته ، فأنعم النظر وأرهف السمع لهذا النص الكريم ؛ تجدّ حالة الغضب والأسف وما نجم عنها من لوم وتقريع قد أخذت نغمها اللائق بها . قال الله تعالى : ﴿ ولما رجّع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال : بثسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم !؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ ثم انظر استعطاف هارون وقد اكتسى كلامه حظه الوافر من الترجي واستشارة العطف ﴿ قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تُشمّت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ ثم تأمل رنة الأسى

والاستعطاف في دعاء موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ولاحظ بعدها مباشرة نعمة التهديد والزجر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ وتأمل جرس الترغيب والاستمالة في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وتأمل في ختام النص أنغام التوجع والأسى في الشكاية والتوبة إلى عظمة الله جلَّ جلاله من عباده الخاطئين على لسان موسى : ﴿ ولما سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي نَسَخَتِهَا هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ، وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ ! أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا !! إِنَّ هِيَ إِلَّا فَتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ . أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١) .

فإذا تفحصت عبارات الدعاء وما احتوته من مدود وإيقاع مسترسل متموج وجدت للدعاء لحنًا خاصاً به يتناسب مع الضراعة والابتهاال والرجاء ، فتنهفو نفسك إلى إعادته والتنعيم بما فيه من أنغام شجية طويلة خاشعة .

● وتأمل أنغام الهيبة والرهبة إذ يفيض بهما سياق الكلام عن قيام الساعة وأهوالها الجسم ؛ وذكر قدرة الله القاهرة ومثول العبد للحساب عند ربه تجدها أنغاماً ذات سطوة وهيمنة تحطم كبرياء الجاحد أو العاصي ، وتقهر غروره وتبدد اعتداده ووجاهته . وقال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ

(١) راجع النص متصلاً في سورة الأعراف : ١٥٠ - ١٥٥ .

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادُلُ فِي اللَّهِ بغيرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٠١﴾ .

٧ - براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام :

يورد القرآن المبين الغرض الواحد بألفاظ متعددة وطرق مختلفة ، ويتسم بيانه في جميعها ببراعة فائقة ، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ، ولسنا هنا سبيل الاستيعاب والاستقراء ، ولكنها أمثلة تهديك ونماذج تكفيك :

منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

- ١ - الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٣) .
- ٢ - والاختبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين ؛ نحو ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (٤) .

(١) سورة الحج : ١ - ٤ .

(٢) في أمريكا دكتور مختص بالعقول الالكترونية ، وهو مصري مسلم ، وقد قام بعدد كبير من العمليات الحسابية بالعقول الالكترونية ، فوجد أن هناك علاقة حسابية بين حروف فواتح السور ؛ مثل ﴿ الم ﴾ وغيرها ؛ وبين كلمات السور المفتحة بهذه الحروف ، فإن حروف فاتحة السورة تتوفر في كلمات هذه السورة بكثرة تتفوق غالباً على نسبة وجودها في السور الأخرى التي لا تتميز بنفس الفاتحة (انظر مجلة آخر ساعة المصرية - عدد ١٩٩٦ و ٢٠٤٠ سنة ١٩٧٣) .

وقد لفت النظر بعض العلماء إلى الدقة الحسابية في حروف القرآن التي تعجز عنها الخلائق ، وسمي هذه الظاهرة : الاعجاز الحسابي .

ونحن نلفت الانتباه إلى أن هذه النتيجة تؤكد ما ذكرناه آنفاً من تميز السورة القرآنية بنظام صوتي ونغم خاص .

(٤) البقرة : ١٨٣ .

(٣) النساء : ٥٨ .

٣ - والاختبار بكونه على الناس ؛ نحو ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ (١) .

٤ - والاختبار عن المكلف بالمطلوب منه ؛ نحو ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ (٢) أي مطلوب منهن أن يتربصن .

٥ - والاختبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره ؛ نحو ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ (١) أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم .

٦ - وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر ؛ نحو ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ (٣) أو بلام الأمر ؛ نحو ﴿ ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٤) .

٧ - والاختبار عن الفعل بأنه خير ﴿ ويسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير ﴾ (٥) .

٨ - ووصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه برٌ ، نحو ﴿ ولكن البر من اتقى ﴾ (٦) .

٩ - ووصف الفعل بالفرضية ؛ نحو ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ (٧) أي من بذل المهور والنفقة .

(١) البقرة : ٢٢٠ .

(٢) البقرة : ١٨٩ .

(٣) الأحزاب : ٥٠ .

(١) آل عمران : ٩٧ .

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

(٣) البقرة : ٢٣٨ .

(٤) الحج : ٢٩ .

١٠ - وترتيب الوعد والثواب على الفعل ؛ نحو ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعَفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

١١ - وترتيب الفعل على شرط قبله ، نحو ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ (٢) .

١٢ - وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام ؛ نحو ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) أي فليتذكروا .

١٣ - وإيقاع الفعل عقب ترجٍ ؛ نحو ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

١٤ - وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل ؛ نحو ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

٨ - جمع القرآن بين الإجمال والبيان :

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه ، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل ؛ وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الذي لا يفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ؛ ما يتسابق به مغزاها إلى

(١) الحديد : ١١ .

(٢) البقرة : ١٩٦ .

(٣) النحل : ١٧ .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

(٥) المائدة : ٤٤ .

(٦) الخبيصة السابعة مقتبسة من مناهل العرفان بتصرف : ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

نفسك دون كذبٍ خاطر ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة . وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبراً ووقفت على معناه محدوداً . هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك . . حتى ترى للجمله الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيح أو محتمل للصحة ، كأنما هي فص الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع .

وهذا مثال موجز نقدم تحليله لإيضاح هذه الخصوصية ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١) فانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس !؟

ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة ! فإنك لو قلت في معناها : انه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا ييسط الرزق لهؤلاء وَيَقْدِرُهُ على هؤلاء ؛ أصبت .

ولو قلت إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الانفاق خوف النفاق ؛ أصبت .

ولو قلت : إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر الإنسان ولا يحتسب ؛ أصبت .

ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبه ومناقشة له على عمله ؛ أصبت .

ولو قلت : يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب ؛ أصبت .

(١) سورة البقرة : ٢١٢ .

فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، وفيه ما فيه من الهضم لنفوس المغرورين من المترفين . وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه . وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم غنىً من حيث لا يظنون . وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للمصلحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العد . ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية آية رأى من ذلك العجب العاجب^(١) .

وذكر دائماً أن فصحاء العرب قد شهدوا أن القرآن في نظمه وبلاغته لا يقاربه كلام آخر من شعر أو سجع أو نثر ، فنظمه فريد متميز يخالف كافة أنماط النظم الذي عهده العرب ، ينساب بإتساق عجيب واثلاف رائع وإيقاع أخاذ يفيض روعةً وجلالاً يسترعي الأسماع ويستهوِي النفوس ، فقد آمن أنيس وقال : (لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . وقد وضعت قوله على أفراء الشعر لم يلتئم على لسان أحدٍ أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)^(٢) .

وانصرف الجاحدون إلى العناد والتهرب من الإقرار بإعجازه والإيمان به ، فزعموا أنه شعر إذ رأوه كلاماً منظوماً ، وزعموا أنه سحر إذ أيقنوا بإعجازه وعدم قدرتهم على معارضته ، لكنهم لما وجدوا له وقعاً في

(١) هذه المزية مقتبسة من النبأ العظيم بتصرف من ١١١ - ١١٢ .

(٢) رواه الامام مسلم في صحيحه - كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي ذر رضي

الله عنه ج ٤ ص ١٩٢٠ - وقد مر بك نصه كاملاً ص ١٤٣ .

قلوبهم وقرعاً في نفوسهم لم يتمالك زعيمهم الوليد بن المغيرة نفسه من الإقرار بحقيقة وصف القرآن اقراراً تنجاب به عن العيون أغشية افتراءاتهم السابقة ، فقال : (فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ؛ ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ؛ ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله . وإنه ليعلو وما يُعلى . وإنه لِيُحطم ما تحته)^(١) .

فأنت ترى أنهم كانوا يتبينون بطباعهم - إذا خلوها وسومها - مواطن الإعجاز ، ويعرفون شرائط المعارضة ولوازمها ، فعلموا علم اليقين أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، ونفروا إلى الحرب الضروس لفرط جهلهم ؛ فراراً من الخزي ، فوقعوا فيما حذروا فألبسهم الله لبوسه بحربهم .

﴿ فوقَ الحقِّ وبطلَ ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾^(٢) .

(١) ارجع إلى أقوالهم فيما مضى ص ١٣٩ - ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف : ١١٨ - ١١٩ .

الوجه الثاني الإخبار عن الغيب في القرآن

اشتمل القرآن على أخبار غيبية كثيرة لا سبيل لمحمد ﷺ ولا لقومه إلى تحصيلها ، إنما يتعين تحصيلها من سبيل واحدة هي التلقي والتعلم ، ولكن ممن عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهي أنباء تطرقت إلى كشف غيوب ماضية وأخرى حاضرة ومستقبلية أيضاً .

وان هذا الوجه من الإعجاز لا يتطلب - كالإعجاز البياني - ذوقاً بلاغياً مرهفاً ومعرفة لغوية عريقة ؛ مما لا يتوفر عند عامة المثقفين في عصرنا . فيمكن لكل إنسان عربياً كان أم أعجمياً أن يرى الإعجاز ماثلاً فيه ، فيتحذه دليل هدايته . لذلك آثرت أن أعنى به وأفصل أنواعه وأسهب في سرد نماذج منه . فكل نموذج آية إلهية ظاهرة ، ومعجزة ربانية قاهرة كافية بحد ذاتها للدلالة العاقل على إعجاز القرآن العظيم ونبوة محمد ﷺ . فإن تضافرت النماذج القرآنية جميعها فقد انبلج صبح الهداية ، وأثار ضياء الإيمان عوالم النفس بأسرها .

أ - الإخبار عن غيب الماضي في القرآن :

وأبناء الماضي في كتاب الله كثيرة تتمثل في القصص الرائع الهادف عن سير المرسلين ومناهج المؤمنين ؛ ومواقف أعداء الرسل الكافرين . فتجد لعرضه الحوادث من الجاذبية والتشويق ما يمسك بتلابيب القواد ، فتتراحم عندك منه المواعظ والعبر ، فتثير المشاعر وترتسم على صفحة الوجدان ، وتفتح الأعين على حقائق الهدى والإيمان ، وتحمل على التأسى والاعتداء في العمل والامتناع .

ولقد ذكر الله جل شأنه قصة آدم أبي البشر عليه السلام ، وفصل قصة نوح عليه السلام وقال في ختامها : ﴿ تلك من أنباء الغيب نُوحِيهَا

إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴿١﴾ .

فمحمد ﷺ أُمِّي لم يقرأ في حياته كتاباً قط ولم يتلقَ من أحد من الناس علماً^(٢) ، بل إنَّ قومه الذين أمضى عُمره بين أظهرهم أميون لا يعلمون من حقائق التاريخ إلَّا نَتْفَاً يسيرة توارثتها الأجيال وسارت بها الأمثال . فأني لرجل لم يدرس التاريخ ولم يتلق العلم أن يأتي بقصص الأولين بتفاصيل دقيقة لم يحط بها علماً إلَّا عَلامَ الغيوب وإلَّا الذين حضروها ؟ فهل تلقاها محمد الأُمِّي ﷺ عن الله تعالى أم كان ممن حضرها !!؟؟

قال تعالى في ختام قصة موسى عليه السلام : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العُمْرُ ، وما كنت ثاوياً في أهل مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطُّورِ إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك لتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾^(٣) .

ولما كانت الآيات قد سبقت ببيان إنزال الله التوراة على موسى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب . . ﴾ فقد ربط الألوسي بينها فقال : ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ شروع في بيان ان إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له ألبتة ؛ متضمناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلَّا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها . وحيث انتفى كلاهما تبين

(١) سورة هود : ٤٩ .

(٢) انظر بحث أمية الرسول في : « نبوة محمد ﷺ في القرآن : ص ٢٥٧ - ٢٦٥ » فإنه يكمل ما ههنا .

(٣) سورة القصص : ٤٤ - ٤٦ .

أنه بوحي من علام الغيوب ؛ لا محالة (١) .

وأنت ترى أن السياق القرآني لم يراع ترتيب وقوع الأحداث ، لثلا يتوهم قارىء أنه أورد الكلّ دليلاً واحداً على نبوة محمد ﷺ ، لذا خالف بينها ، ولوراعى تسلسلها لأورد أولاً نفي إقامة الرسول في قوم شعيب أهل مدين ونفي استماعه وتعلمه منهم ، ولنفي ثانياً حضور محمد ﷺ بجانب الطور حين نادى الله موسى : إني أنا الله رب العالمين ، وأرسله إلى فرعون وملئه ، ولنفي ثالثاً حضور محمد عليه السلام قضاء أمر نبوة موسى وإيتاءه التوراة (٢) .

قال العلامة الألوسي رحمه الله : (وتغيير الترتيب الوقوعي - بين قضاء الأمر ؛ بمعنى إحكام أمر نبوة موسى عليه السلام بالوحي ؛ وإيتاء التوراة وثوائه في أهل مدين المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثابواً في أهل مدين ﴾ والنداء - للتنبيه على أن كلاً من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلهي (٣) .

وعقب الله تعالى على قصة مريم بقوله : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نُوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٤) .

وعقب على قصة يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ ذلك من أنباء الغيب

(١) روح المعاني ج ٢٠ ص ٧٤ .

(٢) والمراد من قوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ وما كنت - يا محمد - حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي تم فيه الميقات وأخذ فيه موسى ألواح التوراة : ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ : أي عهدنا إليه وأحکمنا أمر نبوته بالوحي وإيتاء التوراة .

(٣) روح المعاني : ج ٢٠ ص ٧٧ .

(٤) سورة آل عمران : ٤٤ .

نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١﴾ .

ثم أحسنَ اللهُ عزاءَ نبيه بخطاب كريم : إن آيتك - يا رسول الله - بينة وحجتك قائمة دامغة . وليس فيما ههنا شبهة تحمل القوم على مخالفتك والصدِّ عن اتباعك فقد جئتهم بالحق الأبلغ ، لا تبتغي به عرض الحياة الدنيا ، فتلقوك جاحدين بآيات الله . ولست أول من قامت حجته فلم يُتبع ، وليس جميع الناس إذا تبين لهم الحق أذعنوا له . فما أكثر ما يشهدُ الجاحدون من معالم الهداية في السموات والأرض ، فيزورون عنها معرضين قال تعالى : ﴿ وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين . وكأين من آية في السموات والأرض يَمرونَ عليها وهم عنها معرضون ! ﴾ (٢) .

أمرٌ يثير الدهشة حقاً ، رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب ، يعيش أربعين سنة مشغولاً برزق نفسه وزوجه وولده راعياً أو تاجراً بالأجر ، لا يتصل إلى العلم والعلماء بسبب ، ولا يتطرق حديثه إلى شيء من أمر الغيب أو النبوة في يسير أو كثير ، ثم يطلع على العالم بأمر النبوة ويسرد عليهم قصص المرسلين السابقين وأمهم مفصلة موضحة . ويمتحنه أهل الكتاب فيسألونه عما تيقنوا بأنه غيب بالنسبة إليه ، لا يقدر على تعلمه بوسيلة عادية ، فيسألونه اختباراً عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح ، فيجيبهم على وجه الدقة والضبط بما لا سبيل إلى تخطئته أو تكذيبه . فهل يمكن لذلك الرجل الأُمي الذي بلغ في الأمية أربعين سنة ولم يزل عليها ؛ أن يأتي دفعة واحدة بما لا عهد له في سالف حياته ؛ من تاريخ دقيق مفصل وعلم يقيني وبلاغة معجزة - إلا أن يكون ذلك وحياً من الله يوحى ؟!

(٢١) سورة يوسف : ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ .

وأنى له العلم بأخبار القرون الأولى فيسرد على وجه التمهيص
والتصحيح ما خفي وتشوه في قراطيس أهل العلم إلا أن يتلقى من علام
الغيوب ..؟! ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت
فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون؟! ﴾ (١) .

قال القاضي عبد الجبار رحمة الله عليه : (من دلائله وأعلامه ﷺ
وهو إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من خلق آدم ﷺ ، وما كان له
مع الملائكة صلوات الله عليهم ومع ولده ؛ ومع إبليس ؛ وما كان لنوح مع
قومه ؛ ثم إبراهيم ؛ وإسحاق ؛ ويعقوب ؛ والأسباط ؛ وعيسى ؛
وأيوب ؛ وموسى ؛ وهارون ؛ وغيرهم من النبيين صلوات الله عليهم
أجمعين . وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلى أهلها
ولا اختلفوا إليه . فتعلم منه أنه ما علم ذلك إلا بوحي الله إليه وإطلاعه
عليه ، وهي أخبار كثيرة ، لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله عز
وجل) (٢) .

أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ هذا القرآن مصدقاً لأصل التوراة
والانجيل في العقائد وجملة أصول الدين ؛ ورقياً يشهد لأصليهما بالصحة
والثبات ، قبل أن يمتد إليهما تحريف الغالين الذين اشتروا بآيات الله ثمناً
قليلاً . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من
الكتاب ومهيماً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله واتبع أهواءهم عما
جاءك من الحق ﴾ (٣) .

(١) سورة يونس : ١٦ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) سورة المائدة : ٤٨ . وانظر تفسيرها في روح المعاني ج ٦ ص ١٣٥ - ١٣٦ . وانظر
معنى (مصدقاً ..) فيه ج ١ ص ٢٢٣ . وانظر حاشية الجمل على الجلالين ج ٢
ص ٢٩٦ وتفسير أبي السعود ج ٢ ص ٣٣ ، وراجع كتابنا : نبوة محمد ﷺ في
القرآن ص ٢٩١ - ٢٩٦ .

وبين شاعر الإسلام الأول حسان بن ثابت رضي الله عنه أن القرآن شاهد ومصديق لمحمد ﷺ فقال :

إن الكتاب مُهيمَنَ لنبينا والحقُّ يعرفه ذوو الألباب

وقد نبه الله إلى عدم معرفة محمد ﷺ شيئاً من تلك الأنبياء ، وامتن عليه بإيحائه القرآن الذي حواها ، إذ لم تفرح تلك القصص قبله سَمِعَ رسول الله ، ولم يستشرفها ولم يلق إلى تحصيلها بالأ^(١) ، حتى أنزل عليه فيها ما أنزل . قال تعالى في تصدير قصة يوسف عليه السلام :

﴿ نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنُ ، وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾^(٢) .

قال الألويسي : (والتعبيرُ عن عدمِ العلمِ بالغفلةِ لإجلالِ شأنِ النبي ﷺ)^(٣) .

وقال تعالى في آخر السورة : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةً لأولي الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾^(٤) .

لا جرم أن تلك الأنبياء الغيبية الدافقة على لسان النبي الأمي دليل بالغ على نبوته وتلقيه عن علام الغيوب .

كفاك بالعلمِ في الأميِّ معجزةً في الجاهلية والتأديب في اليُتم

(١) واستعرف شاسع البون بين قصص القرآن وقصص التوراة والانجيل في الفصل الثالث إن شاء الله .

(٢) سورة يوسف : ٣ .

(٣) روح المعاني : ج ١٢ ص ١٥٨ .

(٤) سورة يوسف : ١١١ .

ب - الإخبار عن غيب الحاضر في القرآن :

ومن الاخبار عن الغيب الحاضر كشف حقيقة المنافقين وإبراز دخيلتهم ، وإزاحة الستار عن خفايا نفوسهم الخبيثة اللثيمة . فقد ابتنى نفر منهم مسجداً بجانب مسجد قُباء ، زعموا أنهم بنوه للصلاة وإيواء مساكين المسلمين ، ودَعَوْا رسولَ الله للصلاة فيه .

ففضَحَ اللهُ مؤامراتهم وعَرَّفَ المؤمنينَ بخبيثِ أغراضهم ، إذ أنزل على نبيه : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراً وكُفراً ونفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ الله ورسولَه من قَبْلُ ، وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١) .

وفي سورة التوبة آياتٌ كثيرةٌ أماطت اللثام عن وجوه النفاق ، وقد أنزل اللهُ فيهم خصيصاً السورة الفاضحة التي ذكرتهم بأوصافهم وأحوالهم وذكرت تحيُّنهم فرص الضُّر بالمسلمين وتوجسهم أن ييطشوا بهم كل حين . تلك الفاضحة هي سورة المنافقين .

وليس الكشف عن سرائر الناس وخبايا نفوسهم مما يرتضي العاقل أن يبتَّ فيه بحكم ظني ؛ خاصة فيما يتصل بأصحابه وأنصاره . والعاقل من يأبى أن يرحم بالغيب في هذا المضمار لثلاً ينفر الأصدقاء وينفض الأصحاب ويتألب الأعداء . فالعلم بخبيثة النفس الإنسانية أمر اختص به بارئء النسَم وخالق الأنفس . فهل يسطر أرحم القوم عقلاً الحديث ههنا إلا أن يأتيه اليقين من ربه !؟

(١) سورة التوبة : ١٠٧ - ١٠٨ .

ج - الإخبار عن غيب المستقبل في القرآن :

إن الرجل الكامل العقل السويّ الفكر إذا تنبأ عن حوادث الزمن المستقبل اتخذ من تجاربه الماضية وخبراته السابقة دليلاً يتلمس به معالم المجرى العام للحوادث القادمة ، ثم يحيط أحكامه بكامل التحفظ والحذر فيعلن أنها مجرد توقع وشيك الحصول ، إن ظلت الأمور على سابق نهجها ولم تبد مفاجآت ليست في الحساب . ولكن يستحيل أن يحدد الحكم تحديداً باتاً ويصدره قطعياً ، دون أن تشير إليه أمانة عادية أو ترشد إليه مقدمة علوية خلت ، اللهم إلا أن يكون أحد رجلين : رجل متهور يلقي أقواله جزافاً لا يعبأ أن ينكشف للناس أنه كاذب محتال ، وهذا ديدن العرافين والمنجمين الجهلة السفلة ، والمتزعمين الوقحين المتهورين ، أو هو رجل على يقين من أمره ، اتخذ عند الله عهد النبوة ووعد التأييد والنصر ، فلن يخلف الله عهده ، وتلك سنة أنبياء الله ورسله .

فأي الرجلين ترى محمداً ﷺ ؟ لقد جاءه القرآن بجازم الإخبار عما سيقع بعد عام أو بعد أعوام ؛ وعن بعض ما سيكون إلى أبد الدهر وما لن يكون . وقد ثبت أنه ﷺ لم يتعاط فن العرافة والتنجيم ، ولم يصحب أهله ، وكان ينفر من الدعوى الزائفة ومن أن ينسب إليه ما ليس فيه ؛ خيلاً وغروراً . كما كانت أخلاقه وأحواله على النقيض من أخلاقهم وأحوالهم . فلم يُعرف عنه خلط الصدق بالكذب والصواب بالخطأ ، إنما اشتهر بالصدق والأمانة والعفة والترفع عن الدنيا ﷺ .

وقد كان قاعداً عن طلب علم الغيب أو تكلفه ، بل قد أعلن براءته من علم الغيب ذاتياً ، وقد علمه ذلك ربه بقوله : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من

الخير وما مَسَّنِيَ السوءُ إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴿١﴾ .

ومع أنه أعلن أنه ليس عنده علم ذاتي بالغيب إلا إذا أئده الله باطلاعه عليه ، كما يؤيد رسله عادة بألوان المعجزات . فقد جاءه عفواً من أنباء الغيب ما تعجز صروف الدهر في أحقابه المديدة أن تنقض طرفاً من أنبائه مهما كان يسيراً لأن كلاً من أنبائه حق صراح لا مرد له ، ولم يعول محمد ﷺ في استقائه إلا على الله علام الغيوب ﴿٢﴾ وإنه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴿٣﴾ .

وها نحن نسرد لك بعض النبوءات القرآنية حسب صلتها بالموضوع :

أولاً : اخبار القرآن عن مستقبل الإسلام ورسوله وكتابه :

وله أمثله كثيرة نورد منها .

١ - نجاح الإسلام وبقاؤه : لما كان العرب يقيمون على وثنياتهم بعصبية وعناد ، وكان المسلمون في مكة قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم ، فإن المرء ليتوقع أن تثور عليهم حمية الملوك في الجزيرة ومن حولها من أصحاب الديانات الأخرى فيداهمونهم في عقر دارهم فيقتلون نبيهم ويستأصلون كتابه فتندرس معالم دينهم إلى الأبد . فإنه لا ناصر لنبيه عن الخلق فإن أهله قد خذلوه وتمالؤوا عليه . وعلى الرغم من هذا فقد وردت نبوءات قرآنية تعلن عن جهة القطع واليقين بأن

(١) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٢) سورة فصلت : ٤١ - ٤٢ . وانظر النبأ العظيم ص ٣٣ - ٣٤ ومناهل العرفان ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . وراجع بحثنا : الرسول يبرأ من علم الغيب إلا بالوحي « نبوة محمد ص ٢٧٤ - ٢٧٩ » .

هذا الدين سيبقى ، وأن الله قد ضمن له النجاح الباهر والمكث في الإنسانية إلى يوم الدين .

قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأما الزَّبْدُ فيذهبُ جُفَاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ ﴾ (١) .

إن الله تبارك وتعالى شبّه في هذه الآية الباطلَ - وهو كل معتقِدٍ يخالف دين الإسلام - بالغناء الذي يطفو على وجه الماء أو الخبث الذي يعلو وجه المعدن المذاب ، فإنه لا يفيد شيئاً بل يطرح بعيداً . وشبّه جل شأنه دين الإسلام الذي بعث به محمداً ﷺ بالماء أو المعادن الثمينة ، فإنها غاية في النفع والإفادة فتحفظ وتبقى . وكذلك عقائد المشركين ستحسر وتضمحل وستعلو راية الإسلام ، فإنه الحق ، والحق ثابت باق على الدهر (٢) .

لقد ضربَ اللهُ مثلاً لكلمة الإيمان يعبر عن رسوخها وبقائها ومثلاً لعقيدة الكفر والزور ينيء بمحقها وتلاشيها ، فقال في سورة إبراهيم : ﴿ ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون ، ومثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يُثبِتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعلُ اللهُ ما يشاء ﴾ (٣) .

ألم تر أن هذه الآيات آيات مكية من سورة مكية ؟ أو تذكر حال

(١) سورة الرعد : ١٧ .

(٢) فتح القدير للشوكاني : ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦ وتفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٠٨ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٧ .

رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم في مكة ؟ كان مع أتباعه المؤمنين مضطهداً مزعجاً ، لم يذق للراحة طعماً ثلاث عشرة سنة . احتمل من ضروب المشقات وفنون العنت ما لا طاقة لبشر به ، يناله وينال أصحابه مرُّ الأذى ثم يُقَاطَعُ وعشيرته اقتصادياً واجتماعياً ويُحَاصِرُونَ في شعب من شعاب مكة أمداً غير يسير . وتحاكُّ في الظلام مؤامرات لنفيه وقتله . فهل يلمح العاقل البصير في تضاعيف ليل حالك - امتد ثلاث عشرة سنة - بصيص أملٍ أو شعاعٍ رجاءٍ يصبح يتنفس فيه المظلومون وترتفع أصواتهم وتتصر دعوتهم وتعز نفوسهم ؟ وان المصلح العاقل إذا انقدحت في نفسه بارقة أمل بانتصار دعوته على الرغم من تخلف الظروف ومصادمة الحوادث فإنه لا يملك أن يقلب الأمل حكماً قاطعاً يعلنه على مسامع الملأ ، فكيف يجعله ركناً في كتاب يُتلى ودستور يخلد !؟ فإنه بذلك يثير حنق القوم ويؤجج سخطهم ويكثير الأعداء ويؤلب عليه القرباء والبعداء . وكيف يجترىء على جعل عقيدتهم غناء سيذهب جفاءً وشجرة خبيثة تُستأصل من فوق الأرض لا تقر عليها . ويعلن معها بجرأة قوية خارقة أن دعوته هي الماء السلسبيل الذي يروي والمعدن النفيس الذي ينفع ويبقى ؛ والشجرة الطيبة الراسخة الجذور السامقة الأغصان في السماء اليانعة الثمار في كل حين . وهي خالدة على مر الزمان باقية ما تتابع الجديدان . . أيعمد إلى هذا الاستفزاز داعية وحيد شريد وقد كشرت الذئاب عن الأنياب . . ؟؟؟! اللهم إلا أن يكون ذلك أمراً آهياً قد ألقى إليه من عند الله .

٢ - انتصار الإسلام على الرغم من ضعف الرسول وقوة عدوه :

تحدثنا السيرة المباركة أن رسول الله ﷺ قد بذل قصارى جهده في تبليغ رسالة الله تعالى . فكان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويتبعوه فيتخوفون أن يستثير اتباعهم الدين الجديد - المخالف لأديان الجزيرة وما

حولها - حفيظة الأتوام فيستأصلونهم ، وقد أجابهم الله عن ذلك : ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً تُجبي إليه ثمرات كل شيءٍ رزقاً من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (١) .

فنبههم تبارك وتعالى إلى أن الذي حفظكم قبل وحماكم في هذا الحرم ويسر أرزاقكم وأقواتكم مع أنكم على الشرك والجهل هو القادر إن اهتديتم بهديه أن يديم حمايتكم ويمدكم بأسباب القوة والمنعة والنصر والسيادة .

وكان يبشرهم بانتصار هذا الدين وانحسار كافة الأديان أمامه ، فله الغلبة والعزة على أكاسرة الفرس وأباطرة الروم وعلى جميع المخالفين . قال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ يريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٣) .

فالإعجاز العظيم أن يقوم رجل وحيد فريد لا ناصر له من الناس بدعوة جديدة ، يعلن فيها أن دينه هو المنتصر العزيز صاحب الصولة ، وأن ما عداه مآله الانهيار . ثم تجده في فترة وجيزة يغلب بدعوته ملوك الجزيرة العربية والمتحكمين فيها حتى دخل العرب في دين الله أفواجا ، ثم تغلب دعوته المملكتين العظيمتين في الأرض فارس والروم حتى انتشر الإسلام في معظم أرجاء العالم القديم من جبال الصين شرقاً إلى حدود

(١) سورة القصص : ٥٧ وانظر روح المعاني ج ٢٠ ص ٨٥ .

(٢) سورة الفتح : ٢٨ .

(٣) سورة التوبة : ٣٢ و ٣٣ وانظر سورة الصف : ٩ .

فرنسا غرباً . وهكذا تحقق صدق خبره على أحسن وجه وأكمل صورة .
فهل لهذه الأخبار مصدر إلا الله تعالى ؛ عالم الغيب والشهادة الكبير
المتعال .؟؟

ولا نقول إنه نبي لأن دعوته قامت ودولته اتسعت حتى هيمنت على
العالم القديم كله ، ولكن لحصول ذلك مع ضعف شوكته ووحدته في
دعوته ، وأنه لم يكتف أن أظهر دينه بالحجة والمنطق حتى جعل لدعوته
النصر ولأهلها العز وللمخالفين الهزيمة رغم الأنوف . فأورد نبأه منذ مطلع
بعثته على وجه يغيظ ويغضب ، ويحمل العدو على الممانعة والتأهب
للمغالبة فيُعد للأمر عدته . وامرؤ حازم عاقل مدبر لا يُنبه عدوه إلى الخطر
الداهم عليه بهذا الاسلوب السافر ، وهذا يدل على أن الأمر فوق تصور
البشر وتدبيرهم ، وأنه تدبير العزيز الحكيم (١) .

لقد فهم هذا من العقلاء من فهمه فانتفع منه . فهذا سهيل بن عمرو
أحد أعداء رسول الله ﷺ في جاهليته ومن كبار عقلاء قريش وخطبائها ومن
أصحاب الرأي الحصيف فيها وهو المفاوض عنهم يوم الحديبية وله تلك
المناظرة والمجادلة ، أسلم بعد فتح مكة . فلما توفي رسول الله ﷺ
وارتدت العرب ، جال أهل مكة جولة وهموا بالردة ، فاستخفى عتاب بن
أسيد عامل رسول الله ﷺ على مكة (٢) . فقام سهيل بن عمرو فيهم خطيباً
ونهاهم عن ذلك فقالوا : (محمد قد مات والناس قد رجعوا عن دينه)
فقال لهم سهيل : (إن يكن محمد قد مات فإن الله لم يمت . وقد علمتم
أنني أكثركم قتباً في برّ وجارية في بحر ، فأقرّوا أميركم ، وأنا ضامن إن
لم يتم هذا الأمر أن أردّها عليكم جذعة (٣)) ، وإن كنت أعلم أن هذا الدين

(١) انظر تثبيت دلائل النبوة ٣١٤ وما بعدها .

(٢) العامل على مكة : الوالي عليها .

(٣) جذعة : قوية فتية ، يريد سيادة قريش .

سيمتد من طلوع الشمس إلى غروبها !

قالوا : ومن أين علمت !

قال : إني رأيت رجلاً واحداً وحيداً لا مال له ولا عز ، قام في ظل هذا البيت فقال : إني رسول الله ، واني سأظهر ، فكنا بين ضاحك وهازل وراجم ومستهجر ، فما زال أمره ينمي ويصعد حتى دنا له (١) طوعاً وكرهاً . والله لو كان من عند غير الله لكان كالكسرة في يدي أي فتى من فتيان قريش . وإن هذا ؛ وأشار إلى أبي سفيان ؛ ليعلم من هذا الأمر مثل ما أعلم ، ولكن قد ختم على قلبه حسد بني عبد المطلب) .

قال القاضي عبد الجبار : (فقد اعتبر العلماء وأهل التحصيل ، فما وجدوا أحداً جاء مجيء نبينا محمد ﷺ في الوحدة والفقر والفاقة ومنافرة الأمم كلها ومعاداتها . حتى ما اعتصم بمخلوق ولا صوب ملكاً ولا جباراً كان في زمانه . . ثم صار أمره في القهر والغلبة ما صار أمره إليه . فإن ظاهر الأمر وموجب التدبير والعقل أن ذلك لا يتم ولا يكون ، وأنه هو المغلوب المقهور المقنتول إلا أن يكون من قبل الله الذي لا يغلبه شيء . فإن أمره ﷺ كان كريشة دفعت الجبال فسيرتها وطيرتها ، أو كزجاجة وُضعت على الجبال فطحشتها وسوتها بالأرض . فتأمل هذه الآية العظيمة ، وكل آياته عظام) (٢) .

٣ - عجز البشر الأبدي عن معارضة القرآن :

أعلن محمد بن عبد الله أعظم الأمور وأجلها ، أعلن النبوة والعصمة ، وأن الله اصطفاه على العالمين وأوحى إليه ، وأرسله بدين

(١) دناله : خضعنا له .

(٢) تثبت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار أحمد الهمداني المتوفى سنة ٤٥١ هـ ص ٣١٤-

٣١٨ - طبع دار العربية - بيروت .

الحق وجعل رسالته حجة على مَنْ أدركه ومن جاء بعده إلى يوم الدين ، وأنه مُحَكَّمٌ في الأنفس والأموال ، وأن الواجب على كل عاقل طاعته والانقياد لأمره ورسالته ، فمن حادّه استأهل العقاب الدنيوي في دمه وماله ، وحلّ عليه الخزي والغضب من الله في الدنيا والآخرة . وأعلن رسول الله ﷺ أن أقوى وأبلغ حججه على هذا الأمر العظيم والتكليف الجسيم ، هذا القرآن المجيد ، فإن أحداً من بلغاء معاصريه ، لا بل إن جميع معاصريه لا يقدرّون على الإتيان بمثله ، بل إن جميع أهل الثقلين إنسهم وجنهم لو اجتمعوا على الإتيان بمثله في عصره أو بعده إلى آخر الدهر فلن يأتوا بمثله أبداً ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) .

بل العجز ملازم للفصحاء كلهم عن سورة من مثله ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبيدنا فاتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٢) .

أرأيت كيف علّق أمره وأمر دعوته كلها على القرآن بتحدٍ جريءٍ مهيجٍ !! هل يصنع هذا ، دونما تأييدٍ إلهي ؛ أي عاقل فضلاً عن أرجح الناس عقلاً ورزاقاً وحلماً؟! وهل يأمن إلا بتأييد الله مغبة هذا التحدي ، الذي يغيب العرب ويغضبهم ويبعث فيهم الحمية الأدبية مضطربة عارمة ؛ عصبيةً لأبائهم وانتصاراً للآلهة والأديان ؛ وتخلصاً من عار الخزي والهزيمة والخسران . .؟! .

بل كيف يخاطبهم مخبراً عن غياب الحاضر والمستقبل ﴿ فإن لم

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢١ - ٢٢ راجع ص ١١٦ - ١٢٣ .

تفعلوا ولن تفعلوا ﴿ إلى أبد الدهر ، وأن الجن والإنس لا يأتون بمثله ولو اجتمعوا له في أي عصر وإلى الأبد .

كيف يخاطبهم بهذا وهو يعلم أن الفصاحة والبلاغة ماثورة فيهم وغالبة على رجالهم ونسائهم ، وقد تعلمها هو منهم . . .؟! .

وكيف السبيل إلى اليقين بعجزهم إلى أبد الدهر إلا أن يكون نبؤه إلهياً ؛ وقرآنه قولاً ربانياً ؛ يُعجز الخلائق لأنه قول خالقهم أنزله لإعجازهم وهدايتهم . وفي هذا أخبار غيبية كثيرة ، فإنه قال لكل فرد من الإنس والجن إلى قيام الساعة : إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن ، وكل واحد منكم عاجز عنه منفرداً أو مستعيناً بالخلائق بأسرها . وأنت ترى أنهم ما جاؤوا بمثله مع عنف حميتهم وشدة حرصهم عليه . وقد انقضى الآن على تنزله أربعة عشر قرناً ، ولم يتفوه أحد بما يعارضه ، وهذا مصداق نبئه ويقين خبره . فقل : صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين . والحمد لله رب العالمين^(١) .

وقد أوضح العلامة ابن كثير هذا المعنى فقال في تفسير الآية :

(﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ولن : لنفي التأييد في المستقبل ، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خيراً جازماً قاطعاً ؛ مُقَدِّماً غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يُعَارِض بمثله أجد الأبدن ودهر الدهرن . وكذلك وقع الأمر ، لم يُعَارِض من لُدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ؛ وأنى يتأتى ذلك لأحد ؛ والقرآن كلام الله خالق كل شيء !! وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين . ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى : ﴿ الر ، كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت

(١) تثبت دلائل النبوة : ص ٨٥ وغيرها ، ومناهل العرفان ج٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

من لُدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ .

ثانياً : إخبار القرآن عن مستقبل المسلمين :

لقد وردت في القرآن نبوءات تبين مستقبل المسلمين ، نقتبس منها :

١ - إخباره في مكة عن انتصار المؤمنين وهزيمة المشركين :

توعّد رسول الله ﷺ في مكة قريشاً بهزيمتهم والنصر عليهم ، فاستخفوا بوعيده وهزؤوا منه . فكيف يأمل محمد ؛ ومعظم أتباعه يومئذ من الفقراء والعبيد الضعفاء ؛ أن يقهر أشاوس قريش الأقوياء الأغنياء ، والناس معهم والنجدة والبأس بجانبهم !؟ فتلا عليهم ما بيّنه الله في سورة القمر من مصائر الأقسام السابقين : قوم نوح ؛ وعاد قوم سيدنا هود ؛ وشمود قوم سيدنا صالح ؛ وقوم سيدنا لوط ؛ والطاغية فرعون وجنده ؛ فقد أهلكهم الله جميعاً وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصر رسله وأتباعهم ، فما بالك بقريش وليسوا أشدّ منهم قوةً ولا أكثر بأساً !؟

وأعقب تعالى ذلك العرض بقوله : ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ !؟ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ !؟ سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٢) .

وإذا كان الله تعالى قد أباد أولئك الطغاة أمة بعد أمة ؛ فما الذي يحول بينكم أيها المشركون وبين بطش الله إن أراد أن يبطش بكم ؟ فهل كفاركم أعداء محمد خير من أولئك الذين أهلكهم الله لتكذيبهم الرسل

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج ١ ص ٦٠ والآية من سورة هود : ١ وراجع ص ١٢٧ - ١٥٠ .

(٢) سورة القمر : ٤٣ - ٤٥ .

وكفرهم بكتب الله ؟ أم أنكم حظيتم ببراءة من الله تضمن أن لا ينالكم منه عذاب ولا نكال ؟

ثم التفت عن الخطاب إلى الغيبة يحكي عنهم قولاً منكرًا : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أم يزعمون أن جمعهم المتناصر يغني عنهم شيئاً إن أرادهم الله بسوء !؟ كلا ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ليتفرقن شملهم ولينكسرن جمعهم لا محالة . ولا يغيبن عن بالك أن الجهاد إنما شرع في السنة الثانية من الهجرة ، فما نزول هذا النبأ الإلهي في مكة إلا برهان دامغ إذ عاين العباد تحققه كما أخبر بعد حين ! روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن هذه الآيات قد نزلت على محمد ﷺ بمكة وهي جارية تلعب^(١) .

لقد أنزل الله التنبؤ بهزيمة جموع المشركين ، في وقت لا مجال فيه للتفكير في الحرب ؛ فضلاً عن انتصار الضعاف المسلمين على حشود أصحاب الشوكة المشركين . روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم ، إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك . فخرج وهو يشب في الدرع وهو يقول :

(١) رواه البخاري في تفسير سورة القمر مختصراً ٨ : ٦١٩ رقم ٤٨٧٦ وفي فضائل القرآن

مطولاً ٩ : ٣٨ رقم ٤٩٩٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٦ .

« سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »^(١) .

(فهزمت جموع المشركين يوم بدر ، وكانت العقبي له كما أخبر وفصل ، وقد كان في ظاهر الرأي والحزم وموجب التدبير أن تكون العقبي لهم لا له ، وهم الغالبون لا هو ، لأنهم واليهود والنصارى وتلك القبائل يد واحدة عليه وفي العداوة له . والكثرة والثروة والبأس والنجدة والكرام والسلاح معهم لا معه ، فلن يغلبهم إلا أن يكون من قبل الله ، ورسولاً لله ، كما أخبر)^(٢) .

قلت : إن الشائع بين الناس في زماننا أن الرسول ﷺ لم يجابه المشركين يوم بدر بالسلاح بنفسه ، وأنه اكتفى بالمكث بالعريش الذي بني له يسأل الله النصر . لقد أثارت رواية ابن هشام في السيرة هذا الوهم في الأذهان . وأرى أن الصحيح الذي يدل عليه الجمع بين كافة الروايات : أنه ﷺ فعل ذلك قبل بدء المعركة ، فلما بدأت كان يثب بالدرع في مقدمة المسلمين وهو أقربهم إلى العدو ، وكان شجعان الصحابة أمثال سيدنا علي رضي الله عنه يلوذون به ويحتمون . هذا ما أفاده الحديثان المذكوران آنفاً ؛ وحديث علي رضي الله عنه الذي رواه أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي^(٣) .

٢ - إخباره عن تغلب الروم حين دحرهم الفرس في هزيمة ساحقة :

غلب كسرى ملك الفرس واسمه سابور ذو الاكتاف جيوش الروم حتى استولى على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد

(١) رواه البخاري كتاب التفسير ٨ : ٦١٩ رقم ٤٨٧٧ والنسائي في غير موضع .

(٢) بتصرف يسير من تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار - ص ٣٠٣ .

(٣) راجع نبوة محمد ﷺ في القرآن : شجاعته ص ١٢٦ .

الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم إلى التراجع حتى ألجأه إلى القسطنطينية وذلك أيام اشتغال رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام في مكة المكرمة . فألقى ذلك انطباعاً مختلفاً لدى كل من المسلمين والمشركون . وروى القصة الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير الطبري بألفاظ مفادها : أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم على الشرك ، وقد حصل هذا فكان داعية لشماتة المشركين وتقوية أملهم بالقضاء على الإسلام والمسلمين . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بضعِ سنينَ ، لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ . بنصرِ الله ينصرُ مَنْ يشاءُ وهو العزيزُ الرحيمُ . وعدَّ اللهُ لا يُخلفُ اللهُ وعدهُ ولكنْ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ﴾ (١) .

فقال المشركون لأبي بكر رضي الله عنه : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ، يزعم أن الروم تغلب فارس . .

قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك (٢) ؟ ثم استشار أبو بكر رسول الله فأقره على ذلك ، على أن يجعل الأجل إلى بضع سنين ، فتم ذلك .

قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر وقيل : انه ما بين الواحد إلى التسعة . فانتصر الروم الكتابيون على الفرس المجوس يوم وقعة بدر . وهو قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والسدي وغيرهم . وقد روى الترمذي وابن جرير بهذا حديثاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١) سورة الروم : ١ - ٦ .

(٢) نخاطرك : نراهنك ، والخطر : الرهن .

وهكذا تم انتصار الروم بعد نحو سبع سنين من نزول الآيات الكريمة . وأخرج الترمذي عن أبي سعيد وحسنه : أنه لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأخذ أبو بكر رضي الله عنه الخطر من ورثة أبي « بن خلف » وجاء به إلى النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « تصدق به » .

وقد فرح المؤمنون بإحراز الروم النصر لما في ذلك من الآيات الباهرات والشاهدات بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل ؛ ولما فيه من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير . ولقد ظهرت هذه الآيات الخارقة لأولي البصائر فأسلم ناس كثير . وهذا نبأ صحيح ثابت لدى أهل العلم .

أما قوله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ فقد اختلف المفسرون في المراد منه على أقوال :

أحدها : يفرح المؤمنون يوم يغلب الرومُ الفرس بنصر الله يعني بتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ؛ وبإغاظة أصحاب الشماتة من كفار مكة وبتقوية فآل المؤمنين بالنصر على المشركين .

وثانيها : نصر الله تعالى هو تحقق صدق القرآن فيما أخبر به من غلبة على فارس . وأرى أن هذا القول راجع للقول الأول ، فهما عندي وجه واحد .

ثالثها : ما دل عليه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نصر الروم على فارس قد وافق يوم بدر ، وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى .

وقد ذهب الألويسي رحمه الله تعالى إلى ترجيح الأول فقال :

(والأول أنسب لقوله تعالى : ﴿ يَنْصُرُ مِنْ يَشَاءُ ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويُغلبه عليه) .

لكني أرى أن ترجيح الألسي للقول الأول بقوله : (ينصر من يشاء) لا رجحان له به ، لأنه عام ويشمل هذا وذاك . فهو متسع للدلالة على انتصار الروم على الفرس وانتصار المؤمنين على المشركين في آن واحد ، إذ لا تمنع بينهما .

أقول وما توفيقى إلا بالله : إن أهل الكتاب والروم خاصة كانوا على تحريف عظيم للإنجيل سيدنا عيسى عليه السلام ، كما أقاموا على اعتقاد فاسد في صفات الله عز وجل وفي وحدانيته خاصة . فلا يكون تغلبهم على الفرس بمجرد نصره إلهياً للمؤمنين . . إنما نصر المؤمنين فيما يحف بغلبتهم من معانٍ وما ينبجم عنه من آثار وذلك بغيب الكافرين وتفاؤل المؤمنين وتحقق صدق خبر كتابهم وصحة دينهم .

ولا ريب بعد هذا أن انتصار المؤمنين في بدر يندرج حتماً تحت قوله : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾^(١) لأنه نصر مادي ومعنوي على جهة الحقيقة المشهودة .

وتتجلى روعة الإعجاز في هذا النص بكشفه حجب الغيوب قبل سنين بما لا يتوصل إليه عقل بشري . . ذلك أن الفرس دولة منيعة وقد اكتسحت من بلاد الروم ذلك الجزء العظيم فألجأت هرقل إلى قسطنطينة وازدادت هيبة وهيمته . وكان انكسار الروم ذريعاً مريعاً لا يتصور العقل أن تقوم لهم قائمة إلا بعد عشرات السنين . وقد اعتمد المشركون على دلالة هذا الواقع فتطاولوا وتفاءلوا وراهنوا .

فلأن يتبأ القرآن بوقوع نقيض ما تدل عليه الظروف والوقائع

(١) يوم : ظرف زمان متعلق بيفرح (بنصر) جار ومجرور متعلق بيفرح أيضاً .

الحاضرة مما هو مستبعد أشد الاستبعاد لدى أهل الخبرة من الناس ، ثم يتحقق خبره بنصر الروم على الفرس مقترناً بنصر الله المؤمنين مع ضعفهم واستكانتهم وشدة شوكة عدوهم ، وهذا في نظر المشركين أشد بعداً من الأول !! فذلك دليل بليغ على أنه نبأ إلهي عظيم ووعد رباني صادق ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

٣ - إخباره عن دخول المسلمين مكة :

وقف المشركون سداً منيعاً دون دخول رسول الله ﷺ والمسلمين مكة عام الحديبية . ولم يقصدوا من دخولها إلا أداء مناسك العمرة . فلما صدتهم قريش ؛ ولم يشأ الرسول والمسلمون أن يُعملوا سيوفهم في حرم الله الآمن ؛ ارتضوا بما اشترطته قريش في عقد صلح الحديبية على الرغم من قسوته وحيفه ، ومن ذلك أن لا يدخلوا العام مكة وأن يعودوا لزيارتها في العام القادم ، مجردين من السلاح إلا السيوف في قرابها فلا سهام ولا رماح ولا دروع . ولكنَّ مَنْ لَهُمْ بِحَمَلِ قَرِيشٍ عَلَىٰ إِنْجَازِ وَعْدِهَا ؛ وَقَدْ أَلْفَوْا مِنْهَا نَكَثَ الْعَهْدِ وَتَقَطَّيعَ الْأَرْحَامِ وَانْتِهَاكَ الْمَحَارِمِ . .؟! وَمَنْ يَكْفُلُ لَهُمْ أَنْ لَا تَغْيِرَ عَلَيْهِمْ قَرِيشٌ فِي مَكَّةَ فَجَاءَةً وَتَغْدِرَ بِهِمْ ؟ وَحَقْدَ قَرِيشٍ وَحِلْفَائِهَا لَمْ يَزَلْ مُتَأَجِّجاً ، فَكَيْفَ السَّبِيلَ إِلَى الْأَمْنِ مِنْهُمْ بِغَيْرِ سِلَاحٍ ؟!

طمأن الله عباده بتنزيل قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (٢) .

(١) سورة الروم : ٦ وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢٧ وروح المعاني ج ٢١ ص ١٥ - ١٩ ومناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ والنبأ العظيم ص ٤١ - ٤٢ وانظر أيضاً تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار ص ٥٩ - ٦٤ .

(٢) سورة الفتح : ٢٨ وانظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠١ والنبأ العظيم ص ٤٠ ومناهل العرفان ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

فأنبأ الله أن تحقق الرؤيا وشيك الوقوع ، وهي التي رآها رسول الله قبل صلح الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فلما كان ذو القعدة من العام التالي سنة سبع بعد الهجرة خرج الرسول ﷺ وأصحابه إلى مكة للعمرة . وقبل أن يصل مكة أبعده السلاح من قسيّ ونبال ورماح إلى بطن يأجج ، وخرج رؤوس الشرك من مكة ؛ لثلا يشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ غيظاً وحنقاً . ودخل المسلمون مكة وليس معهم إلا السيوف في القراب آمنين مطمئنين وقد حلق بعضهم رأسه ، وقصّر البعض الآخر من شعره . ومكثوا ثلاثة أيام أدوا فيها مناسك عمرة القضاء . وتحقق لهم نبأ الله الذي أنزل على رسوله ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟!

ثالثاً : أخبار القرآن عن مستقبل المشركين :

١ - الاخبار بكشف الجذب عنهم وعودهم إلى عتوهم بعده : ومما يثبت إعجاز القرآن في إخباره عن غيوب المستقبل ويكون بالتالي آية على نبوة سيدنا محمد ﷺ ، نبأ هذه الآيات الكريمة ، قال تعالى :

﴿ بل هم في شكٍ يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين . يغشى الناس هذا عذابٌ أليم . ربنا اكشفنا العذابَ إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبين . ثم تولّوا عنه وقالوا مُعلّمٌ مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ (١) .

فقد روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن هذا الدخان سيظهر قبل يوم القيامة . وهو قول مرجوح ، كما يثبت حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

روى مسلم عن مسروق قال : كنا عند عبد الله جلوساً ، وهو

(١) سورة الدخان : ٩ - ١٦ .

مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصًّا عند أبواب كِنْدَةَ يقصُّ ويزعمُ أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ؛ ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . فقال عبد الله وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس اتقوا الله ، مَنْ علِمَ منكم شيئاً ، فليقل بما يعلم ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عزَّ وجلَّ قال لنبيه ﷺ : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين ﴾^(١) إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إديباراً فقال : « اللهم سبعٌ كسبع يوسف » قال : فأخذتهم سنة حَصَّت^(٢) كل شيء ، حتى أكلوا الجلودَ والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادعُ الله لهم . قال الله عز وجل : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . . . ﴾ - إلى قوله - : ﴿ إنكم عائدون ﴾ قال : أفيكشف عذاب الآخرة !؟ ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فالبطشة الكبرى يوم بدر . وقد مضت آية الدخان والبطشة والالزام وآية الروم^(٣) .

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) حصت : استأصلت .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب صفات المنافقين - باب الدخان - حديث / ٢٧٩٨ ج ٤ ص ٢١٥٥ - ٢١٥٦ . ورواه الإمام البخاري -

صحيح البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة الدخان - ج ٦ ص ٣٩ - ٤١ .
وتفسير سورة الروم - ج ٦ ص ٩ - ٢٠ كما رواه بنحوه في كتاب التفسير - تفسير سورة يوسف - باب وراودته التي هو في بيتها ج ٥ ص ٢١٧ ، وفي كتاب الاستسقاء - باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ج ٢ ص ١٥ ، وباب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ج ٢ ص ١٩ . ورواه الإمام الترمذي بنحوه وقال : وهذا حديث حسن صحيح جامع الترمذي - كتاب التفسير - باب ومن سورة الدخان - ج ٥ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ - حديث ٣٢٥٤ .

رواه البخاري ومسلم واللفظ له ، وللحديث عندهما روايات متقاربة . قال ابن كثير في تفسيره : (وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه - على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى - جماعة من السلف : كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير ^(١) .

وفي بعض ألفاظ البخاري عن مسروق قال : قال عبد الله : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . فأنزل الله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ . قال : فأتى رسول الله ﷺ : فقيل : يا رسول الله استسقى الله لمضر ، فإنها قد هلكت . قال : لمضر؟! إنك لجريء ، فاستسقى فسُقوا ، فنزلت : ﴿ إنكم عائدون ﴾ . فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قال ، يعني يوم بدر ^(٢) .

= وقول ابن مسعود : « أفيكشف عذاب الآخرة؟! » استفهام انكار على من يزعم : أن الدخان يكون يوم القيامة ، فإنه زعم لا أساس له من الصحة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ ومعلوم أن كشف العذاب ثم عودهم إلى غيرهم لا يكون في الآخرة ، إنما هو في الدنيا .

وآية (اللزام) : قوله تعالى : ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ : عذاباً لازماً . وهو ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر ، يوم البطشة الكبرى .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير - الدخان - باب (يغشى الناس هذا عذاب أليم) - ج

٦ - ص ٣٩ .

وفي رواية أخرى عند البخاري أيضاً عن ابن مسعود أيضاً :

(. . فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، قالوا : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . فقيل له : إن كشفنا عنهم عادوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا ، فانتقم الله منهم يوم بدر . فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ إلى قوله جل ذكره ﴿ إنا منتقمون ﴾ (١) .

لقد فضح الله المشركين في تلك الآيات أنهم في شك عظيم من أمر ربهم ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ وأنهم قدموا الهزاء والعبث في موضع الجد والتعقل . فهم لا يقولون ما يقولونه عن الله تبارك وتعالى عن اعتقاد ويقين ، إنما هو خبث وهزاء ولعب . لقد جاءهم الحق فلم يَلْقَ منهم إلا الشك والإمتراء . ثم التفت عن الحديث عنهم لفرط عنادهم وعدم انتفاعهم إلى خطاب رسول الله ﷺ : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ فرتب مجيء الدخان على كونهم بالله وآياته يشكون ويلعبون ، فإن هذا يستوجبه حتماً . فلا تستبعده أو تستغربه ، وكن في مثل هذا الحال منتظراً له . وقد أصابهم لأنهم يستحقونه فهو لهم متوقع مرتقب . وأراد بالدخان الجذب والمجاعة . فإن الجائع جوعاً شديداً يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان - كما ذكره ابن مسعود - وإنما يتوهمه الرائي لشدة ضعفه وضعف بصره ، فهو إذن مجاز من باب ذكر المسبب وهو مشاهدة الدخان وإرادة السبب وهو الجذب والجوع . وقرينة التجوز فيه حالية كما علمتها من خبر ابن مسعود رضي الله عنه . فقد غشي هذا العذاب كفار قريش فعلاً ، فنزلت الآيات تكشف هول الأمر وتحمل ذوي الألباب على

(١) صحيح البخاري - كتاب التفسير - الدخان - باب قوله تعالى : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ - ج ٦ ص ٤٠ .

الاتعاض والاعتبار ، غير أن المشركين لم يعتبروا به . فلو كانوا أهلاً للتعقل والنظر لاهتدوا بما وافاهم به الرسول العظيم ﷺ من دواعي التذکر وهو أعظم دلالة من هذا العذاب . فقد أظهر لهم مناهج الحق مؤيدة بآيات ومعجزات تخر لها صم الجبال ، فأعرضوا يتهمونه بالجنون تارة والتعلم تارة أخرى . لقد كشف الله عنهم العذاب وأنعم عليهم بأسباب الرفاه ، وأخبر سلفاً أنهم سيعودون إلى غيهم وضلالهم ، ولن يهملهم الله ، وإنما سينتقم منهم ببطشة هائلة مريعة تنالهم لا محالة . وقد تحقق صدق خبره فأصابهم وعيده يوم بدر . فمن أصدق من الله حديثاً؟! (١) .

ظهر لك آناً أن النص القرآني قد احتوى نبأين عن الغيب المستقبل :

أولهما : أن الله تبارك وتعالى أخبر بعد كشف العذاب عنهم أنه لم يحصل لهم اتعاض واهتداء وأنهم سيعودون في الرخاء إلى عتوهم وطغيانهم .

ثانيهما : أن الله سينتقم منهم لانغماسهم في الضلال والمحادثة ثانية ببطش مفزع مفرج ، وقد تم يوم بدر ، وهذا ما دلّ له ما ورد في حديث البخاري عن ابن مسعود : (فاستسقى فسقوا ، فنزلت ﴿ إنكم عائدون ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قال : يعني يوم بدر) .

لقد ذهب العلامة عبد العظيم الزرقاني والدكتور محمد عبد الله دراز

(١) روح المعاني : ج ٢٥ ص ١٠٧ - ١١٠ وابن كثير ج ٤ ص ١٣٨ - ١٤٠ والجامع لأحكام القرآن - للقرطبي ج ١٦ ص ١٣٠ - ١٣٤ وانظر فتح الباري ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٥ .

رحمهما الله إلى أن في النص من أنباء الغيب - إضافة إلى ما ذكرناه - ما يلي :

١ - أن الجذب سيغشاهم حتى يرى أحدهم بسببه دخاناً في السماء .

٢ - أنهم سيتضرعون إلى الله حين تحل الأزمة بهم .

٣ - ان الله سيكشف عنهم هذا العذاب^(١) .

وعندي أن النص القرآني لا ينبغيء عن تلك الإضافة فإنه نزل بعد حصول الأمور الثلاثة المذكورة ، وأن قولهما ذاك خطأ ؛ ولم يحملهما عليه الا التسرع - جنبنا الله الزلل - فإن الحديث ينفي قولهما نفياً واضحاً فارجع إليه وتأمل !!

٢ - الاخبار في مكة بأن الرسول سيصير في عزِّ وجند المشركين في خزي وذل :

قام رسول الله ﷺ في مكة بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى تلبية لأمره تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢) فجمع قريشاً ووعظهم وحضهم على اتباع دين الله ومفارقة دين آبائهم الباطل ورغبتهم بنعيم الله إن أجابوا ، وحذرهم من النار ومن عاجل العقاب إن أبوا ، فإن الله قادر أن يبعث عليهم جنداً من جنوده ينصرون دينه ويحاربونهم مع رسوله . فغضبوا ونفروا ومشوا إلى أبي طالب يشكون ؛ ويتوعدون بأنهم أكثر جنداً وأقوى شوكة وأعز نفراً ، وتواصوا بالمتابرة على الغيِّ مكابرة وعناداً . حكى الله ذلك عنهم بقوله :

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ والنبأ العظيم ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء : ٢١٤ .

﴿وعجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم وقال الكافرون : هذا ساحرٌ كَذَّابٌ . أ جعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عَجَابٌ . وانطلق المَلَأُ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُرادُ﴾ (١) .

وتوعدهم مغترين بكثرتهم وعنادهم ، واجترؤوا عليه لما رأوا ضعفه ووحده ، فاستخفوا بشأنه ووثقوا من التغلب عليه . وتوعدهم وهو في ذلك الضعف المكشوف المعروف ، فأنزل الله تعالى : ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٢) .

فظهر في هذا الموقف آيتان عظيمتان :

أولاهما : أن رسول الله ﷺ بوحدته وضعفه حين كان في مكة رهين قبضتهم وأسير أيديهم لم يجامل القوم فيما يخالف دين الله تعالى . فكل عاقل سمع أخباره علم يقيناً أنه ﷺ ساعة أعلن النبوة وبلغ الرسالة أكفر كل من خالفه ، فآثارهم وأغاظهم ، وهم القوم الأجلاف الذين لا يصبرون على ضيم ولا ينامون على وتر .

وثنى عليهم القرآن نبأ يُطير اللبَّ ويُطيش الصواب ، فقد أخبر أن الرسول سيصير في جماعات وعساكر وأنه سيظهر عليهم ويقتل أعداءه ومخالفيه ويذلهم فتكون العقبي له والصلوة لجمعه ودينه . ولم يكن ذلك وعيداً في ساعة سخط فيذهب أدراج الرياح ، أو تطويه أمواج النسيان إذا تناول عليه الأمد ، إنما نزل قرآناً يتلوه الرسول وصحبه على مسامع القوم صباح مساء .

فبالله عليك هل يصنعُ هذا إلا رسول اطمأن قلبه إلى وعد الله ووثق بنصره؟؟ ﴿إنا لنتصر رسلاً والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد﴾ (٣) .

(١) سورة ص : ٤ - ٦ .

(٢) سورة غافر : ٥١ .

(٣) سورة ص : ١١ .

قال القاضي عبد الجبار رحمه الله : (فتأمل الأمر في ذلك تجده عظيماً ، لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب ، وقبل الجماعة وفي حال الضعف ، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم ، فبعثهم على قتله واستئصاله ، وهيجهم على بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه ، وهذا لا يقع من عاقل إلا أن يكون واثقاً بالله ؛ ساكناً إلى تنزيله ووحيه . وإذا وقَّيت النظرَ حقه لم تجد لرسول الله ﷺ في إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين نظيراً في الضعف والوحدة ؛ ومن خالف قومه تلك المخالفة وهاجهم وأسخطهم ذلك الاسخاط . وأخبرهم بما سيكون من قوته وغلبة الجبابرة من الأمم قبل أن يكون ذلك ، أو يكون له إمارة تقتضي ، فصارت الأمور في القوة والظهور إلى ما قال ، فابتدأ ابتداء الشمس وامتد امتداد النهار)^(١) .

ثانيتها: إن رحى الزمن قد دارت فحققت جميع ما أنبأ به كتاب الله ، حتى ظهر صدق كافة تعابيره في خبره عن هزيمة المشركين وانحجار دينهم وتبديد شملهم . وقد وقى الله رسوله شرهم وكيدهم وقصر عنه أيديهم . فتأمل أقواله تبارك وتعالى في مكة : ﴿ جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب ﴾^(٢) ﴿ أم يقولون نحن جميعٌ منتصرٌ . سيُهزمُ الجمعُ ويولون الدبر ﴾^(٣) ﴿ فقد كذبتُم فسوف يكونُ لزاماً ﴾^(٤) ﴿ يومَ نبشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمون ﴾^(٥) .

تجد أن هذا الوعيد قد حاق بهم يوم بدر يوم البطشة الكبرى ، إذ أذل الله بأيدي المؤمنين وبملائكة من عنده هؤلاء الجبابرة ، حتى قُتل

(١) تثبت دلائل النبوة ص ٨٣ وانظر فيه ص ٣٥٦ - ٣٥٨ . (٤) سورة الفرقان : ٧٧ .

(٢) سورة ص : ١١ . (٥) سورة الدخان : ١٦ .

(٣) سورة القمر : ٤٤ - ٤٥ .

سبعون من صناديدهم وأسر سبعون - كما ثبت في صحيح البخاري - فكان هذا العقاب لازماً لهم لتكذيبهم وإصرارهم على حرب الله ورسوله وقد أحاط بهم كما أخبر الله وأنبأ من قبل في القرآن المجيد .

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : مضى خمس : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام (١) .

٣ - إخبار القرآن عن مصائر عدد من رؤوس الشرك :

إن الله تبارك وتعالى قد أنبأ عن مصائر عدد من عليّة المشركين حادّوا الله ورسوله وصدوا عن الهدى، فكانوا كما أنبأ . ولهذا النموذج أفراد كثيرون ، منهم :

أولاً : أبو لهب عم رسول الله ﷺ وأم جميل زوجة أبي لهب ، فقد نزلت سورة المسد تنبيء عن هلاكه وزوجه على الكفر وأنه لا يغنيه عن هذا المصير الكالج جميع ما اكتسب من مال وولد ووجاهة عند الناس .

قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

أما ولده عتبة فقد افترسه أسد في طريق الشام . وأما أبو لهب نفسه فقد كبه الله وأخزاه بعد هزيمة جيش المشركين يوم بدر - وكان قد تخلف عنهم - ولم يلبث إلا ليالي حتى رماه الله بمرض كالطاعون يسمى العدسة فقتله . ولم يقربه أحد ثلاثة أيام حتى أنتن ، فاستأجروا بعض العبيد فدفنوه . وهكذا مات على الكفر ، كما نفقت زوجته عليه ، فطابق هذا الواقع خبر الغيب عن مستقبلهما أيام كانا بمكة حين سليمان (٢) .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، واللفظ للبخاري من كتاب التفسير - الدخان .

(٢) انظر تفسير البيضاوي وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها .

قال القاضي عبد الجبار رحمه الله : (وهذه غيوب كثيرة لا يكون مثلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا بالزرق ، ولا يتفق لحدائق المنجمين أقل القليل من هذا . ومن عجيب الأمور أنها نزلت بمكة وتلاها رسول الله ﷺ ، وسمعها أبو لهب وجميع أعداء رسول الله ﷺ من قريش والعرب وغيرهم ، وهم أعوان أبي لهب . فهاجهم هذا القول في عداوته ، وزاد في غيظهم وحنقهم ، وادكرهم بنفسه وهو معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم ، فما ضره ، ولا تم لهم أمر في الظفر بقتله ، ولا على زلة يتبين فيها كذبه وسقوط قوله ، وهذا لا يقدم عليه العاقل إلا وهو على غاية الثقة بما يقول)^(١) .

ثانياً : ليست النبوءة القرآنية عن أبي لهب فريدة ، إنما لها نظائر كثيرة تفيض بالعظات والدلائل والعبر .

لقد نزل بحق أبي جهل التهديد والوعيد : ﴿ فلا صدق ولا صلّى ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ﴾^(٢) .

ثم حدد القرآن مصيره إلى النار إذ أنبأ عن موته مستقبلاً على الكفر والضلال . واعترض أبو جهل فقال : (ولم يهددني رب محمد وأنا أعز أهل البطحاء وأكرمهم ؟) .

فقال تعالى : ﴿ إنّ شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾^(٣) .

وأنزل الله في الأخنس بن شريق ﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع

(١) الزرق : الخداع . تثبيت دلائل النبوة ص ٣٦ .

(٢) سورة القيامة : ٣١ وما بعدها .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ وما بعدها .

مالاً وعدَّه ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحَطَمَةِ ﴿ فمات على كفره .

وأما النضر بن الحارث الذي كان يصرف الناس عن القرآن بأحاديث عن اسفنديار وكان شديد الكيد والعداوة والارصاد للرسول والمسلمين . فأنزل الله فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تَتلى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فبشره بعذاب أليم ﴿ (١) .

ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقد عرف الحق بنفسه وصرح به كما أسلفنا قصته . فألحَّ الكبراء عليه أن يقول ما يُنفر العرب عن رسول الله وكتاب الله ، فقال : إنه سحر يُؤثر . فأنزل الله فيه وهو حي سليم يدب على الأرض :

﴿ ذرني وَمَن خلقت وحيداً . وجعلتُ له مالاً ممدوداً ، وبنينَ شهوداً ، ومهدتُ له تمهيداً ، ثم يطمَعُ أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴿ إلى قوله : ﴿ سأصليه سقر ﴿ (٢) .

فلم يزد الله مالاً ولا ولداً بعد هذا ثم مات كافراً كما قال وأخبر . فالحمد لله الذي صدق وعدَّه ونصر عبده وأعزَّ جنده وهزم الأحزاب وحده .

ثالثاً : وقد ظهر من عظام الآيات يوم بدر ما يزداد به المؤمنون إيماناً . فقد أُجيبَت دعوة رسول الله ﷺ في نفر معينين من كفار قريش

(١) سورة لقمان : ٦ - ٧ .

(٢) سورة المدثر : ١١ - ٢٦ .

كانوا قد بالغوا في إيذائه وصحبه . فصرعهم الله بأيدي المؤمنين في هذا اللقاء . روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش ، على شيبه بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبي جهل بن هشام . فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس وكان يوماً حاراً^(١) .

٤ - إخبار القرآن باندحار المشركين واليهود :

لقد أنزل الله في المدينة أيام ضعف المسلمين وقتلهم أنباء عن مستقبل المشركين في صراعهم مع الحق وحشدهم الرجال والأموال لإطفاء نور الله . قال الله تعالى في كتابه المجيد : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون﴾^(٢) وقد أنفقوا أموالهم واستنفروا جنودهم لحرب الرسول والمسلمين ، فانعكست جهودهم وبالأعلى عليهم ، إذ تبددت الأموال وقُهر الرجال واندحروا خائبين متحسرين ، كما أخبر كتاب الله وأعلن .

وتحدث القرآن العظيم عن عاقبة اليهود ومآلهم حين كان المسلمون في قلة الرجال والمال والسلاح . روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل وابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، وقال : « يا معشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله تعالى بما أصاب قريشاً ! » فقالوا : يا محمد : لا يغرّنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال . إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تكن مثلنا ، فأنزل الله تعالى :

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي . راجع ص ٦٤ - ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال : ٣٦ .

﴿ قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . . .
لعبرة لأولي الأبصار ﴾ (١) .

أراد بـ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ اليهود ، وعبر عن قرب تلبسهم بمصير
الخزي والهوان بقوله : ﴿ ستغلبون ﴾ فالسين أفادت القرب ، يعني تغلبون
عن قريب في الدنيا .

وقد تحقق خبر كلام الله إذ نصر رسوله والمؤمنين على بني قينقاع
وبني النضير من اليهود وأجلوهم عن ديارهم ، ثم نصرهم على بني قريظة
بعد أن استمرؤوا خيانة عهد المسلمين وميثاقهم ؛ وعزموا مع قريش
وغطفان على استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم عن بكرة أبيهم . فنصر
الله رسوله والمؤمنين ، فانصرفت قريش وغطفان عن حصار المدينة من
وراء الخندق ، واتجه الرسول وصحبه إلى بني قريظة ، فمكَّنه الله منهم
أبلغ تمكين ، حتى قتل جميع رجالهم المقاتلين جزاءً وفاقاً . ثم فتح بنصر
الله خيبرَ وأخضع يهودها . وهذا كله من بديع الشواهد على نبوة سيدنا
محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢) .

(١) سورة آل عمران : ١٢ - ١٣ . والحديث أخرجه أبو داود بلفظ قريب - سنن أبي داود -
كتاب الخراج - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة - ج ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥ -
حديث ٣٠٠١ . وأخرجه الطبري برقم ٦٦٦٦ ورقم ٦٦٦٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم - لابن كثير : ج ٢ ص ٣٠٧ و ج ١ ص ٣٥٠ وروح المعاني : ج
٣ ص ٨٣ - ٨٤ ولباب النقول في أسباب النزول - للسيوطي .

الوجه الثالث

الوفاء بكل ما وعد الله به في القرآن

وعد الله المسلمين في قرآنه كثيراً من الوعود العظيمة . وهي بمقتضى العقل وبالنظر إلى ظروف المسلمين وأحوال عدوهم مستحيلة التحقق ، غير أن الله تبارك وتعالى المتصرف في ملكه بحكمته ومشئته قد وفّاهم بها جميعاً . فكان في ذلك إعجاز باهر يدل على أن القرآن تنزيل الله وأن محمداً رسوله وأن الإسلام دينه . وتلك الوعود على قسمين :

أولاً : وعود قرآنية مطلقة :

(١) يزجي الله لنبيه وللمؤمنين ضماناً إلهياً بالحفاظ على دين الإسلام بحفظ أصله القرآن المجيد . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ (١) .

نزلت هذه الآية في مكة . وما دام الرسول ﷺ يعاني من ظروف مكة الشائكة القاسية فمن يكفل له في حياته وبعد موته سلامة دعوته وحمايتها من لظى السنة الحقد المضطرم ولهبب العداة المتصاعد ؟!

هل يعقل أن ينبثق هذا الحكم القاطع من ذات محمد ﷺ وهو على ما هو عليه من رجاحة العقل ؟! كيف وكل عاقل يعلم تلاشي أصوات المصلحين وذهاب دعواتهم أدراج الرياح !! فكم في التاريخ من مدنيّة وحضارة عفت ودرست آثارها ؟ وكم من نبي قُتل ! أو ليس كل كتاب سماوي قبله قد ضاع أو حُرّف وغير ؟!

لقد علمنا بيقين أن محمداً ﷺ ليس ممن تستخفه الآمال والأحلام .

(١) سورة الحجر : ٩ .

فلم يكن من قبل يطمع أن يكون نبياً يوحى إليه . قال تعالى : ﴿ وما كنت
ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك ﴾^(١) ولم يكن بعد النبوة
يثق بقدرته الذاتية أن تضمن له بقاء هذا الوحي محفوظاً لديه إلا أن يشاء
الله رب العالمين : ﴿ ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك ثم لا تجدُ لك
به علينا وكيلاً ، إلا رحمةً من ربك إنَّ فضلَه كان عليك كبيراً ﴾^(٢) .

فلا ريب أن هذا الضمان بانتصار الإسلام وخلود القرآن إنما صدر
عن الذي بيده تصريف شؤون الكون وإليه يرجع الأمر كله . وهو الذي
أنزل القرآن وتكفل بحفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقد
أنفذ الله كفالاته وأنجز وعده فحفظ للأمة قرآنها ودينها على الرغم مما أنزله
العدو بها في تاريخها القريب والبعيد من هدمٍ للمساجد والمدارس
وإحراقٍ للكتب والمصاحف ؛ وحملاتٍ للصد عن الدين والقرآن بالتضليل
والبهتان ، تنفق عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وعلى الرغم
من محاولاتٍ لتحريف القرآن ، منها : ان الاستعمار الفرنسي طبع عدداً
هائلاً من المصاحف ووزعها في الجزائر أيام تحكمه في مقدراتها ، وقد
جاءت الآيات فيه صحيحة كاملة إلا كلمة واحدة من قوله تعالى : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم
في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخر ، ذلك
خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾^(٣) .

فقد حُذفت من الآية كلمة ﴿ منكم ﴾ في نسخ المصحف الذي
طُبِع بأمر الاستعمار الفرنسي ، وذلك تآمراً من الكفار على الإسلام
والمسلمين ؛ بغية حملهم على طاعتهم ، لقوله ﴿ وأولي الأمر ﴾ وترك
حربهم باسم الدين وتنفيذاً لأمر رب العالمين ، وسرعان ما افتضح التآمر

(١) سورة القصص : ٨٦ .

(٢) سورة الاسراء : ٨٦ وما بعدها .

(٣) سورة النساء : ٥٩ .

وانكشفت التزييف والتلاعب وجمعت المصاحف وأحرقت فأصبحت أثراً
بعد عين . . كذلك تبددت جميع المحاولات والحملات فصارت هباءً
منثوراً ﴿ وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) .

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل
مما تصفون ﴾ (٢) .

(٢) ومن الوعود القرآنية المطلقة : وعد الله تعالى بنصر الرسول ﷺ
وأصحابه على أعدائهم وإذلال مَنْ أخرجوهم من وطنهم ، وتمالؤوا على
حربهم . وإنما حظي الرسول بذلك في أوان ضعفه وتكالب الأمم عليه
وسعيها إلى قتاله وقتله واستئصاله وصحبه واجتثاث دعوته . وهم في
حسبان العقل هالكون غير ناجين . فوعدهم الله في كتابه بالنصر والظهور
وأخبر أنهم يثبتون ويزدادون قوة وبصيرة و يقيناً في أمرهم .

روى الحاكم عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : (لما قدم
رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس
واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : أترون
أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله . فنزلت الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٣) سورة النور : ٥٥ وانظر تثبيت دلائل النبوة ص ٤٤٦ و ٤٤٨ ومناهل العرفان ج ٢ ص

٢٧٠ - ٢٧١ وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٨٥ - ٨٦ . ط . دار الشعب .

إن ورود هذه الآية في تلك الحال مع ما فيها من وعد وبشارة لا يكون إلا من عند الله المنتصر العزيز العليم بما كان وما سيكون . فقد روى ابن أبي حاتم عن البراء رضي الله عنه قال : (نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد) . فأنى للمرء العاقل إذا كان يخشى أن يداهمه عدوه فيؤول أمره إلى الفناء وجمعه إلى التبديد والانقراض ، وهمه أن يدفع ذلك ما استطاع إلى دفعه سبيلاً ، أنى له أن يفكر حينئذ في أن يصبح هو وقومه سادة أهل الأرض يستخلفهم الله فيها لتطبيق شريعته التي ارتضاها لهم ؟ وأنى له أن يقول ذلك للناس ويجعل نفسه ودعوته قيد الحساب والموازنة ؛ إلا أن يأتيه وحى من أقدر القادرين وأسرع الحاسبين ؛ الذي بيده مقاليد الأمور كلها !!

﴿ قل اللهم ما لك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ (١) .

لقد حقق الله وعده واخباره بنصر المؤمنين ودحر المشركين منذ أول لقاء معهم يوم البطشة الكبرى يوم بدر . قد قتل المسلمون من كبرائهم وصناديدهم سبعين وأسروا سبعين . ثم قام رسول الله ﷺ على حافة البئر الذي قذف فيه المسلمون صنابير القتلى المشركين (فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

• قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها . .

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم (١) .

وفي سيرة ابن هشام نحوه وفيه أن الرسول ﷺ قال :

« ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

وقد أشاد حسان بن ثابت بذلك النصر الإلهي الخالد وبتحقق وعد الله وصدق كلام رسول الله ﷺ في قصيدة بارعة (٢) .

وقد حقق الله وعده وأعز جنده في أروع معركة مرت في تاريخ الرسول وصحبه ، وهي غزوة الأحزاب (الخندق) إذ تكالبت عليهم قبائل العرب وأحاطت بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، كما نقض اليهود المجاورون للمدينة العهد مع رسول الله ﷺ وتمالؤوا مع المنافقين من داخل المدينة والمشركين من خارجها على حرب رسول الله وأصحابه الأبرار ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . . . ﴾ .

﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل - ج ٥ - ص ٨ . راجع

الحديث بتمامه فيما مضى ص ٦٥ - ٦٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .

صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً .
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل
شيء قديراً ﴿١﴾ .

ثابر الرسول ﷺ مع أصحابه على الجهاد في سبيل الله وهم يحرزون
من الظفر الخالد ما يحقق وعد الله . ولم يمت رسول الله ﷺ حتى دانت
له الجزيرة العربية كلها بالإسلام كما عاهده بعض أطراف الشام ، وهاداه
هرقل ملك الروم ، والمقوقس صاحب مصر ، والنجاشي ملك الحبشة .
ولم تزل رقعة الدولة الإسلامية تتسع في عهد الخلفاء الراشدين ثم من
بعدهم إلى أن تأسس الوطن الإسلامي الكبير من جبال الصين شرقاً إلى
حدود فرنسا غرباً . ولم يبق من العالم القديم شيء يُذكر إلا كان في
حكمهم أو كان سالماً موادعاً مجتنباً مناوأتهم فقد أورث الله الأرض
أصحاب محمد وأتباعه كما قال وأخبر سبحانه وتعالى وكيفيك هذا دلالة
على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ .

وهكذا تجد أمر الله قد تحقق ، ووعدته قد نفذ . ومن أوفى بعهده
من الله ! ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي
الصالحون . إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة
للعالمين ﴾ ﴿٢﴾ .

ثانياً : وعود قرآنية مقيدة بشروط :

وعد الله المؤمنين عامة وفي كل زمان أن ينصرهم شريطة أن يكونوا

(١) سورة الأحزاب : ٩ - ١١ و ٢٥ - ٢٧ . ﴿ الذين ظاهروهم ﴾ : يهود قريظة ناصرُوا
أحزاب الشرك . « صياصبيهم » : حصونهم . « أرضاً لم تطؤوها » : خيبر ، وهي مدينة
كبيرة محصنة . وقد تم فتحها فيما بعد في السنة السابعة من الهجرة .
(٢) سورة الأنبياء : ١٠٥ - ١٠٧ . وانظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٣ - ٣٤ .

متمسكين بدينه منتصرين له على من حاربه . فإذا أقاموا هذا الشرط أيدهم الله بنصره . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) .

فلما وفى المسلمون بعهد الله ولم ينقضوا ما أخذ عليهم من ميثاق ، سدّد الله أسلحتهم إلى نحور أعدائهم فأعزهم وخذل عدوهم . فتلك وعود بالنصر مستمرة أبد الدهر متحققة بشرطها ما طلعت الشمس من مشرقها .

فلم يُعرف أنها تخلفت قط ، واسأل التاريخ !!

وفي القرآن وعود كثيرة على هذه الشاكلة منها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٢) .

ومن تحقق صادقاً بشرطها أنجزها الله له ، ونعمه بجني ثمارها وزاده بوعده ثقة ويقيناً .

(١) محمد : ٧ والحج : ٤٠ .
(٢) الطلاق : ٣ . وحسبه : كافية .

الوجه الرابع سمو التشريع القرآني وشموله

إن تشريع القرآن العظيم يشمل كل جوانب الحياة الإنسانية ومشاكلها ، ويعم الناس جميعاً أبيضهم وأسودهم ؛ عربهم وعجمهم ؛ في زمن الرسول ﷺ ومن بعدهم إلى أبد الدهر ، وقد جاء التشريع القرآني معجزاً للبشر في سموه ورفعته وعدالته . ولا غرو ! فقد تناولت أحكام القرآن جوانب الحياة جميعاً بما فيه صلاح البشرية وسعادتها ، فكان منها ما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع ونظام حكم الدولة والعلاقات الدولية في حالي السلم والحرب ؛ وكل ما يخطر بالبال من نواحي الحياة الهامة . قال تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (١) .

وعلى الرغم من ظهور هذه الشريعة في عصر الضلال والجهل والاغلال فإنها أسمى بما لا يقاس من شرائع المذنية في القرن العشرين . وعلى الرغم من تأثير الثقافات الأجنبية بالثقافة الإسلامية تأثيراً كبيراً ، أقرب به أعلام أهل الفكر في العالم ، فقد جاء إعلان حقوق الإنسان العالمي قاصراً عن سمو القرآني قصوراً فاضحاً . فالقرآن هو الذي منح الإنسان حقوقه على أكمل وأسمى وجه عرفته الإنسانية حتى عصرنا الحديث .

وقد حفظ القرآن المرأة من الظلم الاجتماعي وصان عرضها وجعلها شريكة الرجل تعايشه وتساويه في الكرامة والحقوق والواجبات . وخصّها بأحكام تتطلبها طبيعتها الأنثوية ومكانتها كزوجة وأم وهكذا . . بعد أن كانت المرأة في جزيرة الجاهلية تُورث وتعطى لبعض أولاد المتوفى في جملة متاعه ، وكانت ابنة تُحرم من الميراث ، وطفلة تُؤاد في التراب .

(١) سورة الانعام : ٣٨ .

ولم تكن أصقاع العالم حتى عهد قريب أقل جاهلية من تلك الجزيرة وأنقص عسفاً وجوراً في معاملة المرأة. بل كانت الزوجة تُحرق على قيد الحياة مع جثمان زوجها المتوفى في الهند ، وتعار وتؤجر بثمن بخس تحت حماية القانون في انكلترا . الخ (١) .

أجل ! على الرغم من هذا كله ، فقد فرض القرآن للمرأة على المجتمع حقوقها وكرامتها وتأمين أسباب سعادتها بمستوى لم تبلغه أرقى الشرائع المعاصرة . ففي آياته :

أ - قرر أن المرأة كالرجل في الإنسانية والمنشأ والمصير : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢) .

ب - حملها مسؤوليتها في الحياة ثاب إن أحسنت وتعاقب إن أساءت : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ (٣) .

ج - حرّم وأدّ البنات والتشاؤم من ولادتهن : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ (٤) .

د - جعل لها في الميراث نصيباً مفروضاً : ﴿ للرجال نصيب مما ترك

(١) ظل العمل بحرق الزوجة حية في الهند حتى القرن السابع عشر حيث تركت هذه العادة على كره من رجال الدين الهنود . وبقي القانون الانكليزي معمولاً به حتى عام ١٨٠٥ م .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٥ وانظر سورة النحل : ٩٧ .

(٤) سورة التكويز : ٨ - ٩ وانظر الانعام : ١٤ والنحل ٥٨ - ٥٩ .

الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما
قلَّ منه أو أكثر نصيباً مفروضاً ﴿١﴾ .

ومما ينوه بجلال التشريع القرآني ورقيه وضمانه المصالح البشرية في
كل عصر ومصر ، أنه تنزل في عصر دامس الجهل وفي أمة عريقة الأمية
ومع هذا فإنه أمرَ بكتابة الديون والاشهاد عليها ، ورتب أحكاماً للحفاظ
على حقوق أصحابها . إقرأ في سورة البقرة آيتي المدينة والرهن . قال
تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى
فاكتبوه . . . والله بما تعملون عليم ﴾ ﴿٢﴾ .

وقد سبق الإسلام إلى حل المشكلات الإنسانية وعلى رأسها مشكلة
الفقر على نحو لا نظير له . وذلك بتحديد نظام التكافل الاجتماعي ،
وكذا مشكلة نظام الحكم ، وما إليها من المشاكل الاجتماعية والمدنية
والسياسية والجنائية . لقد جاء هذا التشريع الذي عجز عن مثله عظماء
رجال القانون في عصرنا على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يتلق العلم
من بشر قط . وهذا هو الإعجاز الذي تحار العقول في معرفة سببه إلا أن
تُسلم بأنه تنزيل العليم الحكيم . وستظل شريعة القرآن أسمى الشرائع
طراً إلى يوم الدين ، لأنها صادرة عن الخالق العظيم ؛ العليم بدقائق
الأمر وخفايا النفوس ومستقبل الزمان . ﴿ قل أنزلهُ الذي يعلمُ السرَّ في
السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ ﴿٣﴾ . إنه كان بعباده خبيراً
بصيراً ﴿٤﴾ .

(١) سورة النساء : ٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ - ٢٨٣ راجع ص ٢٦٦ - ٢٧٠ .

(٣) سورة الفرقان : ٦ .

(٤) سورة الإسراء : ٣٠ و ٩٦ .

الوجه الخامس إعجاز القرآن الخلقى والاجتماعي

إن نظرة عابرة إلى أخلاق الجاهلية تعطيك صورة واضحة عن البون الشاسع بينها وبين ذروة النهضة الأخلاقية التي بلغها القرآن بأصحابه وأتباع رسول الله ﷺ ؛ وتظفر بالتالي بلوحة جمالية واقعية للتكوين الخلقى الذي أداه القرآن في الأمة الإسلامية .

التكوين الخلقى بالقرآن :

ويكفيك هنا أن تذكر القسوة التي نشأ عليها العرب في بيئة شاع فيها الإنحلال الخلقى وانتشر الزنى حتى اتجر بعضهم بفتيات يبعن اللذة للرجال ، مما دفعهم إلى وأد بناتهم في الصغر خشية العار . وتلك - لا جرم - قسوة همجية بالغة . ولا تنس استبداد الروح العدائية وهيمنة العصبية القبلية ، على جميع الأفراد مما أساغ لهم الارتزاق بالغزو والنهب والرضى عما يصحبه من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال وسرق المواشي والأموال . ولكن فيمن يصنعون هذا كله ؟ في قبيلة عربية أخرى ينحدرون معها من أصل واحد ! فأفرادها - بهذا الاعتبار - أبناء عمومتهم ، فما كان هذا ليصرفهم عن تربص الدوائر بهم واجتياحهم عند غلس الفجر ، حين تتأقل الأجسام وتنطبق الأجنان ، ليعثوا في أفئدتهم الفرع والذعر وينثروا في ربوعهم جثث القتلى ولهيب الحرائق وأكوام الدمار .

أنزل الله قرآنه جامعاً للفضائل الشريفة والخصال المنيفة ، وحلّى رسوله بأجلى الكمالات الخلقية ، كما وردت في كتابه الكريم . حتى تمثلت جميعها فيه ﷺ . قالت عائشة رضي الله عنها : (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ

كان القرآن^(١) ولم يزل المسلمون الخُالص منذ الجيل الأول حتى زماننا هذا تشرَّب أفئدتهم إلى ما احتواه القرآن من جليل الشيم وترنو بصائرهم إلى نهج رسول الله ﷺ في تطبيقها إذ جعله الله قدوةً لهم ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٢) .

لقد ترسم الصحابة خطاه واقتفوا آثاره حتى ترى أمثل تعبير عن رتبته بين الأمم قولَ الله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾^(٣) .

وبعد ؛ فليس أدل على رتبة أصحاب رسول الله ﷺ الخُلقيّة من مركزهم الذي شغلوه بين جماهير الشعوب ، التي آنتت بالإسلام نوراً . فقد وجدوا فيهم قسماً باهراً من أخلاق النبيين ، فتأسوا بهم فكانوا خير قدوة لهم بعد نبيهم عليه الصلاة والسلام .

ويكفيك أن تذكر الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي بن كعب ، ومن التابعين سعيد بن جبير ؛ وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن البصري وأبا حنيفة . . وأمثال هؤلاء كثير . وليس ههنا مقام الإسهاب في ذكرهم وسرد فضائلهم وتأثيرهم في التكوين الخُلقي لجماهير الشعوب الداخلة في دين الله أفواجاً . . فكتُبُ التاريخ والتراجم زاخرة بذلك .

-
- (١) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين ١ : ٥١٢ رقم ٧٤٦ وغيره . انظر الحديث بتمامه في « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ١١٧ .
(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .
(٣) سورة آل عمران : ١١٠ .

التكوين الاجتماعي بالقرآن :

اعتنى القرآن الكريم بإصلاح الفرد وتهذيب نفسه وتوطينه على الأخلاق الرفيعة سراً وعلناً ظاهراً وباطناً ، وعوده على مراقبة الله وتقواه ، لتكون تصرفاته كلها في طاعته ورضاه ، وتحقيق هذا تأسيس للمجتمع الصالح . فالمجتمع الذي يتكون من مجموعة من مرضى القلوب وأصحاب الأمزجة والنزعات الفاسدة والأخلاق الشاذة لا يمكن عدّه مجتمعاً صالحاً ألبتة . وأصلح القرآن الأسرة ونظم علائق أفرادها ببعضهم وأعلن حقوق وواجبات كل . . . وقضى القرآن على العصبية القبلية ، وأحل محلها روحاً إنسانية عامة ورابطة إسلامية قوية تتجلى في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) .

توجه الخطاب الإلهي إلى الناس جميعاً يعلن أنهم بلا استثناء من أصل واحد من آدم وحواء عليهما السلام ، ومنه انبثقت الشعوب وتفرعت القبائل . فهم في وحدة الأصل سواء ، فلا مسوغ للتفاخر بالآباء والتطاول بالأنساب فالأصل المشترك يقتضي تعرف بعضكم على بعض وصلة رحمه ومعونته (٢) . وعندني أن في الآية حُضاً على صلةٍ رحمٍ إنسانية عامة ، ترتبت لها حقوق في ذمة المكلفين . فدفع بتنمية هذه الصلة الإنسانية العامة كل نكرة جنسية أو عصبية قبلية ، ولم يفسح المجال للتسامي العرقي والتمييز العنصري ، إذ قرر معيار الأفضلية بين الناس : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وفي مضممار التقوى فليتنافس المتنافسون وهي حال شخصية لا تتأثر

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) روح المعاني جـ ٢٦ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

بَنَسَبٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ لَوْنٍ ، وَإِلَى اللَّهِ عَائِدٌ أَمْرٌ تَقْدِيرُهَا فَهُوَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .

وقضى القرآن المجيد بذلك على كل تحجر قومي ، فأصلُ بني الإنسان واحد لا مجال للتفاضل فيه أو لافتخار قوم به دون آخرين . والله تعالى هو الخالق ، والسبيل الرشيدة التزام مراقبته وتقواه . فأرسي القرآن بذلك جذور صلة إنسانية عامة . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١) .

وإلى جانب هذه الصلة الإنسانية أقام على أساس عُقدي رابطة بين قلوب المؤمنين بالله ورسوله ، فنظم في سلكها تلك القبائل العربية المتناحرة والأشتات البشرية المتناثرة ، إذ أعلن أن جميع المؤمنين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأقوامهم إخوة في الإيمان بالله ، لكل منهم حقوق وواجبات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) فأزال حواجز الجنس واللون واللسان ولطف المشاعر القومية والنسبية ، وذهب بحدتها ، وأحل في الصدر الأول رابطة الأخوة الإسلامية ، وأقام على أساسها من ذلك الشتات القبلي المتباين أمة مؤتلفة المشاعر متفقة الأفكار والعقائد ذات نظام سياسي واجتماعي منضبط ، تكونت نواتها في الجزيرة العربية في سني الدعوة المحمدية . ثم تشعبت جذورها وامتدت أغصانها في فترة وجيزة من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً ، فهيمت دعوة القرآن على معظم بقاع العالم القديم . إن خروج المواطنين عما كانوا عليه واعتناقهم هذه الدعوة وطواعيتهم لمبادئها واتلافهم وتضامنهم جميعاً - برغبة ذاتية ولدها القرآن فيهم - في تكوين مجتمع واحد متين في

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٠ .

هذا الزمن اليسير ، إنما هو حدث تاريخي عظيم فريد تبرأ عن المثل من قبل ومن بعد .

ويدلك على سمو أخلاقهم الاجتماعية - وكلُّ الأخلاق الإسلامية ذات صبغة اجتماعية - قولُ عمر بن الخطاب لعمر بن العاص والي مصر لما ضرب ابنه مواطناً قبطياً بغير حق : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!) وقول علماء الغرب : (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) والفضل ما شهدت به الأعداء .

ومثل هذا لا يتأتى عفو الخاطر ولا يكون وليد الصدفة ، إنما يعبر عن خلق استقر في الضمير حتى غدا طبعاً تلقائياً ، تصدر تصرفات المسلم عنه دون عناء أو كلف . وفي هذا من تهذيب النفس وتصعيد الغرائز والتسامي بالنزعات ما لا يخفى . فإن الإنسان - بدون أخلاق أهل الإيمان - إذا اشتد بأسه وقويت سلطته واستكانت له الجموع حمله ذلك على التصرف في الناس بالجور والعسف . وهذا ما عمدت إليه الدول الكبرى في عصرنا ، وكذلك فعل اليونان والفرس والرومان في الشعوب بعد حروبهم الساحقة . . . وأسأل التاريخ !! وتأصل هذه النزعة في الإنسان ومعاناة الناس من خطرها الأهوال والمآسي حدا بالمشرعين للذساتير الحديثة في العالم إلى تقسيم السلطات وتحديداتها ، كما هو معروف في الحقوق الدستورية . لقد ربي الله بقرآنه الصحابة رضوان الله عليهم ونقى نفوسهم وضمائرهم من شوائب النقص ، ومنها حب السيطرة والتسلط ، وهو سبحانه يعلم ما صار في نفوسهم ، فأنزل يثني عليهم قبل أن يبلوهم بإتساع الدولة وإذعان الشعوب ، فقال جل شأنه : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (١) .

(١) سورة الحج : ٤١ .

فقرر سبحانه أن حالهم قبل أن تدول الأرض وتدين لهم بالولاء شعوب كحالهم بعد تحقق ذلك . سيظلون على تواضعهم لله وطاعته بأداء الصلاة ودفع زكاة أموالهم للفقراء وعلى الأمر بالخير والعمل به ، والنهي عن الشر والبعد عنه . . فتلك سجاياهم المحمودة التي نشأهم الله عليها بالنهج الرباني الذي رسمه في قرآنه المجيد .

وهكذا أثنى الله عليهم قبل أن يُحدثوا من الخير ما أحدثوا لعلمه بما انطوت عليه ضمائرهم من كرائم الخصال القرآنية ، فكان كما قال سيدنا عثمان رضي الله عنه : (هذا والله ثناء قبل بلاء)^(١) .

﴿ الذين إن مكناهم ﴾ عائد على المهاجرين (الذين أخرجوا من ديارهم) وقال قتادة : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال ابن عباس : المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة .

أقول : ولا يذهبن بك الوهم أنهم إذا لم يفتح الله عليهم ولم يمكن لهم لم تكن الصلاة فرضاً عليهم . فهذا مناف للآيات والأحاديث التي فرضت فيها الصلوات . وهو مناف لدلالة هذه الآية بالنظر لما قبلها عن المهاجرين والأنصار وأن الله ينصر من ينصره ، وتارك الصلاة ليس مناصراً لله^(٢) ولا تنس أن الصلاة فرضت على المسلمين بمكة ، وحديث الإسراء والمعراج معلوم لعامة المسلمين فضلاً عن مثقفهم .

ظاهرة فذة جلييلة في القرآن :

أنعم النظر في مناحي القرآن تتجلى لك ظاهرة هامة جلييلة ؛ عظيمة

(١) روح المعاني : ١٧ : ١٤٩ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٢ : ٧٢ - ٧٣ وإرشاد

العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٤ : ١٥ .

(٢) انظر سورة الحج : ٣٨ - ٤١ .

خطيرة ، تعالج أغوار المشاكل الاجتماعية بسمو أخلاقي شاق . تلكمُ الظاهرة هي نُصرة الضعفاء ، فالقرآن يأخذ بناصر كل ضعيف ويشد أزره ، فترى ذلك الضعيف قد أضحى بالقرآن عزيزاً منيع الجانب حتى ينال حقه ويثبت في مكانة اجتماعية إنسانية حصينة .

التمس أمثلة ذلك في حديث الذكر الحكيم عن المدين ؛ واليتامى والأطفال القاصرين بنين وبنات ، والطاعنين في السن وخاصة الأبوين ، والمرضى وأصحاب العاهات ، والنساء . . الخ .

إنما نزل القرآن في كل ذلك بمواقف اجتماعية أخلاقية فذة خطيرة أيام كانت الإنسانية ترزح تحت نير الظلم والعسف والتسلط في المجتمع الجاهلي في مكة ؛ وفي ظل الحكم الروماني والحكم الفارسي . ولا تزال الإنسانية حتى أيامنا تعنو فيها جباه الضعفاء بالذلة والهوان أمام التسلط والعدوان والقهر والاستبداد والاستعباد ، يقع ذلك مباشرة جهاراً أو يقع منمقاً بتفلسفات مخادعة وحيل لفظية لا تغني عن الحق والعدل شيئاً .

ارتقى القرآن ذرى أخلاقية اجتماعية لا تزال الانسانية في قصور عن بلوغ سفوحها إلا عند الاعتصام به والعمل بأوامره . وما ذاك القصور المتزايد ظهوره على مر الزمان إلا إمارات شاهدات على إعجاز القرآن وأنه تنزيل أحكم الحاكمين جل جلاله^(١) .

مجتمع عالمي :

بثَّ القرآن الكريم في المؤمنين روحاً إنسانية شاملة ، ورتب في ذمهم حقوقاً إنسانية ، تعم كل محتاج من بني الإنسان مسلماً كان أو غير

(١) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » : ٣٤٣ - ٣٥٠ .

مسلم ، وتبعثهم على تقديم أنواع المعونة الممكنة له . وإلى جانب رابطة الاخوة الإسلامية يضع القرآن العظيم أسساً متينة لبناء مجتمع عالمي يضم المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب المعاهدين . إذ أباح الله التعايش معهم بل بذل المودة والبر لهم ؛ ومعاملتهم بالعدل الذي فرضه الله على عباده . قال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (١) .

وقد فرض القرآن نظام التكافل الاجتماعي لكافة المواطنين مسلمين ومعهدين ويدلك هذا على أن القرآن قد أسس مجتمعاً عالمياً لا قسوة فيه ولا إرهاب ، مجتمعاً تسوده الألفة والمودة والمساواة والحياة الكريمة ، وهو ما تصبو إليه النفوس . وقد أخفق في تحقيق مثله أصحاب الدعوات والمذاهب الاقتصادية والفلسفية المعاصرة .

فالأحداث العالمية وأحوال المجتمعات الإنسانية المادية والخلقية وسيطرة القوة وفشو الظلم الدولي براهين قاطعة مفلقة تدمغ أصحاب تلك الدعوات والمذاهب وأنصارها المستغلين والمكابرين .

وهنا يوقن العاقل بأنه لن يجد للقرآن العظيم نظيراً ، وإنما صاغ نظامه رب العالمين ، الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى ، تباركت أسماؤه وتعالى صفاته .

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

الوجه السادس الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

ولبيان هذا الوجه العظيم من إعجاز القرآن لا بد من الحديث عن
أميرين هامين :

أولاً : أن القرآن لا يتعارض مع اليقيني من العلم : ان القرآن الذي
نزل منذ أربعة عشر قرناً في عهد الجهل المطبق ، قد اشتمل على حقائق
علمية كثيرة ناصعة ، أوردها الله تعالى ليدل الناس على وجوده ووحدانيته
وقدرته وعظمته . وعلى الرغم من تقدم العلم في زماننا هذا فإنه لا توجد
حقيقة علمية منافية لما ورد في القرآن الكريم مطلقاً . أما النظريات التي
لم يبرهن عليها علمياً بشكل يُدخلها في نطاق الحقائق العلمية ، فلا داعي
لمقابلتها بالقرآن ، لأن تقدم العلم قد يكشف في المستقبل عن خطئها أو
عن صوابها . والحقيقة أن اكتشاف مزيدٍ من الحقائق العلمية يؤدي إلى
التعرف على المزيد من المعجزات القرآنية العلمية . ويثبت بالتالي أن هذا
القرآن تنزل على محمد رسول الله ﷺ من علام الغيوب الذي أحاط علمه
بجميع مخلوقاته جملة وتفصيلاً . وذلك شأنه ووصفه ، تبارك الله رب
العالمين .

ثانياً : جاء القرآن بحقائق علمية كشف عنها العلم الحديث : إنه
لاعجاز للبشر أن يذكر القرآن حقائق علمية دقيقة ، كان الإنسان يجهلها ،
فكشفت عنها العلم في العصر الحديث عندما تطورت أجهزته وتقدمت
وسائله وأساليبه . مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفةً في قرار
مكين . ثم خلقنا النطفةَ علقةً ، فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغةَ

عظاماً ، فكسونا العظامَ لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخرَ فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ﴿١﴾ .

تذكر هذه الآيات مراحلَ خلق الإنسان وتطوره ، فتبين أن أصله من الطين ، فالعناصر التي يتكون منها الجسم الإنساني هي عناصر تحتويها التربة الأرضية ، إذ الطين من تراب وماء . وهذا ما برهنت عليه التحاليل العلمية وصرح به العلماء المختصون ، منهم (الكسيس كاريل) إذ أوضح أننا مصنوعون من تراب الأرض بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة (٢) .

وقوله : ﴿ من سلاله من طين ﴾ : من خلاصةٍ استُخرجت من الطين ، وهذا ينطبق على الغذاء الذي تنبته الأرض ، ثم تتشكل منه النطفة في الجسم الإنساني ، تستقر النطفة في الرحم وبعدها تتطور إلى علقة ثم إلى مضغة فتنشأ منها العظام ، فيكسوها الله لحماً . ثم تُنفخ الروح في هذا الكائن فيصبح خلقاً إنسانياً راقياً بعد أن كان في طور طيني حيواني .

فالمراحل التي ذكرها القرآن هي المراحل نفسها التي حددها العلم الحديث بعد نشوء علم الأجنة التشريحي وتقدم وسائله في القرن الأخير (٣) .

فهل يُعقل أن يكون ظهور هذا الكشف العلمي الدقيق - منذ ثلاثة عشر قرناً - على لسان رجل أُمي لم يتلق العلم ، هل يعقل أن يكون إلاّ

(١) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٣ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » ص ٧٦ - ٧٧ طبع الدار القومية - مصر ١٩٦٤ .

(٣) انظر كتاب : (اللب بين الإسلام والطب) للدكتور محمد موفق الشطي الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق - وفي القرآن معجزات علمية كثيرة تحدث عن طائفة هامة منها كتاب (روح الدين الإسلامي) للاستاذ عفيف طيارة فارجع إليه .

بوحى من الله خالق الإنسان !!؟؟ .

وإليك أيضاً كشفاً علمياً باهراً أوردته القرآن قبل أن يتوصل إليه الإنسان بأكثر من عشرة قرون فقد كان الرأي السائد قبيل البعثة النبوية ونزول القرآن أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء . وكان الفراعنة من قبل يعتقدون أنه ينزل المطر من السماء عندما تفتح الآلهة أبواب خزانات مياه السماء وأن المطر لا بد أن ينفذ يوماً ما ، وأن ماء النيل إنما يأتي من محيط الأرض الأعظم الذي لا ينضب . إلا أن القرآن الكريم كان أول كتاب ربط ظاهرة إثارة السحب ونزول المطر بإرسال الرياح . تأمل ذلك في قوله تعالى :

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميمت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٢) .

وهذه حقيقة علمية أثبتها علم الأرصاد الجوية في عصر النهضة العلمية الحديثة . كما كشف تبارك وتعالى في الكتاب المجيد عن مهمة أخرى للرياح غير إثارة السحاب وحمله ، وهي تلقيح السحاب ليجود بالمطر قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ (٣) .

قال ابن كثير : (لواقح : أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح

(١) سورة الروم : ٤٨ و (كسفاً) : قطعاً و (الودق) : المطر .

(٢) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٣) سورة الحجر : ٢٢ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٤٩ .

الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها) .

وأثبت العلم الحديث أن الرياح تقوم بتلقيح السحاب ، وذلك في عملية تتضمن إمداده بأكاداس من جسيمات صغيرة مجهرية تسمى : (نوى التكاثف) وهي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتشكل نقط المطر الكبيرة . ثم يتساقط وابل المطر أو طلّه^(١) .

وإنما أظهر الله هذه الكشوف العلمية منذ أربعة عشر قرناً في كتابه المنزل على نبيه المرسل ليوقن الناس على بعد العهد وتوالي الزمان أنه تنزيل الله العليم القدير .

وإن هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله كثير لا يتسع المقام لاستقصائها وليست هي إلاّ معجزات متعددة ممتدة امتداد الزمن ، تثبت بالدليل العلمي القاطع صدق محمد ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، تبارك وتعالى ، كما تثبت قصور الإنسان وعجزه المطبق عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، لأنه تنزيل علام الغيوب .

(١) انظر كتاب : لماذا أنا مؤمن - الدكتور جمال الدين الفندي ص ٢٤ و ٤٠ - ٤١ طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر .

الوجه السابع

اتساق نظريات القرآن وأحكامه

طرق القرآن موضوعات متعددة اعتقادية وخلقية وتشريعية وعلمية وغيبية . وتجاوزت آياته ستة آلاف وستمائة آية نزلت في ثلاث وعشرين سنة ، وقد عرضت الحقائق الإلهية والسمات النبوية ، وقررت حقائق كثيرة ، كونية واجتماعية ووجدانية ، وشخصت أمهات المشاكل الإنسانية وحددت لها أنجع العلاج ما تتابعت السنون وتوالت القرون . ومعلوم من حال علماء البشر أنه يستحيل أن ينتفي عن أحدهم في كلامه الطويل وتأليفه الكثير المناقضة أو الغلط ؛ مهما اشتد منه التوقي . وقد عُدَّت سقطات أهل الفضل والحزم فيما كانوا يتعمدون فيه التحرز الشديد والحذر البالغ .

هذا وإن الواحد من أهل الاختصاص في فرع من فروع العلم ليتدرج في البحث والكتابة زمنًا مديدًا ، حتى يتوصل إلى الحال الرفيعة في سلامة التأليف وحسن التصنيف ، التي لا تخلو من الزلات والسقطات فكيف ومحمد ﷺ قد ظهرت على لسانه في آيات الكتاب الكريم تلك العلوم العظيمة التي جعلت أهل كل علم يلتجئون إليه في أصول علومهم !! لقد عوّل المتكلمون على ما فيه من توحيد وبعث ونشور ووجوب النظر والتفكير ، ومال الفقهاء إلى ما تضمنه من المعاني والأدلة والأحكام الشرعية الشاملة للعبادات وأنواع المعاملات وأحكام الأسرة والمواريث . . . كما عول عليه أهل اللغة والنحو والبلاغة فيما بسطوه من الكتب وشرحوه وأصلوه . وإذا ذكرت أن الرسول قد ظهرت عليه هذه العلوم القرآنية الجليلة دفعة واحدة دون سابق ممارسة أو معاناة ثبتت لديك إلهية المصدر القرآني بوضوح أجلى من الشمس في رابعة النهار . ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

حميد ﴿١﴾ وإذا تأملت هذه المجموعة العظيمة من الحقائق الواقعية والأحكام الحصيصة في آياته الكثيرة فلن تجد معنى يقاوم معنى أو حكماً يناقض حكماً أو مبدأ يهدم مبدأ أو غرضاً لا يتفق مع آخر . فلو كان صادراً من عند غير الله - أفراداً أو جماعات - لما سلم من اختلال في سياقه وألفاظه واختلاف في بعض معانيه ، فالوقوع في ذلك طبيعة عقل الإنسان مهما نضج وكمل . لكن اتساق معاني القرآن وعباراته وسلامته من التناقض والاختلاف والخطأ في لفظه ومعناه - مع روعة الأسلوب الخارقة وبلاغته المعجزة - أمر يخرق عادة البشر ويستعلي فوق قدرتهم وطاقاتهم ، وفيه دلالة بليغة على نبوة محمد ﷺ وبيان شافٍ على عظمة شأن القرآن ؛ الدالة لزاماً على أنه كتاب الله العليّ القدير ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٢) .

سئل الإمام الغزالي عن معنى هذه الآية فأجاب :

(الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه ، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن . يقال هذا كلام مختلف ، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ؛ فبعضه على وزن الشعر ؛ وبعضه منزحف ؛ وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة ؛ وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله مُنَزَّهُ عن هذه الاختلافات . فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره ؛ وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى

(١) سورة فصلت : ٤٢ .

(٢) سورة النساء : ٨٢ وانظر المغني للقاضي عبد الجبار ج ١٦ - ص ٣٢٨ - ٣٣٠

و٣٤٢ .

وصرفهم عن الدنيا إلى الدين ، وكلام الأدميين تنطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وُجد فيه اختلاف في منهاج النظم ؛ ثم اختلاف في درجات الفصاحة بل في أصل الفصاحة ، حتى يشتمل على الغث والسمين . ولا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات سخيقة ، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ويسمونهم حزماً ، وتارة يذمونهم ويسمونهم ضعفاً ، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونهم صرامة ، وتارة يذمونهم ويسمونهم تهوراً .

ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالأحوال والإنسان تختلف أحواله ، فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، وتتعذر عليه عند الانقباض ، وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة ، وهي مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد . ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١) .

(١) الاتقان : ج ٢ ص ١٢٤ .

الوجه الثامن

الإعجاز النفسي في القرآن العظيم أو تأثير القرآن وفاعليته في الأفتدة

إنَّ تأثير القرآن في القلوب قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يُعرف قبله ولا بعده لكلام قط ، إذْ تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعهم روعةً وخشياً وتعتر بهم هيبته وتُهيمن عليهم عظمته ، وترى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر ، إذْ يُقرِّعهم على ضلالهم ويقيم عليهم حججاً لا معقب لها ، فيستقلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين ، كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليدَّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾^(١) . وقال : ﴿ وإذا ذكرت ربَّك في القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفوراً ﴾^(٢) .

وقد شعر بعض زعماء الشرك أن القرآن قد تملك قلوبهم ، وأحسوا في أعماقهم هزة روعته ، فكانوا يستخفون من الناس ويسترقون السمع إليه ليلاً . ورأوا آثاره في أتباعهم الذين تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين والسورة والسورتين ، يتلوها محمد ﷺ أو أحد أصحابه ، فتتقاد إليهم نفوس كانت متعصبة للأوثان فتهجرها ، وتتحلى بهدي القرآن علماً وعملاً ، أدباً وخلقاً . فأدرك زعماء الشرك شدة خطر القرآن على سلطانهم ونفوذهم ، فأوصوا أتباعهم أن يحولوا بينه وبين أنفسهم . وقد حكى الله ذلك عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾^(٣) .

(١) سورة الإسراء : ٤١ .

(٢) سورة الإسراء : ٤٦ .

(٣) سورة فصلت : ٢٦ .

وأنت تذكر شدة تأثير عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة بالقرآن .
وكيف احتال الوليد لصرف الناس عنه فقال : (إن هذا إلا سحرٌ يُؤثر) .

وقد حصل ما خشي هؤلاء . فهذا عمر بن الخطاب قد مضى
متوشحاً سيفه ليقتل رسول الله ﷺ فلما قرأ في بيت أخته فاطمة بنت
الخطاب قوله تعالى : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرةً
لمن يخشى . تنزيلًا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . . ﴾^(١) لم
يلبث أن آمن قائلًا : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

وما قصة إسلام زعيمي الأوس : « سعد بن معاذ » و « أسيد بن
حُضير » عنك ببعيد .

وقد ورد في الصحيح عن جُبَيْر بن مُطعم قال : « سمعت النبي ﷺ
يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيء؟! أم هم الخالقون؟! أم خلقوا السموات والأرض؟! بل لا يوقنون! أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون؟! ﴾^(٢) كاد قلبي أن يطير
للإسلام »^(٣) وفي رواية أخرى : « وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي »
وقد ذكرناها قبل^(٤) .

ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على نفر الذين حضروه
من المدينة آمنوا به ، وعادوا فأظهروا بها الإسلام . فلم يبق بيت من بيوت
الأنصار إلا وفيه قرآن . وقد غدا مشهوراً أن المدينة لم تفتح بشيء سوى
القرآن .

(١) سورة طه : ١ - ٤ راجع ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ - ٣٧ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة الطور - ج ٦ ص ٤٩ .

(٤) راجع ص ١٣٩ - ١٤٥ .

وأما المؤمنون فلا تزيدهم هيبة القرآن وروعته إلا انجذاباً إليه ،
فتهش قلوبهم له وتطمئن ، وتستبشر نفوسهم به وترتاح . قال الله تعالى :
﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشعراً منه جلودُ الذين
يخشون ربهم ، ثم تليّن جلودهم وقلوبهم إلى ذكرِ الله ، ذلك هدى الله
يهدى به مَنْ يشاء ، وَمَنْ يَضِللِ اللهُ فما له من هادٍ ﴾ (١) .

ويزداد المؤمنون بسماع القرآن خشوعاً وخضوعاً . قال تعالى :
﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما
عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آما فآكتبنا مع الشاهدين ﴾ (٢) .

ويربو الإيمان لدى تلاوة القرآن العزيز في قلوبهم ويقوى ويتعاضم .
قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكرَ اللهُ وجلتْ قلوبهم ، وإذا
تُليتْ عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٣) .

إن تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصن دونه القلوب ، فإنه لو
أنزل على صُم الجبال لفلّقتها وشققها ؛ بما يودعه فيها من هيبة الله
وجلاله . قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً
متصدعاً من خشية الله ﴾ (٤) ألا ترى أنه يعتري مَنْ لا يفهم معانيه ولا يعلم
تفاسيره من العوام من الخشوع والسكينة وزيادة الإيمان ما لا يخفى ،
وذلك كله من دلائل معجزاته وعظيم آياته الدالة على نبوة سيدنا محمد
ﷺ .

وهذا « الفضيل بن عياض » مسلم ، لكنه كان قاطع طريق ، يسلب

(١) سورة الزمر : ٢٣ راجع ص ١٣٢ .

(٢) سورة المائدة : ٨٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٢ .

(٤) سورة الحشر : ٢١ .

المال ويسفك الدماء ، استمع ذات ليلة إلى قارئ يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

فتابٌ وحسنتُ توبته حتى أصبح من كبار الصالحين المقتدى بهم .
فهل كلامٌ يُحدث جميع تلك الآثار يدعو به رجلٌ أميٌّ لا دولة له ولا سلطان .. هل يكون إلا كلام رب العالمين !؟

لقد غفل عن هذا الوجه من الإعجاز بعض العلماء ، وتنبه له البعض الآخر ، وأعلن الخطابي أنه قد سبق إلى معرفته وبيانه فقال :

(قلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم ، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا مثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ؛ ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق ، وتقشعرُ منه الجلود وتنزعجُ له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاةً وكفرهم إيماناً ..) (٢) .

(١) سورة الحديد : ١٥ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي « ثلاث رسائل في الإعجاز » ص ٦٤ .

الفصل الثالث نقض مزاعم المُستشرقين

ندحض فيه شبهات زائفة للمستشرقين وردت على لسان كبيرهم

« تسهر » :

- ١ - زعمه مشابهة القرآن كلام الكهنة .
- ٢ - زعمه ضعف بلاغة المدني من القرآن .
- ٣ - إنكاره معجزات الرسول جميعاً .
- ٤ - زعمه اقتباس الرسول قصص القرآن من العهد القديم .

والجواب :

- أولاً : قدم هذا المستشرق زعمه بغير دليل .
- ثانياً : الرسول أمي لم يقرأ ولم يكتب .
- ثالثاً : أخبار القرآن صححت أخبار الكتب المشوهة .
- رابعاً : اختلاف الأثر النفسي بين أخبار القرآن وأخبار الكتاب المقدس .
- خامساً : فصل القرآن وأوضح ما كان مختصراً وغامضاً في الكتاب المقدس وأورد أخباراً لم ترد فيه .
- سادساً : اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس .

سادَ في الأعصر الأخريرة الجهلُ بالدين والعربية ، وفقد الناسُ السليقة العربية ، وأضحى للفصحى بين أهلها مقام الغرباء ، وغدا البونُ بينها وبينهم شاسعاً . وفي هذه الحال ترى أن من أظهر نعم الهداية الإلهية ما حفظه الله لهذه الأجيال من تراثٍ لغوي بلاغي ودراسات قرآنية ، مَنْ سلك سبيلها عرف بحق إعجاز القرآن معرفةً لا يُخالطها أدنى توهم أو شك . إن إنكار إعجاز القرآن - من غير اطلاع على المصنفات التي درست هذا الموضوع الجليل ، وأحكمت إقامة الشواهد اللغوية والعلمية العقلية على إعجازه وربانية مصدره - إنما هو ضرب من العبث بل هو ضرب من التصرف الأخرق الذي يحمل المرء على الحكم في مسألة تبعاً لهواه . إن الدراسات القرآنية قدمت أبلج الأدلة وأنصع البراهين على إعجاز القرآن العظيم .

وإنك لتعجب إن وجدتَ امرأً عربياً غير ضليع في هذه المعارف اللغوية يتصدى لإصدار الأحكام في إعجاز القرآن على ما ينقصه من كفاءة لهذا الأمر ، فكيف إذا وجدت الذي يُقدم على ذلك أعجمياً لم يقدر على الانفكاك عن عجمته ، ولم ينطلق لسانه في العربية انطلاق العاديين من أهلها ، ولم يزل محكوماً للعجمة في نطقه وفهمه !!؟؟ ذلك العجب العُجاب تجده في صنيع المستشرق اليهودي المجري الأصل : « اجتس جولد تسهر » لقد تنطع يقول :

(لكنَّ حمية النبوة وحِدَّتْهَا أخذت في عظام المدينة والوحي الذي جاء بها تهدياً رويداً رويداً . حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة ؛ كما أخذ المُوْحَى نفسه ينزل إلى مستوى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل حتى لقد صار أحياناً في مستوى الشر العادي . . .)

(ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية في القرآن أخذت تفتت حماسها برغم استعمال السجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة كما في الأجزاء الأخرى المكية) .

(لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعود الكهان القدماء وضع نبواتهم فيه ، ولو جاء في شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله ، على أن محمداً قد أكد أن جميع ما جاء به هو من الوحي الإلهي)^(١) .

وخلاصة رأي هذا المستشرق :

١ - أن القرآن النازل في مكة كقول الكهان ، فهو - في زعمه - غير معجز لوجود ما يناظره قبل .

٢ - أن القرآن النازل في المدينة ضعيف البلاغة ، بل هو أحياناً في مستوى الشر العادي ، فهو - في زعمه - غير معجز أيضاً .

ولعلك بعد أن اشمأزت نفسك من ظاهرة التعسف في إصدار الحكم على القرآن ؛ وإلقاء الكلام فيه على عواهنه من غير أدلة شاهدة ولا مبررات سائغة ، تسأل : كيف أضيف وصف الإعجاز إلى القرآن الكريم؟! وتجد الجواب ببساطة من غير عناء بحث عند دعوي التحقيق

(١) العقيدة والشريعة ص ٢١ - ٢٢ .

العلمي هذا ، فهو يقول : (لقد قرر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الاتيان بمثله)^(١) .

(١) زعمه مشابهة القرآن كلام الكهنة :

فهل راعى منزل القرآن أن ينزله على شكل كلام الكهنة ليتقبله العرب ؟ وهل العرب لا ترى فيه كلاماً إلهياً إلا أن يأتي على تلك الطريقة ؟

لقد نفى القرآن نفسه هذه الصبغة عن نفسه مزيئاً بكلام الكهنة . فهل يصح القول فيه بعدئذ أنه التزم مجازاة منهجهم وحرص على رضاهم ؟! أم يكون ذلك القول ضرباً من الهوس الذي لا يقدم عليه إلا مرضى العقول أو الحاقدون من مرضى القلوب ؟!

أنعم النظر في قوله جل شأنه : ﴿ فذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ! قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ! أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾^(٢) .

حضَّ الله نبيه على تبليغ رسالته غير عابيء بترهات القوم . فقد متَّعه الله بالعقل الراجح ، وأنعم عليه النعمة العظمى فاصطفاه لخاتمة رسالاته . فالذي متَّعه الله برجاحة العقل وأنعم عليه بالنبوة وأيده بالذكر الحكيم وقواطع الآيات ؛ ليس كاهناً يلقي نبوءات تذهب أدراج الرياح ، ولا مجنوناً مشوش الإدراك مختلط الكلام ، وما هو شاعر تتربصون به صروف الدهر حتى يهلك . ولئن ظننتم ذلك فإنه يتربص هلاككم . وفي هذا من وعيد الله بإهلاكهم ما لا يخفى !^(٣) .

(٣) روح المعاني : جـ ٢٧ ص ٣٠ - ٣١ .

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٢ .

(٢) سورة الطور : ٢٩ - ٣٤ .

ونص سبحانه وتعالى على تمييز القرآن عما سواه من كلام ، ككلام الكهنة والشعراء ، فقال سبحانه : ﴿فلا أقسمُ بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لَقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكرون . تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾ (١) .

إن المباشرة بين القرآن وبين كلام الكهنة ظاهرة . فمعانيه تنافي معانيهم وتدهضها ! وهدايته تنسف ضلالهم ! وأسلوبه الفذ المعجز لا يداينه بحال أسلوبهم !! وأحوال رسول الله وخصاله على النقيض من أحوالهم وخصالهم !! وذاك كله واضح جلي لا يتوقف على تأمل قطعاً . فأني لكم ادعاء مشابهته أو مماثلته!! (٢) .

فهل يُعقل - بعد هذا - أن يكون القرآن قد جاء قصداً على نهج كلام الكهنة تملقاً للعرب وإرضاء لرغبتهم ليكون أدعى إلى إيمانهم؟! كيف وقد تبرأ منهم ومن كلامهم وأزرى به؟! وإنما قدّم ذلك في نجوم قرآنية مكية متقدمة!

وبعد ، فهل ترى في تقوّل هذا المخلوق إثارة من البحث العلمي أو التحليل التاريخي الاجتماعي؟! فهل جاءك بجديد أم تجده سلك نهج سادته المشركين في البحث والتحليل والاستنتاج!!؟ فقد روى مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال : ان محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر . وقال عقبة : كاهن . فرد الله عليهم بقوله : ﴿فلا أقسم . . .﴾ الآيات . ألا يكفي المغرضين من المستشرقين وسيدهم هذا

(١) سورة الحاقة : ٣٨ - ٤٣ .

(٢) روح المعاني : ج ٢٩ ص ٥٢ - ٥٣ وتفسير أبي السعود : ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ وحاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٠٢ .

ولا يغيب عن بالك أن آية التحدي في سورة الطور أسبق في النزول من آيات الحاقة المذكورة . فالإشارة في الحاقة إلى الإعجاز في أسلوب القرآن أمر ظاهر .

علماء وفهماً أنهم أتباع كل ناعق جاهلي كذف تقوله حاقداً متعتاً؟؟

ومما لا يغيب عن بال عاقل أن كلام الكهنة لا يحوي شيئاً من أوجه إعجاز القرآن في قليل أو كثير . وقد أدرك هذا فصحاء العرب من المشركين ، فبادروا إلى الثناء عليه ثناءً منقطع النظير ، لا يطمع أي كاهن بمثله على كلامه . فهذا الوليد بن المغيرة يُنزه القرآن عن كلام الانس والجن ، ثم يقول : (إنَّ لقوله الذي يقولُ حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه لِيُحطم ما تحته) .

وهذا سيد آخر منهم : عتبة بن ربيعة ، ينطلق لاقناع الرسول بالعدول عن دعوته ، فيسمع منه آيات من القرآن فيرتد معظماً شأنه يربأ بنفسه أن ينسبه إلى الشعر أو السحر أو الكهانة ، فيقول : (إني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ . .) .

وهذا الشاعر أنيس الغفاري أخو أبي ذر رضي الله عنهما آمن بمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن كلاماً إلهياً . وقال : (لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون) رواه مسلم^(١) .

فهل بعد قرار فحول القوم وعقلائهم - من مسلمين وكتابين ومشركين - قديماً وحديثاً ينخدع عاقل بتقول يهودي أعجمي مأفون جاهل ؛ لم يبلغ في معرفة العربية رتبة مسيلمة الكذاب !؟
ولماذا أغفل ذكر أوجه الإعجاز القاطعة التي تقلق جحوده

(١) راجع النصوص الثلاثة ص ١٤٠ - ١٤٣ .

ونكرانه !!؟؟ وهل البحث العلمي النزيه هو الذي حدا به إلى تقوله ذلك أم
حقده ولؤم قومه؟؟

لقد كشف عن دافعه الأساسي للتشكيك بالقرآن بهجومه الأهوج ذلك
حين أعقب قوله الأول بما يلي :

(إذا ؛ القرآن هو الأساس الأول للدين الإسلامي ، وهو كتابه
المقدس . .) .

لقد أراد أن يهدم بناء الإسلام الشامخ كله في نفوس المسلمين
بتوهين يقينهم بأساسه الأول كتاب الله تعالى . ولكنَّ الله خيَّبَ أمله وفضح
تأمره وبدد جهوده أدراج الرياح .

(٢) زعمه ضعف بلاغة المدني من القرآن :

وانطلق (تسهر) يسهم مع غيره من المستشرقين في الخبط فزعم أن
السور المدنية قد انخفضت فيها البلاغة حتى صار بعضها نثراً عادياً .
ويستدل لرأيه بأن حِدَّة الوحي قد هدأت وأن البلاغة أصبحت شاحبة .

فأما زعمه أن القوة الخطابية للقرآن قد فترت حماستها في المدينة
بحكم المسائل والموضوعات التي عالجها . فليس في هذا - إن سلمنا
به - دليل على ضعف البلاغة . بل إن مراعاة مقتضى الأحوال هوعين
البلاغة ولُبُّها . فلا يصلح قوله دليلاً على انخفاض مستوى البلاغة ، إلا أن
يكون المتصدر للحكم من أمثال هذا المستشرق ، يُعوّل على قوة إيقاع
فواصل الكلم ، دون فهم لباب معانيه ومراميه وتأمل صورته وفنونه ﴿ كَمَثَلِ
الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهَمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ذلك مثل البهائم لا تستوعب من الكلام الذي تسمعه إلا

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

أصواتاً لا تدري لها معنى .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن في القرآن المدني آيات قوية قارعة فيها من حدة التهديد بعذاب النار ما يقض مضجع هذا الحاقد وأضرابه . قال تعالى في سورة النساء المدنية : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نُضِجتْ جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ (١) .

وفي القرآن المدني من القوة الخطابية الملهبة للحماسة ما حمل أصحاب محمد ﷺ على بذل أموالهم ومُهْجهم رخيصةً في سبيل الله ولم تزل آيات الجهاد قائمة بالشهادة على ذلك .

وبعد فكيف توصل إلى اكتشافه الهائل عن شحوب البلاغة في القرآن المدني ؟ هل درس فنون البلاغة العربية ونظر فيها حسب معاييرها . . ؟ هلا جاءنا بمثال واحد يثبت صحة ما يقول . . ؟ والحقيقة أن مصيبة هذا المخلوق ليس في جهله وحقده فحسب ؛ بل في جهله كذلك أنه جاهل . . وتلك هي المصيبة العظمى ؛ مصيبة الجهل المركب الذي سارت به الأمثال . . !!

ثم كيف يُبقي الرسول - لو كان الأمر له - آيات التحدي تُتلى على مسامع القوم صباح مساء إذا نزل مستوى القرآن - كما زعم الحاقد - إلى النثر العادي ؟ كيف والعدو يُؤلب عليه القبائل ويتسقط هفواته ويتدربص به الدوائر ؟؟!

(١) سورة النساء : ٥٦ . وانظر الآية ٥٧ وما شاكلها من الآيات التي تضمنت وعد المؤمنين بجنان وارفة الظلال . . . وتوعدت الكافرين بعذاب أليم فظيع مريع . وهذا اللون من الآيات المدنية يكذب المستشرقين وزعيمهم « تسهر » في زعمه أن الرسول قد تحول عن الاهتمام بالدار الآخرة إلى الأمناني الدنيوية . انظر العقيدة والشريعة ص ٣٨ - ٣٩ .

بل قل لي بربك أيستقيم في عقل عاقل لو نزل القرآن إلى مستوى الكلام العادي - حاشاه من ذلك - أن يأتي التحدي به قوياً قارعاً في المدينة يؤكد آيات التحدي السابقة ويقتصر في تحديهم على سورة واحدة؟!

أليس آخره آيات التحدي في سورة البقرة المدنية يفصح عن ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ويُصدر فيها الحكم عليهم بالعجز الأبدي ويكسوهم بثوب الخزي ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

ثم كيف تغفل العرب عن معارضته لو استشعرت قدرة على ذلك ؟ فلماذا لم تنقض أمره بذلك متفادية تجشم عناء الحروب وبذل الأموال والدماء؟! أيخفى على العرب هذا الأمر اليسير وهم في جلائل الأمور أهل الرأي والتدبير .

٣) إنكاره معجزات الرسول جميعاً :

لم يكف (تسهر) ذلك التسعف في نفي إعجاز القرآن ، بل استطالت عنقه بحكم المبادئ والوثائق العلمية التي لا يعلمها أحد غيره ، ليطلع على العالم بنتيجة لا نعلم أحداً قالها قبله؟! وهي : أن محمداً ﷺ لم تكن له معجزة قط؟! انظر إلى إقامته الدليل على ذلك إذ قال :

(ولقد كان « محمد » - على ما يبدو - مدركاً بإخلاص إدراكاً صحيحاً ضعفه الإنساني ، وكان يريد أن يرى فيه المؤمنون رجلاً له عيوب الانسان . ومن ثمَّ كان عمله أعظم من شخصه . ولم يشعر في نفسه أنه

(١) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤ راجع ص ١٢٠ - ١٢٢ .

قديس ، ولم يرد أنه يعتبر كذلك . . . بل كان ضعفه البشري هو ما جعله
يأبى أن يكون صاحب معجزات . على أن الزمان والبيئة قد سهلا له أن
تكون له صفة القداسة (١) .

ولا تعجب إن أعلننا ذلك - قبل أن نناقشه القول - أن أول نقض
لكلام هذا البحاثة المدهش قد ورد على لسانه هو بالذات !؟ فقد أنشأ
(تسهر) يقول :

(لقد قرر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الاتيان
بمثله ، ولذلك ينظر المؤمنون إليه هذه النظرة . بل يعتبرونه جميعه معجزة
إلهية حُقت بواسطة النبي ، ويرونها أكبر معجزة تدل على صدق رسالته
الإلهية) (٢) .

ألا تراه اعترف ببداهة ظاهرة أن محمداً ﷺ قد أعلن أنه صاحب
معجزات ، حين بين أن القرآن معجز ، بل بين أن القرآن أجل وأعظم
معجزة شاهدة على صدقه عند المسلمين . وفي هذا إقرار ضمني بأن
للسول معجزاتٍ أخرى دون القرآن، وأن ذلك مستقر في عقيدة المسلمين .
فهل رأيت في عمرك نقض كلامٍ أبلغ وأوضح من هذا النقض !؟
فلو أنه صدر على لسان رجل عامي لكان مستكراً مستهجناً ، فكيف إذا
تنطع به من يدعي أنه علامة باحث نزيه . . . !؟

لقد مرت بك معجزات للرسول ﷺ كثيرة ، وعرفت أقسامها ،
ورأيت أن القرآن قد نص على بعضها : كالإسراء وانشقاق القمر . . .

وقد تواردت الأحاديث الصحيحة بأنباء معجزات مادية كثيرة ، حتى
غدا ظهور المعجزات على يده ﷺ أمراً قطعياً لبلوغ أنبائه مبلغ التواتر .

(٢) العقيدة والشريعة ص ٢٢ .

(١) العقيدة والشريعة ص ٣٣ - ٣٤ .

بقي أن تقرر بنفسك ما إذا كان التواضع مع ظهور المعجزات هو من الضعف البشري؟! أم أن الغرور والخيلاء وتعظيم الدعوى في تلك الحال هو الانقياد للضعف البشري؟!

إن التواضع قوةٌ أخلاقية عظيمة راقية ، لا يتحلى بها إلا كُمَّلُ الرجال . فإذا حَلَّتْ في نفس امرئ محلَّ حبِّ التسلط والتكبر والغطرسة حين يغدو زعيماً مطاعاً ، فتلك منه قوة خلقية نبيلة فائقة سار بها على هدى الأنبياء والمرسلين .

ومحمد ﷺ قد تجمَّل بهذه الخلقة في أعلى مراتبها وأجلى صورها ، إذ قال لامرأةٍ قد هابتها (إنما أنا ابن امرأةٍ كانت تأكل القديد بمكة)^(١) وقد تمسك بإعلان القرآن عن بشريته ، فقال : (إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبد)^(٢) ولكنه بيَّن إلى جانب ذلك منزلته عند الله ومكانته بين الرسل ، فقال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . .) الحديث^(٣) .

٤ - زعمه اقتباس الرسول من العهد القديم :

أبت النوايا الدفينة إلا أن تشرئب بأعناقها ، فبدت معلنة عن

(١) أخرجه ابن ماجه (٢: ١١١٠) وهناد في زهده (رقم ٨١٤ تحقيق محمد أبو الليث الخير آبادي).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل والديلمي وابن أبي شيبة (١٣: ٢٢٥) وهناد في زهده (رقم ٨١١ و٨١٢) .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق - حديث ٢٢٧٨ - ج ٤ ص ١٧٨٢ . ورواه الإمام الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح - جامع الترمذي كتاب المناقب - باب في فضل النبي ﷺ - حديث ٣٦١٥ - ج ٥ ص ٥٨٧ . وفي كتاب التفسير - باب ومن سورة بني إسرائيل حديث ٣١٤٨ ج ٥ - ص ٣٠٨ - ٣٠٩ . ورواه أبو داود في سننه - كتاب السنة - باب في التخيير بين الأنبياء - حديث ٤٦٧٣ - ج ٤ ص ٢١٨ . وابن ماجه في سننه - كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة - حديث ٤٣٠٨ - ج ٢ ص ١٤٤٠ .

نفسها ، تقطع السبيل على كل تبرير باسم البحث العلمي النزيه ، والرأي المتحرر من العصبية الحاقدة الهوجاء ، لقد خرج اليهودي « تسهر » من إهابه وكشف عن بعض أهداف بحثه في القرآن ، حين عزا ما فيه من قصص حقيقي عن الأنبياء وأقوامهم - مما يثير الاعتبار والاتعاظ البالغ ويبعث على التأسى والافتداء اعتصاماً بالفضائل والقيم - أجل ! لقد عزا ذلك إلى كتاب اليهود إلى العهد القديم ، فقال : (لقد أفاد « محمد » من تاريخ العهد القديم - وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء - ليُذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة ؛ الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في طريقهم)^(١) .

ليس عجيباً أن يرسم أعداء الإسلام في خطتهم للقضاء على الإسلام نهج التشكيك في القرآن ، فيزعموا أن أخباره اقتباس من الكتاب المقدس . ولكن العجيب حقاً أن تجد بيننا بيغوات تردد هذا الزعم وتحاول نشره في بعض كتب التاريخ . وها هي الحقائق الناصعة تدمغ هذا الباطل وتزهقه :

أولاً : إن (تسهر) لم يأت على ذكر مثال واحد يثبت زعمه في اقتباس القرآن من العهد القديم . فقد كذب زيفه وتهرب كعادته من تقديم الدليل . وإن مرد التشابه - كما نعتقد - في بعض جوانب قصص القرآن الكريم مع ما في أسفار الكتاب المقدس إلى أنها تتضمن وحي الله إلى أنبيائه في الأصل ، وأنها وإن حُرِفَتْ لكنها لم تُمسَخْ كلياً ، بل بقي فيها بعضُ المعالم مما أنزل الله على رسله ، وإنه لمقدار يسير . وقد أورد الله في القرآن الكريم بعضه نقياً خالصاً من تحريف المغرضين وتضليل المضللين .

(١) العقيدة والشريعة ص ١٥ وانظر فيه ص ١٢ و ٢٠ .

ثانياً : إن النبي ﷺ أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق من رجال النصرانية واليهودية شيئاً : وهذه حقيقة تاريخية قد استوفينا بيانها ودلائلها^(١) . فلن نجد أي امرئ منحه الله قدراً من الفهم والعلم مسوغاً للجدل فيها . وان قصص الأنبياء وأممهم موجودة فيما نزل بمكة من القرآن ، قبل أن يلتقي الرسول ﷺ بأحد من أبحار اليهود . فلما قدم الرسول ﷺ المدينة عاداه أبحار اليهود ، وكتموا عنه كما كتّموا عن غيره من قبل أخبار التوراة وتعاليمها ، حتى قرعهم الله على كتمانهم دينه على الناس . قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ﴾^(٢) .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة القطعية الصارخة لم يتورع (تسهر) عن التعامي عنها واللجوء إلى سفيه المغالطات ، إذ قال : (كما صار رهبان المسيحيين وأبحار اليهود موضع مهاجمة منه وقد كانوا في الواقع أسانذة له)^(٣) .

فأنى له حين كان في منأى عنهم بمكة أو حين أقاموا بينهم وبينه حجاباً من حقدهم الأسود وعدائهم الصريح منذ دخل المدينة ، أن يتلقى عنهم أو يُدللوا له كتابهم !؟

فلو منحوه شيئاً من علومهم - فَرَضاً - ثم ناصبهم العداة أكانوا يستخزون لهجومه عليهم وتنديده بهم وفضحهم !! أم كانوا يطعنون في شخصه وفي رسالته بأنها قبس مما عندهم وأنه تلقى منهم ثم تنكر لهم !!؟

(١) راجع : نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢٥٧ - ٢٦٥ .

(٢) سورة المائدة : ١٥ .

(٣) العقيدة والشريعة ص ٢٠ .

فهل وجدتهم تجاه كشف القرآن مخازيهم وفضحهم إلا صاغرين؟؟!!

ثالثاً : إن أخبار القرآن عن غيب الماضي قد جاءت تصحح أخبار الكتب السابقة ، التي جعلها التشويه تنسب إلى الله من رديء الصفات ما يتنافى مع جلاله وكماله ، وتنسب للأنبياء ما لا يليق ، وتحط من مكانتهم . فجاء القرآن نقياً من تلك الشوائب ، وذكر ما اتصف به الرسل حقيقة من الكمالات التي نشأهم الله عليها ، ليكونوا خير قدوة للناس .
وها أنت تقرأ أمثلة تشويهم وضلالهم :

أ - ضلال أصحاب العهد القديم في صفات الرسل :

(١) قص الله علينا قصة نوح عليه السلام في القرآن مثلاً في الصبر واحتمال أذى القوم وسخريتهم منذ فجر الحياة الإنسانية ، وأنه أبو البشرية الثاني ، إذ نجاه الله ومن آمن معه من الطوفان .

بينما تجد لنوح في العهد القديم في سفر التكوين - الأصحاح التاسع - قصة فظيعة مدهشة ، فقد ورد فيه أنه : (شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام - أبو كنعان - عورة أبيه وأخبر أخويه : سام ويافت . فأخذوا الرداء ووضعاه على أكتافهم ومشيا إلى الورااء وسترا عورة أبيهما ، فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمرة علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لآخوته) ثم فصل دعوته بأن يكون نسل كنعان عبيداً لنسل سام وعبيداً لنسل يافت . انتهى (١) .

فهل هذه صورة نبي معصوم قدوة ، سكر فعربد فتعرى ، ثم كافأ من

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين - الأصحاح التاسع - الفقرة : ٢٠ - ٢٧ ، بإيجاز - نشر جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى - ساحة النجمة - بيروت .

أحسن إليه بجزء سنمار ، فجعل اللعنة والذلة والعبودية في عقبه إلى يوم
القيامة . . ؟! فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! إنه جزاء يستنكره
الإنسان بطبعه السليم ولو لم يكن يعرف ديناً . قال الشاعر :

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكته وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمردا
فحاشا نوحاً نبي الله ومصطفاه لهداية البشرية من فعل جهالة قبيحة
نكراء .

(٢) وهذا سيدنا لوط عليه السلام ، فقد قص القرآن على العالمين
صموده ضد الفجور والعصيان ، فقد ذاق مر الأذى في سبيل قمع الفجور
والشذوذ الجنسي ، بينما تجد في العهد القديم في سفر التكوين أيضاً أن
ابنتي لوط - والمفروض أنهما ربيتا على العفة والطهر - قد سقتا والدهما
خمرأ ، فاضطجعت البنت البكر مع أبيها لوط في الليلة الأولى ، ولم يعلم
باضطجاعها ولا بقيامها ، واضطجعت الصغيرة معه في الليلة الثانية . .
فولدت البكر ابناً ودعته : مؤاب . وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، وولدت
الصغيرة ابناً دعته : بن عمي . وهو أبو بني عمون إلى اليوم^(١) .

(٣) وتجد العهد القديم يحكي عن بعض الأنبياء ، كيعقوب
عليه السلام ، اتباع اسلوب من المخادعة والتلاعب ، لا تجد له في
مستوى ذوي المروءة من العامة نظيراً ، فكيف بمن يُعدهم الله ليكونوا أهلاً
لتلقي وحيه والقيام بأعباء دعوته؟!^(٢) .

انظر في الأصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين تجد فيه :
(إن إسحاق لما شاخ وكلت عيناه عن النظر دعا ابنه الأكبر عيسو ، وأمره

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين - الأصحاح التاسع عشر - الفقرة : ٣٠ - ٣٨ بإيجاز .

(٢) سبق لنا البحث في عصمة الأنبياء بعد النبوة وقبلها في : (نبوة محمد ﷺ في القرآن

ص ٢٤٩ - ٢٥٦) .

أن يتصيد له صيداً ويصنع منه طعاماً ليباركه قبل وفاته . فسمعت ذلك أمه رقيقة ، فأمرت يعقوب ابنها الثاني أن يذبح جديين جديدين من الماعز ليأخذ بركة أخيه عيسو من أبيه قبل وفاته . وخشية من اكتشاف إسحاق الخدعة واستبداله اللعنة على يعقوب بالبركة ، فقد ألبسته أمه ثياب أخيه عيسو . ولكن عيسو رجل أشعر ويعقوب أملس ، لذا فقد ألبست أمه - أيضاً - ملاسة يديه وعنقه جلود الجديين . فقدم يعقوب الطعام لوالده إسحاق ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عيسو بكرك ، فقال : تقدم لأجسك يا ابني ، أنت هو ابني عيسو أم لا ؟! فلما جسّه قال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . فباركه ، ودعا أن تستعبد له شعوب وتسجد له قبائل ويكون سيداً لإخوته ويسجد له بنو أمه .

ودخل عيسو على أبيه بعد خروج أخيه فقدم له الطعام مما اصطاد ، فلما اكتشفا الحيلة صرخ عيسو صرخة عظيمة ؛ مرة جداً . وقال لأبيه : باركني أنا أيضاً يا أبي . فقال إسحاق : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : أما بقيت لي بركة !!؟ فقال إسحاق : قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً . . فقال عيسو : ألك بركة واحدة فقط يا أبي !! باركني أنا أيضاً ، ورفع صوته وبكى . فأجابه إسحاق : يكون مسكنك بدون دسم الأرض ولا ندى السماء ، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد (١) .

أرأيت كيف صار نيل البركة قنصاً وبالخدعة أيضاً بالأعمال الصالحة ؟!

أم رأيت كيف حاز إسحاق الوصاية على بركات الله يمنحها للمخادع اللثيم ؟! أم رأيت كيف يكون الأنبياء - الذين اختارهم الله لرسالته - من

(١) سفر التكوين - الاصحاح السابع والعشرين - بليجاز .

البلهاء الذين لا يفرقون بين جلد الماعز وجلد الإنسان ، ويكونون سُذجاً
معاندين فيصرون على معاينة المحسن ومكافأة المحتال المسيء ،
ويفرقون بين الأخ وأخيه ، ويرتضون لأولادهم البررة الذلّ والهوان؟! وإذا
كان الأنبياء كذلك ، فمن هم الظلمة والسخفاء . .؟! ولماذا اختارهم الله
وبعثهم إذن . .؟!؟

٤) وحبذا لو طالعت بنفسك كيف عاش يعقوب قصة غرامه مع
راحيل ابنة خاله ، فقد قبلها مذراً أول مرة ، ثم خدم خاله سبع سنين
مهرأً لها ، فقدم له ليلة زفافه أختها الكبرى ، فلم يشعر بها مع أنها كانت
غير جميلة ومريضة العينين!! ثم تزوج من راحيل بسبع سنين آخر^(١) . .

٥) ويا ليتك قرأت بنفسك أيضاً كيف خدع نبي الله يعقوب خاله
«لابان» فاستولى بذلك على أكبر قسط من ماشيته . إذ جعل ماشية خاله
تقف أمام قضبان مخططه في أجران المياه وهي وحى ، كي تنتج ماشيةً
مخططة!! فيفصلها عن ماشية خاله ليُلحقها بماشيته ، فصار بذلك ذا ثراء
واسع^(٢)!!

النزعة العدوانية في الشخصية اليهودية :

هذه النصوص الملفقة في العهد العتيق لها نظائر كثيرة تستعصي
على الحصر في هذا المقام . وهي تفسر لك مظهراً خطيراً في الشخصية
اليهودية .

تأمل فيه موقف نوح الذي يقابل الإحسان بالإيذاء! ثم تأمل مواقف
اليهود من الشعوب الأخرى على مر العصور؟! كذلك اليهود على
الدوام!! واذكر فيه موقف ابتي لوط ثم لاحظ مواقف بنات إسرائيل في

(١) التكوين - الاصحاح التاسع والعشرون .

(٢) سفر التكوين الاصحاح ٣٠ - ٣١ .

كل مكان وزمان . هل تجدها في أوج العفة والطهر !!؟ ولا تخفى عليك المخاتلة والخديعة في المواقف المنسوبة إلى يعقوب « إسرائيل » - حاشاه وحاشا الأنبياء جميعاً - ثم لاحظ كيف تثير التصرفات اليهودية عبر الزمان اشمزاز الإنسانية ، لما استقر فيها من نزعة عدوانية .

وإن الدراسة الموضوعية لتكشف عن جذور هذه النزعة وبواعثها في التلفيقات الخبيثة في التوراة والتلمود ، وإن هذه التلفيقات في حد ذاتها خطيرة جداً ، إذ هي عدوان على الدين نفسه !

فتأمل أيها العاقل ! كيف عبث هؤلاء بدينهم وحرّفوه واعتدوا على مكانة أنبيائهم بالذات ، فهل ترتقب منهم أمانة وموضوعية في دراسة أي دين آخر؟! فضلاً عن الدين الإسلامي الذي ينسخ دينهم ويفضح حباثتهم؟! وهل تنتظر منهم الأمم بعد هذا أمانة وتعاطفاً في رعاية مصالحها؟! وهل يتوقع أحد من المسلمين أن يلقي منهم أمناً وفاقاً وسلاماً صادقاً مع وجود أمثال هذه النصوص في ديانتهم؟ اللهم إلا أن يكون من الحمقى المغفلين !!

ب - ضلالهم في معرفة الله تعالى :

وهذا أمر يطول تقصّيه ، وحسبك منه ما قد قرأت ، لكننا نطلعك على تصور مُحرفي الكتاب المقدس للصفات الإلهية ، فقد نسبوا قوم أخوال يعقوب إلى الشرك ، فإن راحيل زوج يعقوب هي ابنة خاله لابان . وقد سرقت أصنام أبيها حين هربت مع زوجها بعد أن عاش يعقوب لديهم عشرين سنة . كما يعطيك صورة أخرى عن (الله) بأنه الإله الخاص بإبراهيم وعقبه ، فليس هو إله العالمين؟! كذا قال يعقوب : ﴿ لولا أن إله أبي إله إبراهيم وهيبة إسحاق كان معي ﴾ (١) .

(١) التكوين (٣١ ٢٠ و ٢٩ و ٣٠ و ٤٢) .

لا ريبَ أن الأدهى من ذلك والأفدح مرارةً ، تلك النزعة الوثنية التي تصور الله تعالى ذا جسم بشري أضعفَ من مخلوقاته : (فبقي يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب « الإنسان » حُقَّ فخذ يعقوب ، فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال « يعقوب » : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب . فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك ! فقال : لماذا تسأل عن اسمي ! وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فيثيل قائلاً : لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونُجيت نفسي . . لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضُرب حُق فخذ يعقوب على النساء^(١) .

وبعد ، فهل يقول امرؤ يتمتع بملكاته العقلية وسلامة مشاعره وأحاسيسه بأن القرآن يُحتمل أن يكون فيه اقتباس من هذه المفتريات؟! فهل هذه الصفات تليق بالإله؟! سبحانه وتعالى عما يصفون! وهل بينها وبين صفاته في القرآن الكريم أدنى تقارب؟ وهل ترى التشابه والاقتباس في قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾^(٢) وما أكثر ورود ذلك في القرآن .

فالله قوي قادر لا تغلبه قوة من قوى الكون ، فهو خالقها المهيم عليها . وهو الغالب على أمره لا مردَّ لحكمه ﴿ إنَّ الله عزيز حكيم ﴾^(٣) وكل ما في الوجود مقهور له مغلوب لارادته ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو

(١) سفر التكوين - الاصحاح : ٣٢ - فقرة ٢٣ - ٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٠ ومواطن كثيرة .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٠ ومواطن كثيرة .

الحكيم الخبير ﴿١﴾ وهل ترى أي أثر في القرآن لتصوير الإله أنه ذو جسم انساني يصارعه يعقوب أو يصارعه داود فيمسك به من خصيتيه فيقهره ويخضعه لأمره ، كما نص الكتاب المقدس !؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ! يقولون على الله الكذب ويخرفون بما لا يعرفون ، فيزعمون اقتباس الحق من الباطل والنور من الظلام . . ! فهل وجدوا ذلك الاقتباس في القرآن في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ﴾ (٢) !؟ إن المباينة بين صفات الخالق وصفات المخلوق جلية ماثلة في القرآن ؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وما يقارن عاقل بين أخبار القرآن وأخبار الكتاب المقدس فيتمالك نفسه من الهتاف : أين الثريا من الثرى !؟ لكن تلك الزمرة المتعصبة الحاقدة قد طمست على قلوبها نعرات لؤم وغيظ فأعمت عيونها وأصمّت آذانها ؛ لم تفهم ولن تفهم شيئاً من هذا الحق الصراح ﴿ ومنهم من يستمعون إليه أفأنت تسمع الضمّ ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظروا إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون !؟ ﴾ (٣) .

رابعاً : إن قصص الكتاب المقدس يبعث في الصدر كآبة وضجراً :

وليس كذلك كلام الإله قطعاً . . وإذا أردت حقيقة قصص رب العالمين عن الغابرين ؛ فاقراها في القرآن الكريم تجد صور الكفاح والتضحية والفداء والصبر على المكاره في سبيل الله من غير طمع في غنم مادي ، بل احتساباً لما عند الله ، وتجد فيه قصصاً ترقق القلب وترهف الحس ، وتبث في الفؤاد عظمات فاعلة مؤثرة ، تحمل على الاعتصام

(١) سورة الانعام : ١٨ وانظر فيها الآية : ٦١ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) سورة يونس : ٤٢ - ٤٣ .

بالفضائل والقيم إيماناً بالله ؛ وتأسياً واقتداءً بالهداة إلى الله . وليس من داع لسوق أمثلة على ذلك ، فكل القصص القرآني شاهد عليه . وقد اعترف به « تسهر » وأشار إليه في نصه الماضي .

فهل - بعد هذا - يستوي الحجر والجوهر ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ (١) .

خامساً : لقد فصل القرآن الكريم ما ورد في تلك الأسفار مختصراً وأوضح ما كان غامضاً ، وذكر أخباراً لم ترد فيها وصحح ما عبث به أهواء المحرفين . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب الحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ﴾ (٢) .

وقد ذهب ابن عباس ومجاهد وغيرهما إلى أن المهيمن : الأمين ، فالقرآن أمين على كل كتاب قبله . وروي عنهما أن معنى (مهيماً) : شهيداً ، وقيل : حاكماً على ما قبله من الكتب . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله . وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب ؛ خاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها . تكفل الله تعالى أن يحفظه ، فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٣) ولم يتكفل الله بحفظ الكتب السماوية

(١) سورة فاطر : ١٩ - ٢٢ .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة الحجر : ٩ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٥ .

السابقة ، فإنه تسامت حكمته ، قد جعلها مراحل انتقالية قبل نزول القرآن .

إن بين نسق القرآن وأسلوبه ومضمونه وبين نسق وأسلوب ومضمون غيره من الكتب السماوية أبعَدَ مما بين السماء والأرض . ولهذا التباين الشاسع الجليّ الواضح ؛ انسابت قريحة الشاعر بحق فقال :

الله أكبرُ إنَّ دينَ محمدٍ وكتابه أقوى وأقومُ قيلاً
طلعتْ به شمسُ الهداية للورى وأبى له نجمُ الكمال أفولاً
لا تذكروا الكتبَ السوالف عنده طلَعَ الصبأحُ فأطفئ القنديلاً

سادساً : اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس :

مهما قلبت النظر في كتاب الله المجيد فلن تجد حياة الرسول اليومية مدونةً فيه ، يحكيها أحد من أصحابه أو أتباعه من بعده ، كما أنك لا تجد فيه أخبار أصحابه وتنقلاتهم من بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فالقرآن كله كلام الله تعالى محفوظ من الدخيل والتغيير والتبديل . بينما تجد معظم الكتاب المقدس تاريخاً لبني إسرائيل من وضع وتعديل الذين دونوا الكتاب المقدس وتناقلوه ، ففيه حياة رسلهم تكتب من بعدهم محكية على لسان بشري غير منسوبة إلى الله ، وفيه أخبار الأبحار والرهبان والملوك وحتى أخبار حواربي عيسى عليه السلام وأعمالهم من بعده . فكيف يكون هذا كله من وحي الله إلى أنبيائه في بني إسرائيل؟! والواقع أنك لا تجد فيه من الكلام المنسوب إلى الله إلا جزءاً يسيراً لا يساوي نصف معشاره في تقديرنا !

لو أنك رتعت في رياض الذكر الحكيم لألفت القصص القرآني متسقاً مؤتلفاً . فإن الله جل جلاله قد أورد القصص في سور متعددة . وإنك لتجد جوانب القصة الواحدة في عدة سور ؛ للعظات الكثيرة فيها ،

لكنك تليفها متكاملة مؤتلفة على الرغم من تعدد مواطن ورودها وتباعد
أزمان نزولها ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

وإذا قارنت بين قصص الكتاب المقدس تصاعدت منك الزفرات
وتعالت الآهات واعتراك الضيق من التناقض الواقع فيها ، ولسنا نحب
الاطالة عليك ، فهذه أمثلة يسيرة بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى كبير تأمل
أو تحليل لاستبانة التضارب فيما بينها :

أ - التناقض بين العهد العتيق والعهد الجديد :

يفيد العهد الجديد أن سليمان بنى البيت للرب بعد خروج بني
إسرائيل من مصر بنحو ٥٩٥ سنة . بينما نصّ العهد القديم على ما يلي :
(وكان في سنة الأربع مائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر
في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر
الثاني أنه بنى البيت للرب) (٢) .

ب - التناقض بين نصوص العهد الجديد :

بل نسوق إليك نموذجاً للتناقض بين نصوص انجيل واحد من
أناجيله . فهذا انجيل يوحنا ينسب إلى السيد المسيح أنه قال :
(إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً) (٣) .

ثم يسرد إنجيل يوحنا : (ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً : أنا هو نور
العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة ، فقال له

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) انظر العهد الجديد : أعمال الرسل : ١٣ : ١٧ - ٢٣ والعهد العتيق : الملوك الأول :
١ : ٦ .

(٣) انجيل يوحنا : ٥ : ٣١ و ٨ : ١٢ - ١٤ .

الفريسيون : أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقاً ، أجاب يسوع وقال لهم : وإن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق (١) .

ج - التناقض بين نصوص العهد العتيق :

وإليك أيضاً نموذجاً للتناقض بين نصوص سفر واحد من أسفاره . فهذا صموئيل الثاني يقول : (ولم يكن لميكال ابنة شاول ولدٌ إلى يوم موتها) (٢) ويقول : (فأخذ الملك ابني رصفة . وبنى ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل بن برزلاي المحولي) (٣) .

فهل يعقل أن تصدر هذه الأقاويل المختلفة المتناقضة عن مقام الله العليم الحكيم ؟ وهل يمكن للقصص القرآني الفائق المتناسق بعظاته العميقة البليغة أن ينبثق عن ذاك الخضم العكر بالتناقض المتطاحن ؟! حاشا لله ، لا جرم أنهم يفترون على الله الكذب ساء ما يعملون .

فهل يصغي هذا الصنف من المستشرقين وأذئابهم لصوت الحقيقة ؟ وهل تفتح أجنانهم لنور الحق الرباني المبين ﴿ أفأنت تُسمع الصمَّ أو تهدي العميَّ ومَن كان في ضلال مبين ﴾ (٤) .

وبعد فقد استبان لك زيف تقوُّل الخصوم . فهل مع هذه الحقائق جميعاً يتشكك المتشككون ؟! ﴿ فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٤) .

ولماذا الرد على المستشرقين ؟؟ إن تعريب ونشر بعض كتبهم في البلاد العربية وانتشار مؤلفاتهم باللغات الأجنبية أيضاً بين الشبان المسلمين

(١) انجيل يوحنا : ٥ : ٣١ و ٨ : ١٢ - ١٤ الفريسيون : طائفة وخيمة من اليهود .

(٢) صموئيل الثاني : ٦ : ٢٣ و : ٢١ : ٨ .

(٣) سورة الزخرف : ٤٠ .

(٤) سورة الحج : ٤٦ .

الذين يمموا وجوههم شطر تلك البلاد قد عرّض الكثيرين منهم للفتنة وخاصة الذين لم ينشؤوا في بيئة علمية اسلامية ، فانخدعوا بترهات المستشرقين وتخاريفهم . فصار الرد عليهم فرضاً شرعياً لا مناص من أدائه وواجباً تمليه الأمانة العلمية . وهذا ما قصدنا أداءه . ونسأل الله أن يُلهم متقني اللغات الأجنبية المؤمنين القيام بواجبهم في هذا المضمار فيترجموا ما تدعو الحاجة إليه من أبحاث ومناقشات .

إن الموقف من آراء المستشرقين - الذين لم يعلنوا إسلامهم - موقف حساس دقيق . ومسلكتنا أن نستشهد بالأقوال السليمة للمنصفين منهم ، ونتقد ما تورطوا فيه من أخطاء ، وبهذا تكشف فاعلية الدين الحق على الآخرين ، ولو لم يكونوا مسلمين « والفضل ما شهدت به الأعداء » . أما المخادعون من المستشرقين فلا هوادة في تقريرهم وفضح مكائدهم . لكن من عجيب المفاجآت المخزية أن تصطدم في بعض الكتب الإسلامية بنصوص لهذا المستشرق « تسهر » يستشهد بها مؤلفوها استحساناً وهم يكيلون له الثناء الحسن الجميل !! وايم الحق إنها لسذاجة بلهاء وجهالة نكراء ! ألم يطلّع أولئك المؤلفون البسطاء على ما احتفروه في كتبه من مجاري الشعبذة والدجل والمراوغة !!؟ أما رأوه يكيل التهم جزافاً بأسلوب من الطعن والشتم لا يرتقي إلى مستوى أحقاد أولاد الشوارع !!؟ ﴿ ويلٌ لكل أفاكٍ أثيمٍ يسمعُ آياتِ اللهِ تتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشرهُ بعذابِ أليمٍ ﴾ (١) .

(١) سورة الجاثية : ٧ - ٨ .

الفصل الرابع آثار القرآن المجيد في اللغة والأدب والبلاغة والنقد

- توحيد اللغة العربية ومد سلطانها في العالم .
- تهذيب ألفاظها والتجديد في معانيها .
- إرساء قيم جديدة روحية وفكرية وإنسانية .
- نشأة علوم اللغة ونموها وازدهارها .
- نمو النقد الأدبي واستقرار مقياسه .
- حماية البيان العربي من التدهور .
- بحوث هامة في علم الجمال وعلم النفس الأدبي .

الأدب السامي الرفيع عامل هام من عوامل نهضة الأمة وعنصر فعال في توجيهها اتجاهاً قوياً وفي تقدمها وازدهارها وسلامة نظرتها إلى الحياة والمجتمع . والقرآن - إلى جانب صفته الدينية - هو النموذج الأدبي الأمثل الذي عمل بفاعلية رائعة في نفوس الصحابة وتابعيهم في القرنين الأولين ، ولا يزال تهوي إليه أفئدة الأدباء ويحط الرحال عنده المنصفون العقلاء . لقد قام القرآن العظيم بدور بليغ عميق في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي عند العرب . فإن المعجزة القرآنية الباهرة استعلت على جميع المواهب الأدبية العريقة ، ونشرت أنوارها في أرجاء الجزيرة العربية جميعاً ، وبزغت على شعوب العالم ، فأدت إلى انقلاب واسع في اللغة العربية وإلى رقي بارز في أدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي فيها . وإليك أهم آثار القرآن باختصار مفيد :

١) استنقذ القرآن المجيد العرب من شتات اللهجات القبلية الكثيرة ، فعمل على تقارب اللهجات وائتلاف ألسنة أهلها بالنطق بأفصح لهجات العربية ، فقد نزل الله القرآن بلهجة قريش ، وراعى أهم الفوارق اللغوية بين اللهجات العربية فأنزل القرآن على سبعة أحرف^(١) ، فانتشرت العربية القرشية في مشارق العالم الإسلامي

(١) تعرضت لتبيان ذلك تفصيلاً في بحث (الأحرف السبعة في القرآن) ولعل الله ييسر نشره قريباً .

ومغاربه ، فإن تلاوة القرآن فريضة اسلامية على كل معتنق للإسلام . ولم يزل المسلمون يقبلون عليه بلهفة وحرص ، يتلونه أثناء الليل وأطراف النهار ؛ صغاراً وكباراً ؛ نساءً ورجالاً ؛ في ردهات المدن والمساجد ؛ وفي أغوار الصحارى النائية وذرى الجبال الشاهقة ، حتى صارت جماهيرهم - من عرب وعجم - حُفَاطاً للكتاب العظيم ، فاعتصموا بطابعه اللغوي الرائق السلس . وأحلّوا لهجته محل لهجاتهم الأولى .

وهكذا جمع القرآن العرب على لهجة قريش مراعيّاً أكثر الفوارق انتشاراً بين القبائل العربية ، فأدى إلى وحدة اللغة العربية ، كما مدّ سلطانها في آفاق القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، حتى شملت معظم العالم القديم . وحفظها من الضياع وأبقاها غضة طرية خالدة على مر العصور وكر الدهور فأقام بين الأجيال الإسلامية صلة وطيدة وثيقة ، لا تنحل عراها مهما تطاول بينهم الزمان . وتظهر لك في هذا المقام روعة فضيلة القرآن على العرب والعربية وعلى المسلمين قاطبة إذا ذكرت انقسام اللغة اللاتينية إلى عدة لغات مختلفة : الفرنسية والإيطالية والاسبانية ، وذكرت انقسام شعوبها ؛ وانقطاع حبل التفاهم بين أجيالها لتطور لغاتهم وتناثيها في كل جيل .

(٢) هدّب القرآن اللغة العربية من الحوشي والغريب فأحالها إلى لغة صافية شفافة جذابة . . فقد انتهج القرآن أسلوباً زاهياً أنيقاً جزلاً ، له حلاوة وعليه طلاوة ، يستصغي الأذان ويلامس شغاف القلوب ، فجاء سلساً مبيناً معجزاً ببيانه وبلاغته .

وإذا كانت الجيوش الإسلامية الباسلة قد فتحت أعتى القلاع واخترقت أمنع الحصون ؛ فإن القرآن العظيم قد افتتح مغاليق القلوب ، فجهش الناس في الآفاق نحو لغة القرآن مأخوذين بروعتها وجلالها ذاهلين عن لغاتهم الأصلية .

(٣) أدخل القرآن على العرب معاني جديدة ما كانوا يعرفونها ولا يعرفون التعبير عنها : فهناك ألفاظ ابتدأها القرآن ابتداء : كالإسلام والايمان والفرقان والشرك والكفر والنفاق ؛ والصوم والصلاة والزكاة . . . وهناك المضامين الحسية الشيقة الخالدة ، مثل لفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، واشتقاق الأدلة العقلية الملزمة مثل البراهين الدالة على وحدانية الله وعظمته وقدرته ووجوب عبادته وحده لا شريك له ، واعتمد القرآن في ذلك على تفتيح الأفكار وإثارة الوجدانات والمشاعر والأحاسيس ليرسي في حنايا الضمائر إيماناً صادقاً و يقيناً بالحق صادعاً . وإذا تصورت الحياة القبلية البدائية المتشاحنة قبل الإسلام أيقنت أن القرآن المجيد قد وضع حياة العرب الاجتماعية وحياة المسلمين من كافة الشعوب أمام أمور عظام لم ترن إليها من قبل أبصارهم ولم تستشرفها خواطرهم . فهذا نظام حكم شوريّ عادل رصين ، وتلك أحكام سديدة للجهاد والمعاهدات والحرب والسلم ، وذاك نظام المال « كي لا يكون دولةً بين الأغنياء منكم »^(١) وذاك نظام التكافل الاجتماعي يستأصل الفقر ويجتث الحرمان ويزيل الفوارق ويحل الحب والوحدة محل البغضاء والانقسام ، وذاك نهج سعادة كل فتى وفتاة وكل امرأة ورجل يفيض به نظام الأسرة الذي أرسى قواعده القرآن المبين .

فالقُرآن العظيم نزل في مائة وأربع عشرة سورة أنزلها علام الغيوب بياناً فريداً بديعاً معجزاً في عبائه ومعانيه ؛ في شكله ومحتواه على حد سواء .

(٤) اعتاد العرب على مواسم وأسواق يقيمونها في مواطن من جزيرتهم ، وكانت وفودهم تلتقي في تلك المناسبات ، وأهمها موسم

(١) سورة الحشر : ٧ .

الحج ، وكانت تتخلله ثلاثة أسواق هامة تقام قريباً من مكة ، وهي سوق عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز . ائتلفت وفود قبائل العرب قاطبة على زيارة هذه الأسواق ، تحمل إليها تجارتها كما يحمل إليها فصحاؤها ما فاضت به قرائحهم وجاشت به مشاعرهم من خطب وقصائد وحكم وأمثال ، حتى صار كل سوق مجمعاً أديباً لغوياً رسمياً ، له محكمون تُضرب لهم القباب من الأدم^(١) . وكثيراً ما تنشب بين فرسان البيان منافسات حامية اللوطيس ، ينقسم فيها أهل الأدب إلى جهات متخاصمة ، ينحاز إلى كل منها أنصار ومؤيدون ، وتشابك فيها الحجج والدلائل . . . دون أن يقدم التحكيم قولاً حاسماً يفض المنازعات البلاغية ، إذ كانوا يعتمدون على الذوق والفترة السليمة ، ولم يكونوا مجمعين على نموذج أدبي أعلى يتخذونه مقياساً في تمييز الأوضح والأبلغ . وبالتالي لم تكن لديهم قواعد وضوابط بيانية يجديهم الرجوع إليها قليلاً . فكانوا يذهبون في ذلك مذاهب شتى . وتهدأ المنافسات وتتبدد المناقشات دون أن تسفر عن حكم متفق عليه . فالباحث يقف بهذا على أن ألفاظ الفصاحة والبلاغة وجمال التعبير ؛ أُطلقت ولم تستقر على معاني ثابتة ، ولم يتخذ كل منها مدلولاً واضحاً تحط عليه آراء القوم ، بل كانت كل قبيلة ترجح ما تميل إليه نفوسها وتسوغه أذواقها .

فهل لهذا التفرق من تلاق ؟!

لما فاجأهم القرآن بسلسيل بيانه وعقدت الدهشة ألسنتهم من تفوق بلاغته وجلال مكانته ؛ خضعت له أعناقهم وأذعنات أذواقهم ، وأيقنوا أن لا سبيل إلى مجاراته أو الانتقاص من سمو شيء منه ، فانقادت إليه ملكاتهم وسجاياهم ، وسارعوا ينهلون من بحر بيانه ،

(١) انظر أسواق العرب في الجاهلية والإسلام - للاستاذ العلامة سعيد الأفغاني ص : ٢٧٧ -

وينحون على شاكلة مناحيه ، ولكن هيهات أن يقاربوا شأوه !! وأقبلوا على دراسة ملامح الجمال الأدبي فيه يستجلون أسرار إعجازه ، حتى استخلصوا منه قواعد البلاغة والفصاحة . فكان القرآن لهم المثل النموذجي الأسمى ؛ والمقياس المثالي الذي أجمعت القلوب والأذواق على الركون إليه والاحتكام إلى بيانه .

فصار لزاماً على كل دارس للعربية أن ينعم النظر في دراسات إعجاز القرآن العظيم ، ويرتشف من منهل أدبه السماوي الخالد .

٥) لا تزال آثار القرآن البليغة تترى في ألوان الأدب العربي ؛ شعراً ورجزاً وحكمة وخطابة ونثراً . فقد تأثرت جميع فنون الأدب العربي بالقرآن العظيم شكلاً وموضوعاً . إذ ظهرت فيها جميعاً تعابير وصور ؛ بعضها مقتبس من القرآن وبعضها يصطبغ بصبغته وينسج على منواله . أما الموضوعات فبعضها جديد بالكلية كالتصوف والزهد ، وبعضها دخله التجديد والقوة والحيوية كالحماسة ، لكن جميع الموضوعات تأثرت بالقرآن تأثراً بيناً لا مرأى فيه ، إذ ظهرت فيها قيم جديدة كثيرة روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية مستقاة من القرآن بحرص مرهف وتقديس ظاهر .

ذاكم أمر بدهي لا يماري فيه باحث ، فالقرآن كلام الله العظيم يتبوأ في نفوس المؤمنين المقام الأول من القدسية بعد الله جل جلاله . وقد أوردته عليهم في منزلة عالية من البلاغة ، تحدى به سلاطين البيان العربي ، فأذهلهم حتى أسقط في أيديهم ولم يُحروا جواباً ، بل استأثر منهم بالعناية العظمى حتى صار أول كتاب مدون في تاريخ اللغة العربية . يعكف العلماء على دراسته وتدرسه ، ويعترف من فيضه عامة المسلمين ، يكثرون تلاوته ويستحفظونه أنفسهم وأبنائهم على نطاق واسع وبإقبال عجيب لم يقع مثله في تاريخ الإنسانية !! فطبيعي أن تسير

حركات التدوين والتأليف في أنواره ، متأثرة ببلاغته مدعنة لسطوة بيانه ، حتى اكتست من أشعته حياة العرب الفكرية والأدبية والاجتماعية .

٦) سيطر القرآن على الملكات الأدبية واجتذب اهتمامها وعنايتها ، إذ رأت فيه أبلغ الأساليب وأروع الخصائص الأدبية ، فاعتنى العلماء بلفظ القرآن من نواحي مختلفة . قاموا بدراساتهم لتحديد مدلوله ومعناه ، فقدموا بحوثاً في غريب القرآن خاصة وغريب اللغة العربية عامة ، فظهرت مصنفات قرآنية ولغوية متنوعة ، ودرسوا تركيب الألفاظ لتؤدي جملة ذات معنى ، فظهر علم النحو . وبحثوا في البناء الداخلي للفظ ذاته فقدموا علم الصرف . ثم درسوا أنماط التعبير الفني في القرآن فأنشؤوا علم البلاغة « البيان والمعاني والبدعي » .

وهكذا انتشت هذه العلوم بذورها في كنف القرآن المجيد ، واستهدفت جميعها غاية أصيلة جليلة هي خدمة القرآن العظيم ، ليصار إلى حسن تفهمه ودقة الاستنباط منه واستجلاء مواطن الجمال والروعة البلاغية في بيانه المعجز ، ولهذا السبب أطلقوا عليه جميعاً اسم « علوم الآلة » . فلا جرم أن الفضل في نشوء علوم اللغة ونموها وازدهارها عائد إلى القرآن المجيد ذاته . فالقرآن هو الحاكم المهيمن على هذه العلوم ، والكلمة منه حجة لها أو عليها ، وليس لها من سبيل عليه ، وهذا أمر جللي واضح . ومن عجب أن يتوهم بعض الجهلاء غير ذلك ، فيتشددون مفتعلين إشكالات بين نصوص القرآن العظيم وقواعد اللغة العربية !! وذلك لأنهم غفلوا أن ليس عليه من سلطان وأنه هو المهيمن عليها الحاكم فيها ! فالشاهد القرآني هو الحكم الفصل بين مختلف الآراء في كافة علوم اللغة . والعلماء الذين استخلصوا تلك العلوم وصنّفوها يوردون الشاهد القرآني أولاً ، فإن له المنزلة العليا على الدوام .

٧) اقتصرَت الدراسات القرآنية العربية في البداية على بيان معاني غريب القرآن لاستنباط الأحكام الشرعية منه ، فانصبَت العناية على التفسير اللغوي تتخلله عَرَضاً اهتمامات بأساليب التعبير الفني في القرآن . استمر الأمر على ذلك حتى ظهر كتاب « مجاز القرآن » لأبي عبيدة ؛ عام ثمان وثمانين ومائة من الهجرة . وقصد بكلمة « المجاز » أساليب التعبير الأدبي التي تمتاز عن التعبير العادي بالتأنق والجمال . فالتعبير القرآني هو أول ما استرعى الانتباه إلى المجاز في فن القول واجتذب الاهتمام إلى دراسة ألوانه .

وتوالَت التصانيف بعدئذ من « نظم القرآن » للجاحظ و« دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، وغير ذلك كثير ، وهي دراسات لأسلوب القرآن وأنماط البلاغة العربية الرفيعة التي توافرت فيه ، وتخللتها المقاييس النقدية . ثم انعكست عن هذه الدراسات دراسات أخرى هي دعامة النقد العربي مثل « نقد النثر » لقدامة بن جعفر و« كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكري و« الموازنة » للآمدي .

وتبدَّى أثر القرآن في هذه الدراسات البلاغية بشكل جلي في تعويلها على الشاهد القرآني في المرتبة الأولى ؛ وفي اعتمادها على الدراسات القرآنية السابقة في جميع أبواب الدراسة البلاغية وفنونها . وما أكثر النصوص التي استمدتها من الدراسات القرآنية المتقدمة عليها . وهذا أبو هلال العسكري يكشف لنا عن الباعث الحثيث الذي حفزه إلى تأليف « كتاب الصناعتين » وهو أن يضع الناس أيديهم على حقائق الإعجاز القرآني وأسرار البيان الرباني ، ويستعينوا بذلك على التماس سبيل البراعة في صناعة الشعر والنثر . قال العسكري في كتابه : (وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأحلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن ؛ من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة

التركيب ؛ وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ؛ وضمَّنه من الحلاوة ؛ وجلَّله من روتق الطلاوة ؛ مع سهولة كلمة وجزالتها وعذوبتها وسلاستها ؛ إلى غير ذلك من محاسنه ، التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها (١) .

٨) يتضح لك ولكل باحث أن القرآن هو جذوة حركة النقد الأدبي عند العرب ، وأنه الباعث الرئيسي الموجه لها وللدراسات البلاغية كافة . فإن تأملت الدراسات النقدية ومقاييسها في فنون القول تجدها جميعاً قد خضعت للنهج القرآني الذي أظهرته دراسات إعجاز القرآن المبين ، كما احتكمت إلى الشاهد القرآني فهو المثل الأعلى والمقياس النموذجي الرفيع . ومن نهجه ومنحاه يؤخذ فصل الخطاب في التفاضل بين الأساليب .

٩) وقف البيان القرآني في القرن الرابع الهجري سداً منيعاً أمام تيار الغلو في الصنعة والتكلف . فقد أدخلت الفلسفة ودراسات أرسطو في تقنين الشعر والنثر . وأسرف أصحاب المذهب البلاغي « مذهب البديع » في الصناعة البديعية ، وقدوتهم في ذلك أبو تمام ، بينما راح أصحاب طريقة العرب ينهلون من مورد القرآن الخالد . فقاموا برد فعل قوي أسس تياراً معاكساً « المذهب العربي » إذا استخلصوا طريقة العرب في البيان من القرآن المبين ومن الشعر القديم ، وأحلوا الطبع والسجية المقام الأول بدل الصنعة وتكلف الكثير من الزخارف اللفظية والمعنوية .

فالقرآن المجيد له الفضل الساطع في حماية البيان العربي من التدهور إلى التقعر والتعمل ، وحماية النقد الأدبي من المقاييس والموازن الدخيلة . والقرآن صاحب الفضل السابغ في الرجوع بالأدب

(١) كتاب الصناعتين : ص ٢ .

إلى طبيعته العربية الأصيلة .

(١٠) لما نشطت دراسة تفسير القرآن ودراسة إعجازه البياني ، تعمقت الأبحاث في ألفاظ القرآن وخصائص أساليبه وبديع بلاغته ، فأسهمت هذه الأبحاث بحظ وافر في علم الذوق ، فتجلى أثر القرآن في تربية الذوق الأدبي العربي . وانطلق علماء القرآن والبيانيون من النظر في جلال الربوبية وأثرها في القرآن إلى الطبع وأثره في الشعر ، وإلى ملاحظة صورة النظم في النفس قبل التعبير - كما أوردها الخطابي - فقطعوا في علم النفس الأدبي شوطاً ، وإن لم يعرفوه باسمه الحديث . تؤكد لك ذلك بحوثهم في الأثر النفسي للتعبير وما يعتمد عليه من صور . فالصور البيانية في علم البيان تعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية ، وتتمتع فيها الألفاظ بخصائص حيوية تفيض بالإحياء وترسم في الخيال صوراً تثير المعاني في النفس إشارة مؤثرة . وخذ باعتبارك أيضاً دراستهم في علم البديع خصائص الألفاظ في جرسها وإيقاعها في المحسنات اللفظية العديدة من نظم وسجع وفواصل . .

وهكذا عنونا بتأمل سمات قوة القرآن في التصوير بتحرير جميع الحواس الانسانية من سمع وبصر وحس وذوق وشم ، حتى يُثبَّت الصور في الخيال والادراك والوجدان .

كل ذلك وغيره يبرهن لك أنهم قدموا بحثاً هامة رئيسية في علم الجمال وعلم النفس الأدبي وهما ركنان وطيذان من أركان النقد الأدبي الحديث .

(١١) كلما أمعنت في دراسة النقد العربي وجدت نفسك مضطراً إلى مطالعة دراسات الإعجاز القرآني ، وأدركت أن ملكة النقد إنما انتشت بذورها في صميم دراسات الإعجاز ونمت وترعرعت أغصانها في ظلال القرآن ورعايته . فإن القرآن العظيم صاحب الفضل الكبير في تربية ملكة

النقد الأدبي عند العرب وتطورها . وإن لأسلوبه الذي امتاز بالتفوق في روعة التعبير وجمال الأداء؛ أثراً بليغاً مبيناً في مقاييس الأدب وموازينه . فقد أصبح الشاهد القرآني هو الحَكْمُ الفصل بين فنون القول وأنماط الأساليب . فإن دراسات النقد العربي قد نهلت من القرآن المبين ، وما تزال تروي رياضها النضرة من ينبوعه الصافي الرقراق .

(١٢) افتتن أدباء العرب بأسلوب القرآن وإحكام نظمه ، وأجمعوا على الإقبال عليه قديماً وحديثاً . ولا عجب ! فإنك ترى العبارة منه أو الكلمة حين يقتبسها أديب تُشع في سماء كلامه كالكوكب الساطع . قال الجاحظ : (وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحَفَل وفي الكلام يوم الجُمع آي من القرآن . فإن ذلك مما يورث الكلام والبهاء والوقار والركة وحسن الموقع) .

(وقال الهيثم « بن عدي » : قال عمران بن حطان : « إن أول خطبة خطبتها عند زياد - أو عند ابن زياد - فأعجب بها الناس ، وشهدها عمي وأبي . ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن ») .

(وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل ؛ ألا إن تكون إلى الخلفاء)^(١) .

واشتهر أن عبد الحميد الكاتب كان ينصح الكتاب بالتزود بأي الذكر الحكيم ليزينوا بها مقالاتهم .

فالخطباء والكتاب يسعون بتذوق حصيف ليزدان جيد أسلوبهم

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٣ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .

بقلائد الشواهد القرآنية المناسبة . وقد عكف علماء البلاغة في مصنفاتهم على تصدير كل فن من فنونها بالآية القرآنية ، فهي الشاهد القدوة المهيمن . وقد رأيت أن النقاد كانوا يستجيدون الخطبة إذا ازدانت بالقرآن ، بل كان أكثر الخطباء يعزفون في خطبهم الطويلة الهامة عن إيراد الشعر ، كما كان يعزف الكتاب في رسائلهم إلى الخلفاء . في حين أن جميع الأدباء كانوا في نفس الوقت مولعين بالقرآن استشهاداً واقتباساً ومحاكاة في كل ما كتبوا وخطبوا وأنشدوا . وكل ذلك تعبير علني قوي عن شعورهم بالنقص والضعف والعجز أمام جمال وجلال وسطوة البيان القرآني العظيم .

إن أسلوب القرآن البالغ الروعة ليس له نظير سابق ولا نظير لاحق في اللغة العربية . فعلى سنته حاول الأدباء أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعر ونثر وخطابة وحكمة وأمثال ، مهتدين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الرقيقة وعباراته السلسة وحسن إيراد الكلمات في مواضعها من العبارات لتؤدي معناها وتفصح عن مغزاها مع الحلاوة والرصانة . وعكف عليه علماء اللغة العربية وفنونها فهيمن على عقولهم ومزاهبهم ، وامتلك مقادة أذواقهم حتى أينعت ثماره في جميع فنونهم . فظهرت للقرآن نتائج فريدة في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ، لم يُحدث كتاب قط مثلها في لغة من لغات العالم .

تلکم ظاهرة أدبية فذة رائعة ومزية عظيمة عجيبة ، امتازت بها العربية على سائر لغات العالم ، لأنها جميعاً لم تُشرف بكتاب إلهي مبین كالقرآن العظيم .

١٣) لقد آثرتُ ههنا أن أنوه بأهم آثار القرآن ودراسات الإعجاز في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها ونقدها ؛ مكتفياً بالإلماح عن الإسهاب ، فإن دراستها بعمق وتفصيل أمر جليل وعبء جسيم لا يتسع له كتاب

كامل ، فكيف تُوفيه حقه صفحات معدودة؟! (١)

ونرجو أن يجتذب هذا البيان اهتمام الشباب المسلم إلى العناية بالقرآن العظيم وبدراسات الإعجاز القرآني ، وأن نكون قد ضربنا فيها بسهم مفيد نافع بطريقتنا الخاصة في البحث والتحليل ؛ استجلاءً لروعة بلاغته وجلاله وإعجازه ؛ وإطماعاً لشبابنا أن ينهلوا من معينه الثرّ ويستقوا من فيضه الغزير ، فيقوموا ألسنتهم ويجيدوا فن القول دون تكلف أو تصنع أو تمحل للألفاظ النائية عن المقاصد والمرامي .

وإننا لنأمل أن يجد الشباب في كتابنا دراسة أدبية موضوعية تهذب اللسان وتصفى البيان وتنمي فيهم الذوق الأدبي الرفيع وتثير لهم السبيل . والله ولي التوفيق .

(١) انظر للتوسع : أثر القرآن في تطور النقد العربي - دكتور محمد زغلول سلام - في عدة مواضع . وانظر العصر الإسلامي - دكتور شوقي ضيف ، وارتقب صدور رسالتنا : الأحرف السبعة في القرآن .

انخاتمة

- مجمل إعجاز القرآن .
- البون الشاسع بين إعجاز القرآن وبلاغة الحديث النبوي .
- مسؤوليتنا نحو القرآن الكريم .

١) قضت حكمة الله تعالى بتأييد المرسلين جميعاً بالمعجزات ؛
إثباتاً لصدقهم وإفحاماً لمعانديهم . وأهم المعجزات هي المعجزات
العقلية التي منحها الله سيدنا محمداً ﷺ وأجلها طراً تلك التي عجز الزمان
عن طيها أو انتقاص شيء منها أو من دلالاتها اليقينية على نبوة صاحبها
خاتم المرسلين محمد ﷺ . تلك هي معجزة القرآن الخالدة على كثر
العصور ومرّ الدهور .

ومما امتازت به هذه المعجزة الربانية أنها هي وحي الله النازل
ودعوته لعباده وشرعه الملزم . وهي في نفس الوقت البراهين الدامغة على
رسالة محمد ﷺ وعلى إلهية مصدر القرآن . فجاءت فريدة بين سائر
رسالات الله ؛ وخاصة بجمعها بين الدعوة والدليل .

٢) تحدى الله بالقرآن العالم عامة والعرب خاصة وفيهم فرسان
البلاغة وأمراء اللسن . تحداهم أولاً أن يأتوا بحديث مثله . . فأمسكوا عن
محاولة ذلك ضعفاً وعجزاً . ثم تنزل في مطالبتهم إلى عشر سور مثله ،
فارتدوا على أعقابهم ناكسين . وأمعن القرآن العظيم في تحديهم ، إذ
تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، وينطبق هذا على أقصر سورة
فيه . فزادوا تهرباً عن المعارضة وإعلاناً للعجز . بل آثروا أن يتحولوا
عن هذا الأمر إلى خطر جسيم عظيم وهو خوض غمار الحروب والتعرض
للقتل وترمل النساء ويتم الأطفال وتبديد الأموال !! فلو كان بإمكانهم أن

يصونوا أنفسهم وأهلهم من هذا كله بمعارضة القرآن لما توانوا عنه طرفة عين . ولكن هيهات هيهات أن يدانوه أو يدركوا شأوه !!

٣) أدهش القرآن مشركي العرب بروعته وجماله ، فلم يتمالك سادتهم وزعماء شركهم ؛ من البلغاء والفصحاء أنفسهم ؛ أن يرسلوا القول فيه على السجية العربية . فكان إقراراً عفويّاً بريئاً من التكلف بعيداً عن محاولة طمس الحقيقة . وذلك كقول الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . وتأمل القرآن عربّ أقحاح من العقلاء الفصحاء فعرفوا قدره وأقروا بمنزلته وآمنوا به وبنبيه ، ومنهم أنيس الغفاري وعمر بن الخطاب وجبير بن مطعم . . وأبدي على مر الزمان أناس من الأجانب والنصارى إعجابهم بعظمة القرآن وإعجازه . أما المخادعون الذين حاولوا معارضة القرآن ابتغاء مصالح شخصية ؛ كمسيلمة الكذاب ؛ فلم يأتوا إلا بالضحك المزري ولم يزيدوا العقلاء إلا إيماناً وقيناً بإعجاز القرآن وأنه مستعمل على الطاقة البشرية .

٤) أكرم الله رسوله محمداً ﷺ فجعله أفصح العرب وآتاه جوامع الكلم ، غير أنك إذا تفحصت بيانه عليه الصلاة والسلام وجدت فيه نفساً إنسانية وآثاراً كثيرة متنوعة من آثار النفس الإنسانية مصطبغة بطروفها وأحوالها ، من شدة وضيق ؛ وسعة وفرح ؛ وانقباض وحزن ، وانبساط وسرور ؛ وصحة ومرض . . فإذا قرأ حديثه الأديبُ البليغ أحس أن بينه وبينه قرباً ، إذن فما الفارق بين كلام الرسول وبين كلام البلغاء ؟

إن إمعان النظر يدلك على أن كلامه ﷺ يفوق كلام البلغاء والفصحاء ، لكنه لم يبلغ حدّ الإعجاز ، إذ كلامه من جنس كلامهم . وقد يقع في كلامهم ما يشبه كلامه ، كما هو ملاحظ من أقوال كبار الصحابة الذين عُنوا بحديثه وبالتشبه به ، حتى لا يظن أحد أنه من كلامهم لولا تصريح السند الصحيح أن هذا من كلام أبي بكر ؛ أو عمر ؛ أو علي ؛ أو

عبد الله بن عباس ؛ أو غيرهم .

٥) أما نظم القرآن العظيم فقد جاء بريئاً من أي أثر من آثار النفس الإنسانية وتغيرات ظروفها وأحوالها . وطبيعة تركيبه مستعصية على أرقى المواهب البشرية . ولو لم يكن الأمر كذلك لوجدت الفرق بينه وبين كلام النبي ﷺ كالفرق بين خطبة وخطبة أخرى يُنشئهما رجل واحد . لكنك إذا وازنتَ بين خطبه ورسائله وكلامه المشهور ﷺ وبين نظم القرآن ظهر لك الفرق جلياً ، لأنه البون الشاسع الواسع بين كلام الله الخالق عز وجل وبين كلام المخلوق ، وإن كانت بلاغة حديثه ﷺ في ذروة كلام سائر الناس . قال العلامة الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله :

(على أن أعجب شيء أنك إذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية مثلها مما في القرآن ، رأيت الفرق بينهما في ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء . ورأيت كلامه على تلك الحال خاصة مما يُطمع في مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تُطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المَطْمَعة فيه ، بخلاف القرآن ، فإنك تستيش من جملمته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقاً ألبتة) (١) .

إن البليغ الأريب يُحسّ في أعماق نفسه أن مداناة أسلوب القرآن أمر متعذر عليه وعلى أبناء جنسه مهما نبغوا في فن الصياغة الأدبية الرفيعة .

قال الجاحظ في كتاب النبوة : (لو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم - يعني العرب - سورة قصيرة أو طويلة ، لتبين له في نظمها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها

(١) إعجاز القرآن - للرافعي - ص ٣٦٦ - ٣٦٧ بتصرف يسير .

أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها) (١) .

٦) ونرى أن معاناة الشعور بالنقص والقصور عن مجاراة أسلوب القرآن وحده دون أسلوب النبي ﷺ ؛ يدل عليه أيضاً أمران :

أولهما : إذا سمعتَ الجملة الفصيحة البليغة تُروى لك منسوبة إلى رسول الله ﷺ يلتبس عليك هل هي حديث أم لا؟! مما يحملك على الاستفسار والمراجعة والتثبت قبل إصدار أي حكم . أما أن تُتلى عبارة تنسب إلى القرآن على مسمع أي ذواقه للبلاغة مطلع على القرآن ؛ فإنه يُصدر حكمه سريعاً في نفي الدخيل واستبانة الأصل .

ثانيهما : طمع الدساسون والمغرضون في التاريخ في بشرية أسلوب الحديث النبوي ، فبادروا غشاً وتآمراً إلى وضع عدد كبير من الأحاديث ، ونسبوها إلى رسول الله ﷺ . والتبس أمرها على الناس . فقام علماء أفاضل ووضعوا ضوابط لتمييز الأحاديث الصحيحة الثابتة من الأحاديث الموضوعية المكذوبة على رسول الله ﷺ (٢) . ثم صنفوا الأحاديث في مؤلفات عظيمة ، وهي اليوم مراجعنا الوثيقة في إصدار الحكم على ما يروى عن رسول الله ﷺ (٣) .

٧) اجتذب القرآن العرب بأسلوبه البياني الرائع الجميل السلس .

(١) إعجاز القرآن - للرافعي - ص ٣٦٦ - ٣٦٧ بتصرف يسير .

(٢) وهي كتب مصطلح الحديث مثل : كتاب علوم الحديث - لابن الصلاح ، وهو مرجع لكل من جاء بعده ، وتدريب الراوي شرح تقريب النواوي - للسيوطي - ومن المؤلفات النافعة في هذا العصر : شرح المنظومة البيقونية - لأستاذنا العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين - طبع حلب . ومنهج النقد في علوم الحديث - لشقيقي الدكتور نور الدين عتر - طبع دمشق .

(٣) وأهم مصنفات الأحاديث الصحيحة : صحيح البخاري وصحيح مسلم . وأهم مصنفات الأحاديث الموضوعية : تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعية - للحافظ ابن عراق . واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية - للسيوطي .

ولم يقف إعجاز القرآن عند الشكل فحسب ، بل جاء معجزاً بمضمونه بالأخبار الغيبية والوفاء بكل ما وعد الله فيه ؛ وسمو التشريع وشموله ؛ وبالتكوين الخلقي والاجتماعي ؛ وبالحقائق العلمية الكبرى التي وردت فيه ، كما جاء القرآن معجزاً بإتساق نظرياته وأحكامه على الرغم من كثرة وسعة ما تعرض للحكم فيه ، ومعجزاً بتأثيره وفاعليته في الأفتدة . وكل معجزة في هذه الوجوه تسمو على الطاقة البشرية وتبرهن أن الذكر الحكيم تنزيل علام الغيوب .

إن كل باحث مثقف واع مطلع الى القرآن ؛ إذا أحسن فهم معنى الإعجاز ومعرفة الوجه المعجز في القرآن ؛ فلسوف تغدو هذه الأوجه يقيناً راسخاً في أعماقه . أما الذين عمدوا في زماننا إلى حصر إعجاز القرآن في أسلوبه البياني فقط ، فقد نظروا من زاوية ثقافية ضيقة جداً . وكلُّ يُقدم حسبما عنده من سعة أو ضيق .

٨) إذا استوعبت وجوه إعجاز القرآن الأنفة الذكر وتعمقت في دراسة تفاصيلها وذكرت أن الرسول محمداً ﷺ نشأ أمياً وعاش أمياً في جزيرة الأمية ، لم يتلق من عالم شيئاً ، وكان في صحراء وثنية نائية عن العلم والعرفان ، لازددت يقيناً أن القرآن المجيد وحي من الله ؛ وأن مبلغه سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً وصدقاً ﷺ تسليماً كثيراً .

مسؤوليتنا عن القرآن :

أحدث القرآن العظيم تغييراً جذرياً في الأمة العربية إلى جانب آثاره في اللغة والأدب . . فإن الأمة العربية قد خاضت في فرقة قبلية عميقة مريرة ، وغرقت في لجج وثنية جاهلية ، فنزل القرآن المجيد فأحياها من بعد موتها ، وبث فيها من القيم والمبادئ والروابط الايمانية ما وُحد صفوفها وحفزها إلى ابتناء نهضة إنسانية كبرى حمل العرب ألوية دعوتها الأولى في كافة أرجاء المعمورة . ولا تزال الإنسانية عالة على الحضارة

الإسلامية ، يُقر بذلك الأقرباء والبعداء^(١) .

ولولا القرآن ما خرج العرب من جزيرتهم ، ولا صاروا هداة للعالمين وبناءة للحضارة الإسلامية الإنسانية الماجدة . فالقرآن الحكيم أحيأ موات القلوب ، وأخرجها من ظلام الذل والخنوع والمهانة والخرافة والتخلف والجهالة ، فصار للعرب بفضل القرآن من الشرف العظيم والذكر الحسن والصيت الذائع ما لم يكن لهم ولا لغيرهم من الأمم في التاريخ كله !!

وقد نبّه الله العرب إلى شرف القرآن ، وحرصنا على معرفة عظيم قدره ، فقال تعالى :

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ؟! ﴾^(٢) .

تصدّر الكلام عن القرآن بالتوكيد القسيمي ﴿ لقد ﴾ إظهاراً لبالغ الاعتناء بمضمونه . وعبر عنه بصيغة التنكير ﴿ كتاباً ﴾ للتعظيم والتفخيم وبيان علو مرتبته . يعني : « كتاباً عظيم الشأن جليل القدر تير البرهان » .

﴿ فيه ذكركم ﴾ : أخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس أن المراد بالذكر هو الصيت والشرف ، وذاك مجاز^(٣) . فإن في القرآن ما يوجب الشرف لكم فإنه نزل بلغتكم وعلى نبي منكم فأنتم حملة رسالته والمرجع في تأويله وتبياناه ، وسيرقى بكم بالعمل بما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، حتى تصيروا بذلك قدوة للعالمين . وقد تحقق ذلك كله^(٤) .

(١) طالع كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » زيفريد هونكة .

(٢) سورة الأنبياء : ١١ .

(٣) والمجاز هنا من باب إطلاق المسبب على السبب .

(٤) وتفسيرنا الآية بهذا جمع بين رأيين وردا في تفسيرها .

وحفز الله همم العرب للتدبير في أمر القرآن الحكيم والاقبال على العمل بما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تتفكرون أن في القرآن شرفكم ومجدكم .

وأنت ترى أن الأمة الإسلامية ما تزال في تاريخها القديم والحديث ترقى معارج المجد بقدر عملها بكتاب الله المجيد وتنحط عنها بإهماله والأعراض عنه ، لذا فإن المسؤولية عليك وعلى الأمة جمعاء مسؤولية كبرى لا يُقبل فيها عذر لمعتذر . كيف وقد ظهرت لها الحقيقة ظهور الشمس في رابعة النهار !؟ وقد ذكرنا الله بهذه المسؤولية بقوله جل شأنه :

﴿ وإنه لَذَكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِكَ وَسوف تُسألون ﴾ (١) .

ولا ريب أن أخطر مسؤولية عن القرآن هي مسؤولية العالم والأديب والمثقف المتذوق للغة العربية . وهذا تحذير أبي هلال العسكري ما تزال تتردد أصداؤه في ردهات معاهد العلم منذ ألف سنة ، فأصخ إليه السمع وأنعم فيه النظر (وقبيح لعمرى بالفقيه والقارىء والمتكلم وبالعربي الأصيل أن لا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الأعجمي ، وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي) (٢) .

نزّل الله القرآن بلغة العرب ، فهم أكثر الناس له فهماً ، فوجب أن يكونوا أشدّ الناس إقبالاً عليه وعملاً بما فيه وتبليغاً لدعوته ، وكذلك كان خيارهم وصفوتهم المخلصون من المهاجرين والأنصار ومن تابعهم وسار على شاكلتهم . ويا ويح أمتنا الإسلامية إن بقيت على بلادة الحسن تجاه

(١) سورة الزخرف : ٤٤ انظر تفسير الآيتين في تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٤ وج ٤ ص

١٢٨ - ١٢٩ وروح المعاني ج ١٧ ص ١٤ - ١٥ وج ٢٥ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) كتاب الصناعتين - للعسكري - بتصرف .

كتاب الله ، فإن المسؤولية عن القيام بحقوقه ؛ وتنشئة الأجيال على حب تلاوته والعمل به ؛ وحمل رسالته إلى شعوب العالم ؛ مسؤولية عظيمة خطيرة ، لها آثارها الدنيوية والأخروية .

وقد صرَّح القرآن المبين بها ، ووقع مصداق تصريحه في حياة المسلمين ، انظر في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ، ونحشره يومَ القيامة أعمى ، قال : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟! قال : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ (١) .

وحذّرنا جل شأنه من عواقب الاعراض عن العمل بكتابه العزيز : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا؟! إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَّقِمُونَ ﴾ (٢) وبشّر الله جلّت عظمتة المؤمنين العاملين بشرعه ؛ في قوله الكريم : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

وتعهد سبحانه وتعالى بحفظ حملة القرآن العاملين به ، إذ لا يتم حفظ القرآن إلا بحفظهم وصيانتهم ، وهي بشارة عظيمة لمن تحقق بذلك ، قال عزّ وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ « الحجر : ٩ » .

(١) سورة طه : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) سورة السجدة : ٢٢ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

وأسأل الله الكريم من فضله العظيم إيماناً راسخاً و يقيناً صادقاً بالحق
صادعاً ، وأن يحفظني في جميع ما قدمت من حب الظهور والسمعة
والرياء ، ويهيني كمال الإخلاص في جميع حركاتي وسكناتي ويجعلني
من عباده المخلصين ، وما توفيقني إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

كتبه

حسن ضياء الدين عتر

فهرست

- ١ - الآيات القرآنية .
- ٢ - الأحاديث النبوية .
- ٣ - فهرس الأعلام .
- ٤ - ثبت المراجع .
- ٥ - مسرد الأبحاث .

١ - الآيات القرآنية(*)

٢ - سورة البقرة

رقم الآية	
٥/١	.. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٢٥٢
١٨	.. صم بكم عمي فهم لا يرجعون ٢٣٩
٢٠	.. إن الله على كل شيء قدير ٣٦٣
٢٢/٢١	يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ٢٩٤ ، ١٥٧
٢٥/٢٣	وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ١٦٧ ، ١٥٧ ، ١٢١
٦٠	وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر .. . ٢٤٧
٧٤	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة .. . ٢٣٨
٩٦	ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ٢١٣
١٠٢	.. ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ٣٩
١٢٧/١٢٨	وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. . ٢٤٨
١٧١	ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ٣٥١ ، ٢٤١ ، ٢٣٦
١٨٣	كتب عليكم الصيام .. . ٢٧٤
١٨٥	شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى .. . ٢٧٦ ، ٢٠
١٨٩	ولكن البر من اتقى ٢٧٥

(*) عنيت في هذا الفهرس بإيراد موطن الاستشهاد قدر الامكان .

١٩٦	فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى	٢٧٦
٢١١	سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة . . .	٧٧
٢١٢	والله يرزق من يشاء بغير حساب	٢٧٧
٢٢٠	ويسألونك عن اليتامى . . إن الله عزيز حكيم	٢٧٥ ، ٣٦٣
٢٢٨	والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء	٢٧٥
٢٣٨	حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى	٢٧٥
٢٤٦	ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى . . .	٢٤٥
٢٨٤/٢٨٢	إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . .	٢٧٠ ، ٣٢٥

٣ - سورة آل عمران

٨	وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب	٢١٧
١٣/١٢	قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون إلى جهنم . . .	٣١٥
٢٦	قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . . .	٣١٩
٣٧	كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . . .	٢٩
٣٨	هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك . . .	٣٠
٤٤	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم	٢٨٢
٤٩	. . قد جئكم بأية من ربكم . . .	
	فيكون طيراً بإذن الله	٢٢ ، ٧٥
٩٧	ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . . .	٢٧٥
١١٠	كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف	٣٢٧
١٩٥	فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم . . .	٣٢٤

٤ - سورة النساء

١	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس . . .	٣٢٤ ، ٣٢٩
٧	للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . . .	٣٢٥
٥٦	إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً . . .	٣٥٢

ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.....	٢٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٦٧	٨٢
إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها.....	٢٧٤	٥٨
.. والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً.....	٢١٧	١٦٦

٥ - سورة المائدة

.. قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً	١٥	
مما كنتم تخفون من الكتاب ..	٣٥٧	
١٥ - ١٦ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله ..	٥	
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.....	٢٧٦	٤٤
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً .. ومهيماً ..	٢٨٤ ، ٣٦٥	٤٨
وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض ..	٣٤٣	٨٣
وإذا كفت بني إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات ..	٧٦	١١٠

٦ - سورة الأنعام

وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.....	٣٦٤	١٨
وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ..	٢٥٦	٢٥
.. ولو ترى إذ وَقَفُوا على النار ..	٢٥٦	٢٥ - ٢٧
قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون .. ولكن الظالمين ..	٢٥١	٣٣
وإن كان كبير عليك إعراضهم ..	٢٣	٣٥
ما فرطنا في الكتاب من شيء ..	٣٢٣	٣٨
ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ..	٢٤٩	٩٣
وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى	٩٩	١٢٤
يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ..	٣٩	١٣٠

٧ - سورة الأعراف

وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ..	٣٣٦	٥٧
هذه ناقة الله لكم آية ..	٧٦ ، ٧٥	٧٣
.. فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك ..	٧٩ ، ٢٧٩	١١٧ - ١١٩

١٢١ - ١٢٢	آمناء برب العالمين رب موسى وهارون	٢٥
١٤٦	سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق . ٩٩ - ١٠٠	
١٥٥ / ١٥٥	ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً	٢٧٣
١٨٨	قل لا أملك لنفسي نفعاً ولو كنت أعلم الغيب	٢٨٧ - ٢٨٨
١٩٤	إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم	٢٥٠

٨ - سورة الأنفال

٢	إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم	٣٤٣
٦	يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت .	٢٣٩
٨	ليُحقِّ الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون	٧٩
٣١ ولو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير	١٢٨
٣٦	إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا	٣١٤

٩ - سورة التوبة

٣٣ / ٣٢	يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم	٢٩١
١٠٨ / ١٠٧	والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين	٢٨٦

١٠ - سورة يونس

١٦	قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به	٢٨٤
٣٨	قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم	١١٨ ، ١٢٠
٤٣ / ٤٢ أفأنت تُسمع الصمَّ ولو كانوا لا يعقلون	٣٦٤

١١ - سورة هود

١	الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت	٢٩٦
٧	ولئن قلت إنكم مبعوثون إن هذا إلا سحرميين	٤٨
١٤ / ١٣	قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات	١١٧ ، ١١٨ ، ١٩٦
٣٨ / ٣٧	وكلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخروا منه	٢٢٦
٤٢	وهي تجري بهم في موج كالجبال	٢٤٠
٤٤	وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي	٢٢٥
٤٩	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها	٢٨١

٦٤/٦٨ ويا قوم هذه ناقة الله لكم فذروها تأكل في أرض الله . . . ٩٠

١٢ - سورة يوسف

٣	نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك . . . ٢٨٥
٥١	الآن حصحص الحق . . . ٢٠٥
٨٠	فلما استياسوا منه خلصوا نجياً . . . ٢٠٦
١٠٢/١٠٥	ذلك من أنباء الغيب . . وما أكثر
٢٨٣	الناس ولو حرصت بمؤمنين . . . ٢٨٣
١١١	لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . . . ٢٨٥

١٣ - سورة الرعد

١٧	كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد . . . ٢٨٩
٣٨	قل إنما الآيات عند الله . . . ٢٣

١٤ - سورة إبراهيم

٢٤/٢٧ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة . . . ٢٨٩

١٥ - سورة الحجر

٦	يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون . . . ١٢٨
٩	إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون . . . ١١٥ ، ١٣٢ ، ٣١٦ ، ٣٦٥
٢٢	وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء . . . ٣٣٦
٨٧	ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . . . ١٣٢
٩٤	فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . . . ٢٥٣

١٦ - سورة النحل

٢	ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده . . . ١٣١
١١ و ١٣ و ٦٥ و ٦٧ و ٦٩	إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون - يذكرون ٧٥ - ٧٦
١٧	أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . . . ٢٧٦
٧٧	.. وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . . . ٢٤١

١٧ - سورة الإسراء

١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام . . . ٥٦

٢١٧.....	انظر كيف فضلنا بعضهم . وأكبر تفضيلاً	٢١
٣٢٥.....	إنه كان بعباده خبيراً بصيراً	٩٦ و ٣٠
٣٤١.....	ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذروا	٤١
٣٤١.....	وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا .	٤٦
٧٨.....	وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا .	٥٩
٣١٨.....	وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً	٨١
٣١٧.....	ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك	٨٦
	قل لئن اجتمعت الإنس والجن	٨٨
١١٣ ، ١٠٠ ، ٢٤ ، ٥.....	على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . .	
١٠١ - ١٠٠.....	ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل	٨٩ و ٨٨
٩٣.....	وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً	٩٣ / ٩٠
٧٧.....	١٠٢ و ١٠١ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات	١٠٢ و ١٠١
٧٨.....	لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا . بصائر	١٠٢

١٩ - سورة مريم

٢٤٩.....	واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت	١٦
٢٤٩.....	واذكر في الكتاب إبراهيم . إذ قال لأبيه	٤٢ / ٤١
١٢٨.....	وتنذره قوماً لئلا	٩٧

٢٠ - سورة طه

٣٤٢.....	طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى	٤ / ١
٢٥.....	قال آمنتم له قبل أن آذن لكم	٧٣ / ٧١
٧٩.....	قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات	٧٣ / ٧٢
١٩٣.....	١٢٦ / ١٢٤ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً .	١٢٦ / ١٢٤

٢١ - سورة الأنبياء

٣٩١.....	لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون	١١
٣١٨.....	بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق	١٨
٣٢١.....	١٠٧ / ١٠٥ ان الأرض يرثها عبادي الصالحون	١٠٧ / ١٠٥

٢٢ - سورة الحج

٤/١	يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم	٢٧٤
٢٩	ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم	٢٧٥
٤١	الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة	٣٣٠
٤٦	فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور	٣٦٨

٢٣ - سورة المؤمنون

١٣/١٢	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين	٣٣٥
-------	------------------------------------	-----

٢٤ - سورة النور

٣٩	والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة	٢٣٨
٥٥	وعد الله الذين آمنوا منكم . . . ليستخلفنهم في الأرض	٣٩٣ ، ٣١٨

٢٥ - سورة الفرقان

٥/٤	إن هذا إلا إفك . . وقالوا أساطير الأولين	١٢٨
٦	قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض	٣٢٥
١١/٧	لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً	٩٥
٧٧	فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً . .	٣١٠

٢٦ - سورة الشعراء

١٩٥	بلسان عربي مبين	٢٠٩
٢١٤	وانذر عشيرتك الأقربين	٣٠٨

٢٧ - سورة النمل

١٢	وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء	٧٥
٦٥/٥٩	قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى	٢٦٥
٦٥	قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله	٦٨
٨٠	ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين	٢٣٦ ، ٢١٨

٢٨ - سورة القصص

٣٦	ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين	١٢٨
----	---	-----

٣٢	فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه	٢٠ ، ٧٨
٤٦/٤٤	وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر	٢٨١
٥٧	وقالوا إن تتبع الهدى معك تُتخطف	٢٩١
٨٦	وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة	٣١٧

٢٩ - سورة العنكبوت

٥١/٥٠	أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم	١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٩
٦٤	وإن الدار الآخرة لهي الحيوان	٢١٣

٣٠ - سورة الروم

٦/١	ألم غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون	٢٩٩
٤٣	يومئذ يصدعون	٢٥٣
٤٨	الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً	٣٣٦

٣١ - سورة لقمان

٧/٦	ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله	٣١٣
٣٢	وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله	٢٤٠

٣٢ - سورة السجدة

١٢	ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم	٢٤٧
٢٢	ومن أظلم ممن ذُكر آيات ربه فأعرض عنها	٣٩٣

٣٣ - سورة الأحزاب

١١/٩	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود	٣٢١
١٩	فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم	٢٣٧
٢١	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة	٣٢٧
٢٧/٢٥	وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم	٣٢١
٥٠	قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم	٢٧٥
٥٣	.. إن ذلكم كان يؤذي النبي	٢٦٠

٣٤ - سورة سبأ

١٣	اعملوا آل داود شكراً	٢٠٤
٢٣	حتى إذا فزع عن قلوبهم	٢٠٦

٣٥ - سورة فاطر

١٩ - ٢٢	وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات . . .	٣٦٥
٢٥	وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم . . .	٧٦
٣٧	أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير	١٣١

٣٦ - سورة يس

١٦/١٧	قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون	٢١٨
٢٦/٢٧	قيل ادخل الجنة . . . من المكرمين	٢١٨
٣٧	وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون	٢١٧
٨٣/٨٢	إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون	٢٤

٣٧ - سورة الصافات

٣٦	ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون	١٢٨
١٠١	يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك	٢٥٧ ، ٢٦٨
١٧٧	فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين	٢٠٦

٣٨ - سورة ص

٦/٤	وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . . . يراد	٤٧ ، ٣٠٩
١١	جنداً ما هنالك مهزوم من الأحزاب	٣٠٩ ، ٣١٠

٣٩ - سورة الزمر

٢٣	. . . كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم	١٣٢ ، ١٦٨ ، ٢٢٢
٢٨	قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون	٢٦٢

٤٠ - سورة غافر

١٩	يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور	٢٠٧
٥١	إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا	٣٠٩

وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ٢٣ ٧٨

٤١ - سورة فصلت

٤/١ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ١٤١
٢٦ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن . . . ١٦٨ ، ٣٤١
٤٢/٤١ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٢٨٨ ، ٣٣٩

٤٢ - سورة الشورى

١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٣٦٤

٤٣ - سورة الزخرف

٤٠ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ٣٦٨
٤٤ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون ١٣٢ ، ٣٩٢
٥٤ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ٢٦
٥٨ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ١٢٨

٤٤ - سورة الدخان

٦/١ حم والكتاب المبين * إنا أنزلناه . . . ٢١٦
١٦/٩ . . . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . . . ٣٠٣
٤٣ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم * كالمهل . . . ٣١٢

٤٥ - سورة الجاثية

٨/٧ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ٢٤١ ، ٣٦٩

٤٧ - سورة محمد

٧ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٣٢٢
١٢ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ٢٣٥
٢٤ أم على قلوب أقفالها ٢٣٦

٤٨ - سورة الفتح

٢٧ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن . . . ٣٠٢
٢٨ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره . . . ٢٩١ ، ٣٠٢

٤٩ - سورة الحجرات

- ١٠ إنما المؤمنون إخوة ٣٢٩
١٣ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ..
..... إن أكرمكم عند الله أتقاكم ٣٢٨

٥٢ - سورة الطور

- ٣٤/٢٩ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ٣٤٨
٣٤/٣٣ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ١١٦
٣٧/٣٥ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ٣٤٢

٥٣ - سورة النجم

- ٢٨ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ٦٧

٥٤ - سورة القمر

- ٣/١ اقتربت الساعة وانشق القمر ٤٨
٨ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ١٩١
٤٥/٤٣ سيهزم الجمع ويولون الدبر ٢٩٦ ، ٣١٠

٥٧ - سورة الحديد

- ١١ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ٢٧٦
١٥ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ٣٤٤

٥٩ - سورة الحشر

- ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته ٣٤٣

٦٠ - سورة الممتحنة

- ٨ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ٣٣٣

٦٢ - سورة الجمعة

- ٥ مثل الذين حُمِلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ٢٣٩

٦٥ - سورة الطلاق

٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه ٣٢٢

٦٦ - سورة التحريم

٦ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ٢٤

٦٩ - سورة الحاقة

٦/١ الحاقة * ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة

٤٣/٣٨ . . إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر ٣٤٩

٤٧/٤٤ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ٧٩ - ٨٠ ، ١٥٧

٧٢ - سورة الجن

٢٧/٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا ٦٨

٧٤ - سورة المدثر

٢٦/١١ ذرني ومن خلقت وحيداً . . سأصليه سقر ٤٨ ، ١٤٠ ، ٣١٣

٢٤ إن هذا إلا سحر يؤثر ٤٨ ، ١٤٠

٧٥ - سورة القيامة

٣١ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ٣١٢

٨١ - سورة التكوير

٩/٨ وإذا المؤودة سُئلت بأي ذنب قتلت ٣٢٤

٨٩ - سورة الفجر

٢٣/٢٢ وحيء يومئذ بجهنم . . يقول ياليتني قدمت لحياتي ٢١٤

١٠٤ - سورة الهمزة

٤/١ ويل لكل همزة لمزة ٣١٢ - ٣١٣

١١٠ - سورة المسد

٥/١ تبت يدا أبي لهب وتب ٣١١

٢ - فهرس الأحاديث

- استقبل النبي الكعبة فدعا على نفر . . فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى .. ٣١٤
- أقبلت فاطمة تمشي . . فقال النبي : مرحباً بابنتي ٦٩
- ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ٤٦
- اللهم عليك بقريش ؛ ثلاث مرات ٦٢
- اللهم أغثنا ٦٦ - ٦٧
- اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً ٦٦
- اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ١٤٥
- اللهم سبع كسب يوسف ٣٠٤
- أنشدك عهدك ووعدك اللهم ، إن شئت ٢٩٧
- انشق القمر على عهد رسول الله . . فصار فرقتين ٥٣
- إن يكن محمد قد مات فإن الله لم يمت ٢٩٢
- إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ٧١
- إن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية ٥٣
- إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ٨٤
- أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ٣٥٥
- إننا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية ٥٢
- إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ٣٥٥

- إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ٣٥٥
- اهجهم وجبريل معك ١٦٩ - ١٧٠
- أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ٦٣ - ٦٤ ، ٩٤
- بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ٩٤
- تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكنم بهما ٣٦
- تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها ٤١
- خمس مضيئ الروم والدخان . . واللزام والبطشة والقمر ٥٤
- رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ٣١
- سأل أهل مكة النبي . . أن يجعل لهم الصفا ذهباً ٨٨
- سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور ١٤٤ ، ٣٤٢
- عطش الناس يوم الحديدية والنبي بين يديه ركوة ٥٠ - ٥١
- فإن خلُق نبي الله كان القرآن ٣٢٦ - ٣٢٧
- فجعل يناديهم . . أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ٦٣ ، ٩٤ ، ٣١٩
- فدعا رسول الله . . بالبركة ثم قال : خذوا في أوعيتكم ٨٠
- فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويُحللوا أبي فأبوا ٨١
- نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد ٣١٩
- كان عامر ذاهباً لبعض حاجاتنا إذ أقبل عمر ١٤٤
- لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ٧٠
- لقيت رجلاً بمكة . . لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ١٤٣
- لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس ٥٧
- لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة ٥٧
- لما قدم رسول الله . . وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ٣١٨
- ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ٩٢
- ما بهذا بعثت . فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ٩١ - ٩٢

- مضى خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام ٣١١
- من أتى عراًفاً أو كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر ٤٠
- هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ٨٤
- والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وانه عليه لطلاوة ١٣٩ - ١٤٠
- ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط
- والله ما هو بالسحر ١٤٢
- ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ٧٠
- يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله تعالى بما
- أصاب قريشاً ٣١٤

٣ - أبرز الأعلام

- محمد ﷺ في معظم صفحات الكتاب .
ابراهيم الخليل ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٤ .
أبو بكر الصديق ٣١ ، ٨٤ ، ١٥١ ، ٣٨٧ .
أبو مسلم الخولاني ٣٢ ، ٣٤ .
أبو برزة الأسلمي ٤٥ .
أنيس الغفاري ١٤٣ ، ١٦٩ ، ٢٧٨ ، ٣٥٠ ، ٣٨٧ .
أبو جهل ٦٢ ، ٣١٢ ، ٣٤٩ .
الأسود العنسي ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٦ .
الأخنس بن شريق ٣١٢ .
بابا الرومي ٤٢ .
جبير بن مطعم ١٤٣ ، ١٦٩ ، ٣٤٢ ، ٣٨٧ .
جريج الراهب ٣٠ .
الحارث الراهب ٣٠ .
الحارث الدمشقي ٤٢ .
حسان بن ثابت ١٤٣ ، ٢٠٤ ت .
خالد بن الوليد ٣٢ .
الخنساء ٢٠٤ ت .
- سارية ٣٢ .
سهيل بن عمرو ٢٩٢ .
صالح عليه السلام ٣٥ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٠ .
عبد الله بن عباس ٦٠ ، ٨٨ .
عتبة بن أبي لهب ٣١١ .
عتبة بن ربيعة ٦٣ ، ١٤١ ، ١٦٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠ ، ٣٨٧ .
عمر بن الخطاب ٣١ ، ٣٢ ، ٨١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٨٧ ، ٣٤٢ .
عيسى عليه السلام ٢٢ ، ٢٤ ، ٧٦ .
مسيلمة الكذاب ٤٢ ، ٤٦ .
موسى عليه السلام ٢٥ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨١ .
النجاشي ٨٤ .
النصر بن الحارث ٨٤ .
الوليد بن المغيرة ١٤٠ ، ١٦٨ ، ٢٧٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٨٧ .

٤ - ثبت المراجع

أ - القرآن الكريم وعلومه :

القرآن الكريم كتاب الله تبارك وتعالى .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - طبعة مصطفى

البابي الحلبي الثانية وطبعة دار المعارف - مصر .

مفاتيح الغيب - المشهور بالتفسير الكبير - الفخر الرازي - ط . عبد

الرحمن محمد - مصر .

البحر المحيط - محمد بن حيان الأندلسي - مطبعة السعادة - مصر .

الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - ط . دار

الكتب المصرية .

الكشاف عن غوامض التنزيل - محمود بن عمر الزمخشري - الطبعة

الثانية - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

تفسير القرآن العظيم - عماد الدين بن كثير - طبع عيسى البابي الحلبي -

مصر .

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - أبو السعود العمادي - الطبعة

الأولى طبع المكتبة الحسينية المصرية .

لباب التأويل في معاني التنزيل - علاء الدين علي بن محمد « الخازن »

الطبعة الأولى - بولاق .

مدارك التنزيل وحقائق التأويل - عبد الله النسفي - المطبعة الأميرية - بولاق .

معالم التنزيل - للحسين بن مسعود البغوي - مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .

نظم الدرر في تناسب الآي والسور - حسن البقاعي - مخطوط .
فتح القدير - محمد بن علي بن محمد الشوكاني - ط . مصطفى البابي الحلبي - مصر .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل - عبد الله بن عمر البضاوي - مكتبة الجمهورية - مصر .

الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية - سليمان بن عمر العجيلي - طبع عيسى البابي الحلبي - مصر .

روح المعاني - محمود الألوسي - الطبعة المنيرية الأولى - مصر .
المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - طبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر .

صفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين مخلوف - ط . مصر .
تفسير جزء عم - محمد عبده - مطابع الشعب - مصر .
تفسير القرآن الكريم « المشتهر بتفسير المنار » محمد رشيد رضا - الطبعة الرابعة مكتبة القاهرة .

محاسن التأويل (تفسير القاسمي) - محمد جمال الدين القاسمي - ط . مصر .

التفسير الموضوعي - آمالي الشيخ الدكتور محمد السماحي - للدراسات العليا بكلية أصول الدين بالأزهر .

لباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين السيوطي - ط . دمشق .
إعجاز القرآن - أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي - دار المعارف - مصر .
الانتصار - محمد بن الطيب الباقلائي - مخطوط .

- « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - طبع دار المعارف - مصر » : بيان إعجاز القرآن - لأبي سليمان حمد الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨ هـ) .
- النكت في إعجاز القرآن - لأبي الحسن علي الرماني (٢٩٦ - ٣٨٦ هـ) .
- الرسالة الشافية - عبد القادر الجرجاني - (توفي ٤٧١ هـ) .
- دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجاني - مطبعة المنار بمصر .
- « مقدمتان في علوم القرآن - مطبعة السنة المحمدية بمصر » :
- مقدمة كتاب المباني .
- مقدمة ابن عطية .
- تحرير التحرير - ابن أبي الأصبغ المصري - نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر .
- بديع القرآن - ابن أبي الأصبغ المصري - طبع نهضة مصر .
- البرهان في علوم القرآن - محمد بن عبد الله الزركشي - عيسى البابي الحلبي بمصر .
- الاتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - الطبعة الثالثة - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- مناهل العرفان - محمد عبد العظيم الزرقاني - الطبعة الثالثة - عيسى البابي الحلبي - مصر .
- ب - الحديث النبوي وعلومه :
- صحیح الإمام البخاري - ط . عيسى البابي الحلبي - مصر .
- صحیح الإمام مسلم - ط . عيسى البابي الحلبي - مصر سنة ١٩٥٥ .
- جامع الترمذي - مطبعة الصاوي - مصر .
- المجتبى « سنن النسائي » - المطبعة الميمنية - مصر .
- سنن أبي داود - المطبعة التجارية - مصر .
- سنن المصطفى - محمد بن يزيد بن ماجه القزويني - المطبعة التازية - مصر .

- المستدرک - للحاکم النیسابوری - ط . الهند .
- مسند الإمام أحمد - المطبعة الميمنية - مصر .
- أخلاق النبي ﷺ وآدابه - أبو محمد عبد الله بن حيان الأصبهاني - مطابع الهلال - مصر .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - علي بن أبي بكر الهيثمي - ط . مصر .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول - أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري - مطبعة السنة المحمدية - مصر .
- الجامع الصغير - جلال الدين السيوطي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول - منصور علي ناصيف - عيسى البابي الحلبي - مصر .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن حجر العسقلاني - المطبعة الخيرية للخشب - مصر .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للعيني - ط . المنيرية .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - النووي - المطبعة الأزهرية .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير - محمد عبد الرؤوف المناوي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
- النهاية في غريب الأثر - مبارك بن محمد الجزري بن الأثير - ط . عيسى البابي الحلبي - مصر .
- الشفاء للقاضي عياض - ط . مصر .
- شرح الشفاء - علي القاري - المطبعة العثمانية ١٣١٦ هـ .
- الشمائل المحمدية - للترمذي - وشرحها - للبيجوري - المكتبة التجارية .
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - السيوطي - نشر العلمية بالمدينة .
- الفتاوي الحديثية - أحمد بن حجر الهيثمي - ط . الميمنية بمصر .

قسات من نور النبوة - عبد الفتاح أبو غدة وأحمد عز الدين البيانوني - ط .
حلب .

هدي النبي ﷺ في الصلوات الخاصة - الدكتور نور الدين عتر - ط .
دمشق .

منهج النقد في علوم الحديث - الدكتور نور الدين عتر - ط . دمشق .
شرح المنظومة البيقونية - الشيخ عبد الله سراج الدين - ط . حلب .

ج - العقيدة وعلم الكلام :

أعلام النبوة - أبو الحسن علي بن محمد الماوردي - المطبعة البهية - مصر .
المواقف في علم الكلام - عبد الرحمن الأيجي - مطبعة العلوم - مصر .
شرح المواقف - علي بن محمد الجرجاني - مطبعة السعادة - مصر .
الأربعين في أصول الدين - للفخر الرازي - ط . الهند .
لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية - محمد السفاريني - مطبعة
المنار - مصر .

النبوات - تقي الدين أحمد بن تيمية - ط . المنيرية - مصر .
الرد على المنطقيين - أحمد بن تيمية .
تثبيت نبوة سيدنا محمد ﷺ - الإمام الهادي يحيى بن الحسين -
مخطوط .

إثبات النبوات - لأبي يعقوب السجستاني - مخطوط .
تثبيت دلائل النبوة - القاضي عبد الجبار - نش - دار العربية - بيروت .
المسامرة شرح المسامرة - الكمال بن أبي شريف - المطبعة الأميرية -
بولاق .

شرح العقائد النسفية للتفتازاني - مطبعة كردستان بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .
حاشية عبد الحكيم السالكوتي على حاشية الخيالي على شرح العقائد
النسفية .

تحفة المرید علی جوہرۃ التوحید - إبراهيم البيجوري - طبعة ثانية بالأزهر
بمصر .

شرح جوہرۃ التوحید ، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني ، تحقيق محيي
الدين عبد الحميد ، ط . مصر .

إيثار الحق علی الخلق ، ابن الوزير ، مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة .
إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ، المطبعة المحمودية - مصر .

رسالة التوحید ، محمد عبده ، الطبعة الرابعة عشرة ، دار المنار ، مصر .
مذكرات التوحید للسنة الرابعة بكلية أصول الدين ، محمود أبو دقيقة ،
مطبعة العلوم .

النبا العظيم ، محمد عبد الله دراز ، مطبعة السعادة ، مصر .
موقف العقل والعلم والعالم . . مصطفى صبري ، ط مصر .

د - السيرة والتراجم :

سيرة ابن هشام ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد - ط . مصر .
الروض الأنف ، عبد الرحمن السهيلي ، المطبعة الجمالية ، مصر .
شرح المواهب اللدنية ، للزرقاني ، المطبعة الأزهرية ، مصر .
تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ط . الهند .
الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر ، المكتبة التجارية الكبرى ،
مصر .

الاستيعاب ، ابن عبد البر ، ط . التجارية بمصر .
قصص الأنبياء ، عبد الوهاب نجار ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٦ .

هـ - علوم اللغة العربية وآدابها :

لسان العرب ، محمد بن منظور الأفريقي المصري ، المطبعة الأميرية .
القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، الطبعة الأميرية
الثالثة .

تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن مرتضى الزبيدي ،
ط . مصر .

كتاب الصناعتين! أبو هلال الحسن العسكري ، ط . ثانية ، صبيح
بمصر .

مفتاح العلوم ، يوسف السكاكي ، ط . الأدبية بمصر .
المطول على التلخيص ، للتفتازاني ، مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ .
الجمان في تشبيهات القرآن ، عبد الله بن نايقا البغدادي ، ط . الكويت .
علم البيان ، عثمان أبو النصر ، ط . مصر .
جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ، ط . مصر .
فصول من علوم البلاغة ، دكتور محمد الجندي جمعة حسنين ، ط .

مصر

من بلاغة القرآن ، دكتور أحمد بدوي ، ط . الثالثة . مصر
البيان والتبيين ، أبو عمرو الجاحظ ، ط . رابعة . التجارية بمصر .
الموازنة ، للحسن بن بشر الأمدي ، ط . الثالثة . السعادة بمصر .
المثل السائر ، ضياء الدين بن الأثير ، ط . مصطفى الحلبي بمصر .
الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، طبعة خامسة بمصر .
العصر الإسلامي ، الدكتور شوقي ضيف ط . مصر .
أثر القرآن في تطور النقد العربي ، دكتور محمد زغلول سلام ، ط . الثالثة مصر .
في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط . ثانية . مصر .
مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ط . مصر .
التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ط . مصر .
وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، ط . رابعة . مصر .
من وحي القرآن ، نقولا حنا ، ط . سورية .
الأسلوب ، أحمد الشايب ، ط . خامسة بمصر .

و - موضوعات متنوعة :

مقدمة ابن خلدون ، مطبعة التقدم بمصر .
أمالي أصول الفقه ، أحمد فهمي أبو سنة .
لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها ، الدكتور محمد أمين
المصري ط . دمشق .

النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، أبو الحسن الندوي ، ط . القاهرة .
القرآن والنبى ، الدكتور عبد الحلیم محمود ، ط . مصر .
الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبى ، ط . مصر .
القتال في القرآن ، محمود شلتوت ، ط . مصر .
محمد رسول الله ، هكذا بشرت الأنجيل ، بشرى زخارى ميخائيل ، ط .
مصر .

محمد رسول الهدى والرحمة ، مقال من كتاب الأبطال ، توماس كارليل ،
معرب .

ماذا عن المرأة ، الدكتور نور الدين عتر ، ط . حلب .
المرأة بين الفقه والقانون ، الدكتور مصطفى السباعي ، ط . دمشق .
روح الدين الإسلامي ، عفيف طيارة ، ط . لبنان .
اللب بين الإسلام والطب ، دكتور محمد موفق الشطي ، ط . دمشق .
لماذا أنا مؤمن ، جمال الدين الفندي ، طبع المجلس الأعلى للشؤون
الإسلامية ، مصر .

ز - كتب أخرى :

الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا ، ط . خامسة . صبيح بمصر .
الإنسان ذلك المجهول - الكسيس كاريل - مترجم - ط . الدار القومية
بمصر .

حياة محمد - محمد حسنين هيكل - طبعة سادسة - مصر .
الكتاب المقدس - نشر جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى -
بيروت .
العقيدة والشريعة في الإسلام - أجناس جولد تسيهر - معرّب - الطبعة الثانية
بمصر .

٥ - مسرد الأبحاث

خطبة الكتاب

- ٧ دور القرآن في العرب والعربية والانسانية
- ٨ إعجاز الأدب وأدب الاعجاز
- ٩ أجلاً مزايا القرآن المجيد
- ١٠ هدف هذه الدراسة
- من مزايا أبحاث الكتاب :
- ١١ الدرس التطبيقي المبتكر
- ١٣ العناية بدراسة الشكل والمضمون

الباب الأول

- ١٥ المعجزة في القرآن الكريم

الفصل الأول

- ١٧ خصائص المعجزة وتميزها
- ١٨ حكمة الله في تعريف الخلق بالرسول الحق
- ١٩ تعريف المعجزة

٢٠	تسمية المعجزة
٢٠	الفرق بين علامات النبوة وبين المعجزة
٢١	شروط المعجزة
٢٢	من خصائص المعجزة في القرآن :
٢٢	(١) المعجزة من خلق الله تعالى
٢٥	(٢) استحالة معارضة المعجزة
٢٦	(٣) مخالفة المعجزة قوانين الطبيعة
٢٨	كرامات الأولياء أثبتها القرآن الكريم :
٢٩	إثبات الكرامة في العقل والقرآن
٣٠	إثبات الكرامة بالأحاديث الصحيحة
٣١	وقائع الكرامة ودلالاتها
٣٣	منزلة الكرامة من المعجزة
٣٥	لا عصمة للأولياء
٣٦	الفرق بين المعجزة والمخترعات العلمية
٣٨	السحر
٣٨	تميزُ الأنبياء عن الادعاء بأدلة إلهية
٣٩	حقيقة السحر
٤٣	اضطراب ابن تيمية في أمر السحر
٤٤	السحر عجائب مقدورة للخلائق
٤٥	اشتهار النبي وافتضاح الدعوي
٤٧	تبرئة القرآن محمداً ﷺ من السحر

الفصل الثاني

٤٩	معجزات رسولنا محمد ﷺ
٥٠	أقسام معجزاته ﷺ :

- أ - المعجزات الحسية : ٥٠
- ١ (نبع الماء من بين أصابعه ٥٠
- ٢ (تكثير الطعام القليل ببركته ٥٢
- ٣ (انشقاق القمر ٥٣
- ٤ (الاسراء إلى البيت المقدس ٥٦
- بين الاسراء والمعراج وبين امتطاء الفضاء ٥٨
- موقف حاسم من قصة الإسراء المنسوبة إلى ابن عباس ٥٩
- ب - المعجزات العقلية : ٦١
- ١ - إجابة الله دعاء رسول الله ﷺ : ٦٢
- ١ - دعاؤه على أشرف قريش لدأبهم على الأذى ٦٢
- مصراع الأشراف يوم بدر وقصيدة حسان فيهم ٦٣
- ٢ - دعاؤه بالغوث لما نزل القحط بالمسلمين ٦٥
- ٢ - إخباره ﷺ عن غيب المستقبل ٦٧
- ١ - إخبار فاطمة أنها أول أهله لحاقاً به ٦٩
- ٢ - إخباره عن انتصار الإسلام وحلول الأمن ٧٠
- ٣ - إخباره عن دحر المسلمين أعظم امبراطوريتين ٧٠
- اليقين بمعجزاته ﷺ ٧٢
- دلالة المعجزة : ٧٤
- أ - دلالة المعجزة في القرآن ٧٤
- ب - دلالة المعجزة في الحديث ٨٠
- ج - دلالة المعجزة لدى علماء الكلام ٨٢
- د - معجزة نبي تدل على صدق سائر الأنبياء ٨٥
- هـ - امتداد دلالة المعجزة على مر الزمان ٨٥

٨٨	تطلبُ المعجزات
٨٨	طلب المشركين جعل الصفا ذهباً
٨٨	طلبهم إزاحة الجبال وتفجير الأنهار
٩١	رفض الرسول إغراءهم وإعراضه عن تعنتهم
٩٤	الحكمة الإلهية في إمهالهم
٩٥	طلبهم أن يكون مع الرسول ملك أو كنز
٩٦	ردُّ القرآن عليهم بأن الرسول بشر وليس إلهاً
٩٨	الحكمة الإلهية تأبى الاستجابة لمقترحاتهم

الباب الثاني

١٠٣	دلائل المعجزة العظمى
-----	----------------------

الفصل الأول

١٠٥	القرآن معجزة الرسول العظمى
١٠٦	معنى المعجزة القرآنية
١٠٨	القرآن هو المعجزة العظمى وآية الآيات
١١٠	الحكمة في إعجاز القرآن البياني
١١٣	خلود المعجزة القرآنية مدى الدهر
١١٦	التحدي بالقرآن العظيم
١١٦	التنزل في التحدي إلى النظم وحده دون المعاني
١١٨	سورة هود أسبق نزولاً من سورة يونس
١٢٠	التنزل في التحدي إلى سورة واحدة
١٢٣	القرآن معجزات كثيرة/ معنى السورة

الفصل الثاني

١٢٥	شهادة العالم بإعجاز القرآن
-----	----------------------------

قعود المشركين عن المعارضة ليس وجهاً

للإعجاز بل دليل عليه ١٢٦

أولاً - شهادة العرب بعجزهم عن معارضة القرآن ١٢٧

١ - نكوصهم عن معارضته عجز فاضح ١٢٧

٢ - الطبيعة البشرية تجبرهم على معارضته لو كانوا قادرين ١٣١

٣ - القادر على المعارضة لا يرضى بمخاطر الحروب بديلاً عنها ١٣٤

٤ - يستحيل تركهم معارضته إلا لعجزهم ١٣٦

ثانياً : اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن ١٣٩

١ - حقيقة رأي المشركين في القرآن ١٣٩

٢ - عقلاء فصحاء عرفوا إعجاز القرآن فآمنوا به ١٤٣

٣ - شهادة الأجانب والنصارى بعظمة القرآن وإعجازه ١٤٦

ثالثاً - محاولات سخيفة فضحت عجز المشركين

عن مجازة القرآن ١٥٠

رابعاً - خلود إعجاز القرآن إلى الأبد ١٥٣

- عجز البلغاء عن معارضة القرآن أيام كانت الفصاحة في أوجها ١٥٣

- بقاء التحدي على مر الزمن وسكوت أهل الأعصر عن معارضته ١٥٤

الباب الثالث

بيان إعجاز القرآن الكريم ١٦١

الفصل الأول

مصدر إعجاز القرآن العظيم ومذهب الصرفة ١٦٣

القول بالصرفة ١٦٥

١٦٦ دلالة القرآن على أن إعجازه قائم فيه
١٦٩ دلائل أخرى تنفي القول بالصرفة
١٧٥ نتيجة البحث
١٧٦ التحقيق أن الجاحظ يصرح بإعجاز القرآن ولا يعول على الصرفة
١٧٨ الرماني يجمع بين الإعجاز والصرفة
١٧٩ الجواب عن ما أورده الرماني

الفصل الثاني

١٨٣ الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم
١٨٥ تحديد أوجه إعجاز القرآن الكريم
١٨٥ أ - مذهب الامام الباقلاني
١٨٧ ب - مذهب الرماني
١٨٨ ج - مذهب القرطبي
١٩٠ د - مذهب القاضي عياض
١٩١ رأينا في تحديد أوجه الإعجاز
١٩٢ تعريفنا للوجه المعجز في القرآن
١٩٧ هل يحصل الإعجاز بجميع الأوجه أم بأحدها

تبيان أوجه إعجاز القرآن

١٩٩ الوجه الأول: الاسلوب البياني للقرآن
٢٠٠ ١ - فصاحة الألفاظ القرآنية وروعيتها
٢٠١ فصاحة الألفاظ وشروطها
٢٠٢ - منزلة الألفاظ القرآنية
٢٠٢ - فوارق بين الألفاظ لا ينتبه لها الكثيرون
٢٠٤ - نقد الخنساء لحسان بن ثابت

- ٢٠٥ من فرائد الألفاظ القرآنية
- ٢١٠ ٢ - فصاحة جمل القرآن وتراكيبه
دراسة في ألفاظ القرآن وتراكيبه :
- ٢١٠ ١ - حسن انتقاء ألفاظه ودقة اختيارها
- ٢١١ ٢ - براعة إيراد اللفظ ليؤدي معناه بدقة بليغة
- ٢١٢ ٣ - اتساع دلالات ألفاظه
- ٢١٤ ٤ - فواصل القرآن المبين
- ٢١٥ روي الفاصلة القرآنية
- ٢١٦ ارتباط الفاصلة بالنص القرآني
- ٢١٩ ٣ - بلاغة القرآن المعجزة
- ٢٢٠ بلاغة الكلام
- ٢٢١ استمرار الفصاحة والبلاغة في جميع أنحاء القرآن
- ٢٢٣ أسلوب القرآن خاص متميز فوق طاقة الخلائق
- ٢٢٤ نماذج من البلاغة القرآنية
- ٢٢٤ ابداع البلاغة القرآنية
تحليل ابن أبي الأصعب آية :
- ٢٢٥ ﴿ وقيل يا أرض ابلعي . . ﴾
- ٢٢٧ تحليلها عند السكاكي : من جهة علم البيان
- ٢٣٠ - من جهة علم المعاني
- ٢٣١ - من ناحية الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظية
- ٢٣٢ بين بلاغة القرآن ومذهب البديع
- ٢٣٤ التشبيه في القرآن
- ٢٣٨ خصائص التشبيه القرآني وأهدافه

- ٢٣٨ ١ - يستمد عناصره من الطبيعة
- ٢٣٩ ٢ - جعل التشبيه جزءاً أساسياً في الجملة
- ٢٣٩ ٣ - دقة التشبيه القرآني
- ٢٤٠ ٤ - اختيار الألفاظ الدقيقة المصورة الموحية
- ٢٤٠ تأثير التشبيه في العاطفة
- ٢٤٢ التصوير الحي في القرآن
- ٢٤٣ ما قيمة هذه المزية؟
- ٢٤٤ نماذج من التصوير القرآني وأدواته :
- ٢٤٥ ١ - تعميم الخطاب
- ٢٤٧ ٢ - استعمال ظرف الزمان : إذ
- ٢٥٠ ٣ - تعريف المسند إليه باسم الموصول
- ٢٥١ ٤ - وضع الاسم الظاهر موضع المضمرة
- ٢٥٣ ٥ - التصوير بالاستعارة
- ٢٥٥ ٦ - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وبالعكس
- ٢٥٩ خصائص أسلوب القرآن البياني
- ٢٥٩ ١ - تميز النظم القرآني
- ٢٦١ ٢ - إحكام سبك القرآن
- ٢٦٢ ٣ - أسلوب القرآن مؤتلف مع معانيه
- ٢٦٤ ٤ - خطاب العقل والقلب بأن واحد
- ٢٦٦ ٥ - سمو الأسلوب القرآني في الأغراض العلمية أيضاً
- ٢٧٠ ٦ - جاذبية النغم القرآني
- ٢٧٤ ٧ - براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام
- ٢٧٤ الاعجاز الحسابي في القرآن
- ٢٧٦ ٨ - جمع القرآن بين الاجمال والبيان

- الوجه الثاني : الاخبار عن الغيب في القرآن ٢٨٠
- أ - الاخبار عن غيب الماضي ٢٨٠
- ب - الاخبار عن غيب الحاضر ٢٨٦
- ج - الاخبار عن غيب المستقبل ٢٨٧
- أولاً - أخبار القرآن عن مستقبل الإسلام ورسوله وكتابه : ٢٨٨
- ١ - نجاح الإسلام وبقاؤه ٢٨٨
- ٢ - انتصار الإسلام على الرغم من ضعف الرسول وقوة عدوه ٢٩٠
- ٣ - عجز البشر الأبدى عن معارضة القرآن ٢٩٣
- ثانياً - إخبار القرآن عن مستقبل المسلمين ٢٩٦
- ١ - إخباره في مكة عن انتصار المؤمنين وهزيمة المشركين ٢٩٦
- ٢ - إخباره عن تغلب الروح حين دحرهم الفرس في هزيمة ساحقة ٢٩٨
- ٣ - إخباره عن دخول المسلمين مكة ٣٠٢
- ثالثاً - إخبار القرآن عن مستقبل المشركين ٣٠٣
- ١ - الاخبار بكشف الجذب عنهم وعودهم إلى عتوهم بعده ٣٠٣
- نقد قول الزرقاني ودراز في تفسير آية الدخان ٣٠٧
- ٢ - الاخبار في مكة بأن الرسول سيصير في عزّ وجند ٣٠٨
- ٣ - إخبار القرآن عن مصائر عدد من رؤوس الشرك ٣١١
- ٤ - إخبار القرآن باندحار المشركين واليهود ٣١٤
- الوجه الثالث : الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن ٣١٦
- أولاً - وعود قرآنية مطلقة ٣١٦

- ٣١٦ (١) ضمان إلهي بحفظ القرآن والإسلام
- ٣١٨ (٢) وعد الله للرسول وصحبه بالنصر على أعدائهم
- ٣٢١ ثانياً - وعود قرآنية مقيدة بشروط
- ٣٢٣ الوجه الرابع : سمو التشريع القرآني
- ٣٢٦ الوجه الخامس : إعجاز القرآن الخلفي والاجتماعي
- ٣٢٦ التكوين الخلفي بالقرآن
- ٣٢٨ التكوين الاجتماعي بالقرآن
- ٣٣١ ظاهرة فذة جليلة في القرآن
- ٣٣٢ مجتمع عالمي إنساني بفضل القرآن
- ٣٣٤ الوجه السادس : الاعجاز العلمي في القرآن الكريم
- ٣٣٤ أولاً - القرآن لا يتعارض مع اليقيني من العلم
- ٣٣٤ ثانياً - جاء القرآن بحقائق علمية كشف عنها العلم الحديث
- ٣٣٨ الوجه السابع : اتساق نظريات القرآن وأحكامه
- ٣٤١ الوجه الثامن : الاعجاز النفسي في القرآن العظيم

الفصل الثالث

- ٣٤٥ نقض مزاعم المستشرقين
- ٣٤٨ (١) نقض زعم «تسهر» مشابهة القرآن كلام الكهنة
- ٣٥١ (٢) نقض زعمه ضعف بلاغة المدني من القرآن
- ٣٥٣ (٣) إنكاره معجزات الرسول جميعاً
- ٣٥٥ (٤) نقض زعمه اقتباس الرسول من العهد القديم :
- ٣٥٦ أولاً - لم يذكر دليلاً على زعمه
- ٣٥٧ ثانياً - النبي أمي ولم يتلق من أهل الكتاب شيئاً
- ٣٥٨ ثالثاً - أخبار القرآن صححت أخبار الكتب السابقة المشوهة :

- أ - ضلال أصحاب العهد القديم في صفات الرسل ٣٥٨
 النزعة العدوانية في الشخصية اليهودية ٣٦١
 ب - ضلالهم في معرفة الله تعالى ٣٦٢
 رابعاً - ان قصص الكتاب المقدس يبعث في الصدر كآبة وضجراً ٣٦٤
 خامساً - فصل القرآن ما أوردته الكتب
 مختصراً وصححت ما حُرِّفَ فيها ٣٦٥
 سادساً - اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس ٣٦٦
 لماذا الرد على المستشرقين؟ ٣٦٨

الفصل الرابع

- آثار القرآن المجيد ٣٧١

في اللغة والأدب والبلاغة والنقد

- توحيد اللغة العربية ومد سلطانها في العالم ٣٧٢
 تهذيب ألفاظ العربية والتجديد في معانيها ٣٧٣
 نصب للأدباء المثل البلاغي الأسمى ٣٧٤
 إرساء قيم جديدة روحية وفكرية وإنسانية ٣٧٦
 نشأة علوم اللغة ونموها وازدهارها بفضل القرآن ٣٧٧
 نمو النقد الأدبي واستقرار مقاييسه ٣٧٩
 بحوث في علم النفس الأدبي وعلم الجمال بفضل القرآن ٣٨٠
 تربية ملكة النقد الأدبي العربي ٣٨٠
 الآثار الأدبية تنهج نهج القرآن وتزدان بشواهد آياته ٣٨١
 الغرض من هذا الفصل ٣٨٢

الخاتمة

- مجمل إعجاز القرآن ٣٨٤
 البون الشاسع بين إعجاز القرآن وبلاغة الحديث النبوي ٣٨٦

مسؤوليتنا نحو القرآن العظيم ٣٨٩

الفهارس

٣٩٥ فهرس الآيات القرآنية	١
٤٠٧ فهرس الأحاديث النبوية	٢
٤١٠ فهرس الأعلام	٣
٤١١ ثبتُ المراجع	٤
٤٢٠ مسرد الأبحاث	٥

من الإنتاج العلمي للمؤلف

(أ) في التأليف العلمي:

- نبوة محمد ﷺ في القرآن - ط. ثانية. دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- المعجزة الخالدة - ط. ثانية.
- الشورى في الإسلام - معد للطباعة.
- شَغَفُ الرسول وأصحابه بحفظ القرآن أساس تواتره - (بحث واسع في مجلة كلية الشريعة، العدد السادس، ١٤٠٣ هـ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة).
- مزايا القرآن العظيم.
- وحي الله، حقائقه، وخصائصه، نقض مزاعم المستشرقين، طبعة ثانية، دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- التربية الإسلامية بالإشتراك - طبع وزارة التربية السورية ١٩٦٧ م.
- الأحرف السبعة في القرآن - ط. أولى. دار البشائر الإسلامية.

(ب) في تحقيق التراث الإسلامي:

- تفسير سورة الملك، لأحمد بن سليمان بن كمال باشا. ط. أولى. دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- تفسير سورة النصر، للإمام عبدالرحمن بن رجب الحنبلي. ط. ثانية. دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن - للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي - ط. دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة - للإمام أبي عمرو عثمان الداني - تحت الطبع.